

جيمس تريفل

الجانب المظلم للكون (عالم يستكشف ألغاز الكون)

ترجمة: رؤوف وصفى

2718



ينقسم كتاب (الجانب المظلم للكون) إلى أربعة عشر فصلاً، يتحدث فيها الكاتب عن الكون المتمدّد ويشرح آراء "إدوين هابل" في هذا الصدد، وكذلك يتطرق إلى اكتشاف المجرات وكيفية تكونها، في التاريخ المبكر للكون، ثم يسهب في شرح الانفجار الأعظم الذي بدأ به خلق الكون، وكيفية حدوثه منذ نحو 13.7 بليون سنة، بالإضافة إلى الجسيمات والقوى التي سادت في ذلك الزمن الموعّل في القدم، وكيفية اتحاد تلك الجسيمات دون الذرية، واقتتران القوى وتفكّكها، ثم يناقش الظواهر الكونية المثيرة والمعقدة، ويقدم لها تفسيراً مبسطاً للغاية، مثل الأوتار الكونية والفقاقيع الكونية والعناقيد المجرية والعناقيد المجرية الفائقة وغيرها.

ويخلص من كل هذا، ليتطرق إلى موضوع "المادة المظلمة" التي تكون أكثر من تسعين بالمئة من حجم الكون، وهي غير مرئية لنا، ولكننا نتعرف عليها من آثارها على المجرات (جزر الكون الكبرى)، ويتساءل الكاتب- المتخصص في تبسيط العلوم- هل من الممكن أن تقدم لنا المادة المظلمة، حلاً لمشكلة بنية الكون المروعة، ومن ثمّ نتمكن من التعرف على أهم الظواهر الكونية الغامضة التي لا نجد لها تفسيراً حتى الوقت الحاضر، على الرغم من التقدم المذهل في علمي الفلك والكون. إن كتاب (الجانب المظلم للكون) إضافة متميزة وفريدة للمكتبة العامة العربية.



mohamed khatab

الجانب المظلم للكون

(عالم يستكشف ألغاز الكون)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مفيث

- المدد: 2718
- الجانب المظلم للكون: عالم يستكشف الغاز الكون
- جيمس تريفل
- رؤوف وصفي
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

The Dark Side of the Universe

By: James Trefil

Arabic Language Translation copyright © 2014 by The National
Center for Translation.

Copyright © 1988 by James Trefil

All Rights Reserved

"Published by arrangement with the original publisher Scribner, a
Division of Simon & Schuster, Inc."

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة.
٢٧٣٥٤٥٥٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٢٤ ت:
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

<https://t.me/kotokhatab>

الجانِب المظلم للكون

(عالم يستكشف أغاز الكون)

تأليف: جيمس تريفل

ترجمة: رؤوف وصفى



2016

بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية
تريفل: جيمس. الجانب المظلم للكون: (عالم يستكشف ألفاز الكون) / تأليف: جيمس تريفل: ترجمة: رؤوف وصفي. ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦ ٢٦٠ ص: ٢٤ سم ١- الكون . ٢ - الكونيات ، علم . ٣ - ما وراء الطبيعة . (أ) وصفي ، رؤوف (مترجم) (ب) العنوان ٢٢، ١
رقم الإيداع ٢٠١٥/٨٢٥٤ الترقيم الدولي 3-0227-92-977-978-I.S.B.N. طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

7	- توطئة
13	- الفصل الأول : أفاق ممتدة وأرض متقلصة
35	- الفصل الثاني : اكتشاف المجرات
55	- الفصل الثالث : الانفجار الأعظم
75	- الفصل الرابع : خمسة أسباب تشرح لماذا لا يمكن للمجرات أن توجد ...
91	- الفصل الخامس : فقايع وعناقيد مجرية فائقة
111	- الفصل السادس : المادة المظلمة أقل مما تراه العين
	- الفصل السابع : كيف يمكن للمادة المظلمة أن تجد حلا لمشكلة بنية
127	الكون
	- الفصل الثامن : المادة المظلمة والكتلة المفقودة: ماذا يجب أن يكون
139	مقدارها ؟
159	- الفصل التاسع : مكونات مرشحة للمادة المظلمة
171	- الفصل العاشر : طفرة النيوتريـنو الثقيل
	- الفصل الحادي عشر : هل تتحكم الجسيمات الكتلية ضعيفة التفاعل
189	في الكون؟ تلك المرشحات الغريبة. كمكونات للمادة المظلمة
207	- الفصل الثاني عشر : الأوتار الكونية حل أم مخادعة؟
225	- الفصل الثالث عشر : أبحاث تجريبية للمادة المظلمة
237	- الفصل الرابع عشر : مصير الكون
251	- قائمة المصطلحات العلمية

توطئة

تأمل - إذا أردت - أفكار (أرخيتاس)^(١)، المولود في (تارينثوم)^(٢)، إذ كان فيلسوفًا إغريقيًا وجنديًا وموسيقيًا، وصديقًا لأفلاطون^(٣) وتلميذًا لفيثاغورث^(٤).
سنل ذات يوم "هل الكون محدود أو لانهائي؟".

أجاب قائلًا: "افترض أنه محدود، معنى ذلك أن له نهاية، عندئذ يمكنك أن تسير إلى حافة الكون حاملاً رمحك، وإذا وقفت هناك وقذفت برمحك في الفضاء إلى أقصى حد ممكن. ماذا سيحدث آنذاك؟

لا شيء في الفراغ يجعل الرمح يرتد من جديد، ومن ثم سوف يظل مندفعًا باستمرار إلى أن يهبط. بيد أن موقع هبوطه، سوف يكون خلف النقطة التي قلت إنها حافة الكون، وقتئذ يمكنك أن تسير إلى تلك النقطة البعيدة، وتقذف بالرمح مرة أخرى، وبعدها اذهب إلى مكان الهبوط الجديد. ناهيك عن المكان الذي قلت من قبل إنه حافة الكون. فهناك دائماً مكان خلفي، بوسعك أن تقذف الرمح إليه، ومع كل مرة، تقذف بالرمح، يصبح كونك أكثر رحابة، ونستخلص من ذلك أن الكون ليس له حافة، ومن ثم يجب أن يكون لانهائياً".

ويقدم (أرخيتاس) ورمحه صورة مقنعة، لإحدى أعظم المحاولات المضنية، التي أخذت بتلابيب العقل البشرى في أى وقت، السعى الدؤوب لمعرفة الحجم الفعلى وبينية

(١) (٤٢٨ - ٣٤٧ ق.م). (المترجم)

(٢) في إيطاليا الآن. (المترجم)

(٣) فيلسوف يوناني يعني اسمه "واسع الأفق" (٤٢٧ - ٣٤٨ قبل الميلاد). (المترجم)

(٤) فيلسوف ورياضي يوناني (٥٨٢ - ٥٠٧ قبل الميلاد). (المترجم)

الكون، وعلى اختلاف أبحاث علمية عديدة متشابهة، فإن ذلك السعى يحفز - بشكل يكاد يكون كاملاً - فضول راسخ الجنور، هو التعطش للمعرفة الذي يميز العقل البشرى. ومما لا شك فيه، أن استكشاف حدود الكون على بعد بلايين السنوات الضوئية من كوكب الأرض، لن يحقق للباحت أى كسب مادي. كما أنها لن تسد رمقه ولا تمد آلات الحرب بالوقود. ومع ذلك، وعبر تاريخ العالم المدون، فإن كثيراً من أحسن مفكرينا الذين أنتجهم جنسنا البشرى، كرسوا أنفسهم للإجابة عن هذا التساؤل عن الكون. ونحن الذين ورثنا ثمار جهودهم، ندين بالشكر والعرفان بالجميل لهم. حتى لو لم تكن معاصروهم - فى بعض الأحيان - مقرّين بإنجازاتهم.

ولقد اكتسبنا - إلى حد ما - معرفتنا المعاصرة عن الكون، خطوة بخطوة، مثل تأمل (أرخيتاس) لحامل الرمح التخليى. وفى معظم حقب التاريخ المدون، لم يمتد الكون الذى يتصوره العقل البشرى، أبعد بكثير من السماء الزرقاء ذاتها، وكان كل شخص يعرف أن السماء مرفوعة بواسطة عملاق (أو اثنين، أو أى شىء آخر يمكنك تخيله).

وتم تجاهل محاورات رجال مثل (أرخيتاس)، لأنه كان من المريح أن نتقبل، كحقيقة واقعة، أننا نعرف بالفعل معظم ما كان يجب أن نعرفه عن الكون، ولكن بعد ذلك ألقى حامل الرمح - متخفياً فى زى رجل دين بولندى يدعى (نيكولاس كوبرنيكوس)^(١) - رمحه، فأصبح الكون أرحب بكثير، وأشد فراغاً، مما اعتقده أسلافه. وفى القرن العشرين، اتخذ حامل الرمح، شكل العالم الفلكى (إدوين هابل)^(٢) الذى أوضح لنا أن النجوم التى نشاهدها أثناء الليل تنتمى إلى مجرة واحدة^(٣)، وأن هناك فى الكون آلاف الملايين (بلايين) المجرات. تلك المجرات التى تسكن الكون الذى لم يتخيله (كوبرنيكوس) على الإطلاق.

(١) الفلكى البولندى (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الذى صاغ النظرية القائلة بأن الأرض وكواكب المجموعة الشمسية تدور حول الشمس. (المترجم)

(٢) فلكى أمريكى (١٨٨٩ - ١٩٥٣) الذى قال بأن الكون يتمدد. (المترجم)

(٣) يقصد الكاتب مجرة "الطريق اللبنى". (المترجم)

وفى الوقت الحاضر، لم يعد رمح (أرخيتاس) شيئاً من صنع الإنسان، ولكن شبه نجم (زائف)^(١) يريض عند حافة الاكتشافات الكونية، ويتباعد عنا بسرعة تقارب سرعة الضوء. ولم نعد نعتقد فى المفهوم الساذج، بأن "رمحنا" سوف يهبط فى مكان ما. وحتى لو افترضنا هذا الاحتمال، فلن تكون الحقيقة مجدية لنا، إذ إن بلايين السنين سوف تنقضى قبل أن يصل الرمح إلى "كوكب الأرض". وبدلاً من ذلك، فحرى بنا، أن ندرس كيفية تحرك الرمح، ونتطلع إلى الطرق التى تترتب بها الرياح فى السماء، ونحاول جاهدين أن نحل أحجية جمع وحدات الكون معاً، ويا له من كون مروّع! وفى كل مكان تظهر فقاعات متباعدة وفجوات لا حصر لها. تخيب آمال هؤلاء الذين يحاولون أن يجدوا اتساقاً بسيطاً فى الطبيعة، وحتى بنية الكون، ليست كما نعتقد، إذ إن على الأقل ٩٠ بالمائة من الكون يتكون من مادة شكلها وتركيبها مجهول لنا. وبالكاد لا يمر شهر إلا ونكتشف جانباً جديداً أو غير متوقع للكون. وكلما اقتربنا من الأسئلة الجوهرية، تزداد نسبة ما يفصح عنه الكون من أسرار.

وقد اتضح لنا، أن معظم مادة الكون غير مرئية لنا، ولا تتبعث منها موجات ضوء أو موجات راديوية، تخبرنا عن وجودها، وربما أن تلك القبة الرحبة للسموات والمرصعة بالنجوم، ليس بمقدورها أن تفعل شيئاً للنشاط الحقيقى للأجرام الفضائية، تماماً مثل غصن صغير يطفو على طول قناة، لا يستطيع شيئاً إزاء الطريقة التى تتدفق بها المياه. وبمعنى آخر، لعلنا نعيش فى رحاب كون، تتحدد فيه بالكامل الأشكال المألوفة للمادة - مثل الشمس ومجرة الطريق اللبنى - بواسطة مادة لا نستطيع أن نراها، ولكننا نطلق عليها "المادة المظلمة".

(١) جرم فضائى يبعد عنا بألاف الملايين من السنوات الضوئية، وعلى الرغم من صغر حجمه نسبياً، فإنه يبعث بطاقة وضياء مثل عشرات المجرات، وشمة اعتقاد بأن تقوياً سوداء تمد هذه الأجرام الفضائية بالطاقة. (المترجم)

وكما يحدث مراراً وتكراراً، عندما تنبثق أفكار جديدة من ثنايا أحد العلوم، فإن العلاقات بين هذه الأفكار الجديدة والمشاكل القديمة، تبدأ في الظهور، لقد واجه الفلكيون صعوبات جمة لشرح الأسباب التي تجعل النجوم تتكاثف في شكل مجرات، بدلاً من انتشارها في الفضاء بطريقة أكثر تجانساً. ويبدو أنه كلما زادت معرفتنا بالقوانين الأساسية للطبيعة، بدا أن هذه القوانين تبلغنا أن المادة المرئية - أى المادة التي يمكننا رؤيتها - يجب ألا ترتب بالطريقة التي هي عليها. ومن ثم، فيجب ألا تكون هناك مجرات في الكون على الإطلاق. وحتى إذا وجدت المجرات، فإنها لن تتجمع في شكل عناقيد مجرية، كما هي عليه الآن.

ويصدق الفلكيون في الكون، بواسطة آلات رصد تزداد قوة يوماً بعد يوم، وشاهدوا من خلالها أشياء غريبة تتشكل أمام أعينهم. في البداية رصدوا مجرات أخرى، مثل مجرتنا "الطريق اللبنى"، ثم رأوا أن هذه المجرات تتجمع في عناقيد. وحديثاً، وجدوا أن هذه العناقيد ذاتها، تتجمع في تركيبات عملاقة وتريه الشكل، يطلق عليها "العناقيد الفائقة".

ولعل أكثر الاكتشافات غرابة (وحداث)، أنه بين هذه العناقيد المجرية الفائقة، مناطق شاسعة يطلق عليها "فجوات"، حيث لا تتأجج نجوم ولا تتكون مجرات.

وعلى طول هذه السلسلة المروعة من التركيبات الكونية من الأجرام التي توجد داخل مجرتنا "الطريق اللبنى" إلى أكثر العناقيد الفائقة المعروفة لنا، نجد انطباع المادة المظلمة مثل آثار الأقدام فوق الرمال. وخلال السنوات القليلة الماضية، أدركنا أنه ثمة ارتباط بين المشكلتين، مشكلة التركيب المجري ومشكلة المادة المظلمة.

كما أننا بدأنا نرى إشارات واقتراحات، بأن التركيب المجري والمادة المظلمة، يرتبطان أيضاً بمشكلة ثالثة مهمة، هي مشكلة نشأة الكون وتطوره.

ويبدو أننا أقحمنا أنفسنا في وضع حرج، وبمعنى آخر، إن فشلنا في التوصل إلى حل لسلسلة من المشاكل الكونية، قادنا إلى إدراك أن كل هذه المشاكل، يجب أن يتم حلها معاً، وأن الاتجاه لحلها على مراحل لن يؤدي إلى أى نتيجة.

وما أود أن أفعله فى هذا الكتاب، هو تعريفك بركن غريب فى العالم العلمى، حيث إن الحلول لمثل هذه الأنواع من المشاكل، يتم بحثها. إنه مكان يقذف الباحثون فيه بمجرات تحتوى على بلايين الشموس، كما يقذف صبى بالكرات الزجاجية! وحيث إن أى اكتشاف لا يكاد يتوفر له الوقت - لكى يتصدر نشرات الأخبار أو يصبح عنواناً رئيسياً فى مقال أو جريدة - حتى يتم التوصل إلى اكتشاف آخر، أكثر من الأول غرابة. إنه عالم يوسع من حدود العقل البشرى، عالم حيث تقطن - الكواركات البالغة الضلالة وأكوان الظل والأوتار الكونية - فى المشهد الطبيعى النظرى للكون. إنه مكان فقاعى^(١) وهامى مسبب للدوار، حيث تنبثق فيه وتتطور أفكار جديدة، بإثارة وحيوية، مما يبشر بإمكانية ظهور علم حديث له آفاق مستقبلية، إننا محظوظون، لأن ما نراه اليوم عبارة عن لقطة سريعة خاطفة وصورة إيقاف حركة لعلم جديد فى لحظات ميلاده.

وحيث إن كل الإجابات ليست متاحة بعد، يمكننا إذن أن نركز على سلسلة العمليات التى يقوم بها العلماء للتوصل إلى اليقين، أكثر من الحقائق نفسها. سوف نحظى بالمعرفة والفهم من خلال الدراسة، عن كيفية استبعاد الأفكار الرديئة التى ليست على المستوى وتسىء للعلم، ومن ثم، فإننى لن أشعر بالذنب عندما أخبرك بفكرتى الأثيرة حول موضوع مفضل فى مجال المادة المظلمة: "الأوتار الكونية". وكما يتضح من هذا الاسم، فإن هذه الأوتار يفترض أنها عبارة عن حبال رفيعة من خيوط مجبولة، ذات بعد واحدة من المادة المظلمة. وهذه الأوتار الكونية كثيفة لدرجة لا يمكن تخيلها، وقد تشكلت عندما كان عمر الكون جزءاً من الثانية. وفيما بعد، أصبحت تلك الأوتار بمثابة نوى حول المادة المرئية المتكاثفة، وفى الوقت الحاضر، اقترح بعض العلماء النظريين، أن الأوتار الكونية توجد فى العناقيد المجرية الفائقة التى تمتد بجلال عبر السماء. ولو كان الأمر كذلك، فإن الكون - بحق - يكون أغرب من أى شىء أمكننا تخيله إلى يومنا هذا.

(١) مليء بالفقاعات أو منتج لها. (المترجم)

ويكون من الممكن - من حيث المبدأ - أن نرتحل في سفينة فضاء إلى أحد أجزاء
وتركونى، ثم نغادره ونسير لبلليون سنة ضوئية، أى حوالى عُشر الطريق عبر
الكون.

وفى الوقت الحاضر، وبعد مرور نحو ألفى عام على مجادلة (أرخيتاس) عن طبيعة
الكون، نوشك أن نقدم إجابة عن أسئلته التى أثارها عن حجم الكون وبينته.

وفى المختبرات الهائلة لمسارعات الجسيمات دون الذرية، وفى المراصد الفلكية
التي ترصد الأجرام الفضائية البعيدة، وبواسطة حواسيب جبارة التى تجرى عمليات
حسابية بسرعة مذهلة، بدأ العلماء يضيقون الخناق على حامل الرمح، لكى يحدوا من
اختياراته ويقيّدوا من حركته. وفى الواقع، فربما يحظى جيلنا بأن يكون له الفضل فى
إمدادنا بالإجابة الحاسمة للأسئلة التى حيرت وأربكت العقل البشرى منذ فجر
التاريخ المون.

إزاء هذا، أرجو منكم أن تتخيلوا أنكم تغادرون مقاعدكم المريحة ذات المساند،
وأن ترتحلوا معى إلى الآفاق القصية للمعرفة الإنسانية والخيال. على أن يكون هدفنا
المطلوب تحقيقه: هو إدراك لأصل الكون وبينته ومصيره.

الفصل الأول

آفاق ممتدة وأرض متقلصة

(عندما كنت جالساً في قاعة المحاضرات، أستمع إلى محاضرة الفلكي التي لاقت استحساناً كبيراً، سرعان ما شعرت - ويدون أى سبب مفهوم - بأنني متعب وسقيم، حتى قمت وغادرت المكان وتمشيت قليلاً بمفردي.
وفي هواء الليل الندي المغمم بحقائق روحية غير بادية للحواس.
ومن وقت لآخر، كنت أتأمل في صمت مطبق وخشوع، تلك النجوم المتألقة في مخمل السماء الأسود).

والت ويتمان

عندما سمعت الفلكي الواسع المعرفة

كل حضارة تنال الكون الذي تستحقه، ولا أعني بهذا أن الكون يتغير بالفعل،
عندما تتبدل أفكارنا عنه، فقط الفيلسوف الذي يعيش في برج عاجي^(١)، هو الذي يمكنه
أن يدعي أمراً كهذا. إن ما أعنيه، أننا كلما عرفنا المزيد عن الكون، تتغير الأسئلة التي
نطرحها والنور الذي نحدده لبنية السماوات.

(١) الذي يعيش منعزلاً ويهتم بالمواضيع الفكرية الخيالية غير العملية. (المترجم)

يبدأ كل باحث بنفس الحقائق الأساسية، أن الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب، وتبقى النجوم ثابتة بالنسبة لبعضها البعض، أما الكواكب فإنها تتحرك. ما الذي يمكننا أن نفعله بهذه الحقائق الدامغة، نبني نموذجاً يكون بمقدوره أن يشرح هذه الظواهر الطبيعية، وكلما تعاظمت الحقائق، كتفسيرات منطقية لما نراه. وعلى سبيل المثال، فبالنسبة لزملاء (أرخيتاس)، كان الاعتقاد بأن الأرض ليست مركز الكون، أمراً لا مجال للتفكير فيه على الإطلاق، أما فيما يتعلق بنا، فإن ذلك الاعتقاد أصبح بديهياً، وهذا بدوره ينتج تأثيراً معيناً، على أنواع النماذج التي نشيدها في أذهاننا للكون.

ولو أن هناك درساً وحيداً، أخذ ينبع من التقدم الذي أحرزه الجنس البشري، بفضل تصورات وأفكاره المتلاحقة عن الكون، يمكن تلخيصه كما يلي: كلما زادت معرفتنا، ظهر لنا أن كوكبنا وجنسنا البشري ليس جوهرياً أو مركزياً في الكون.

واتضح - نون شك - أننا سكان صخرة صغيرة، تدور حول شمس عادية للغاية، في مجرة غير مميزة بصفات معينة على الإطلاق. وأدركنا كذلك أن الأمور في الكون لا تحدث عشوائياً، ولكن كل حدث ينظمه ويتحكم فيه، عدد قليل من القوانين الطبيعية، وهذه القوانين يمكننا أن نكتشفها في مختبراتنا. إن كل شيء نراه في السماء وكذلك على الأرض، يحدث بطريقة عقلانية ومنهجية منظمة. هذا هو كوننا، الذي عرفناه وفهمناه أثناء الدراسة، بيد أنه - بأي حال من الأحوال - ليس الكون الوحيد الذي يمكن أن يتخيله العقل البشري.

ودعني أسوق إليك بعض الأمثلة التي توضح وتفسر لك، ما أعنيه بهذا. إن أقدم التفاسير المكتوبة المتوفرة لدينا، عن الخليفة، في الجزء من الملحمة^(١) البابلية التي يطلق عليه "Enuma Elish"، وقد اشتق هذا الاسم من أول كلمتين من الملحمة التي يمكن ترجمتها بعبارة "عندما نكون في الأعلى". ومثل جميع قصص الخليفة، فإنها تقدم تفسيراً مترابطاً منطقياً ومتوافقاً ذاتياً، عن كيفية وجود الكون، وكيف أنه تطور ليصبح كما نشاهده حالياً.

(١) قصيدة قصصية طويلة تصور الأعمال البطولية أو الأسطورية. (المترجم)

والحدث الرئيسى فى قصة الخليقة - كما جاءت فى الملحمة البابلية - معركة دامية بين قائد الآلهة (ماردوك) والوحش (تيامات)، الذى يمثل قوى الفوضى والاضطراب، وكذلك أمّ الأرباب، واستطاع (ماردوك) أن يحقق النصر، فى هذه المعركة. وقام بقطع جسم (تيامات) إلى نصفين، استخدم أحدهما لخلق الأرض والنصف الآخر لخلق السماء، وفيما بعد، قامت الآلهة بوضع النجوم فى السماء، لتذكير الجنس البشرى، بواجباته الدينية.

ومن جديد، نعود إلى مصر. لقد كان مرور الشمس عبر السماء، حدثاً جليلاً وجوهرياً لكل السكان، وفى معظم الأفكار الأولية عن الكون، كان يفسر مرور الشمس هذا، بحركة ذات طبيعة خاصة لإله الشمس بمركبته الحربية ذات العجلتين التى تجرها الخيل.

وفى إحدى صيغ القصة، التى كانت منتشرة فى المملكة الوسطى بمصر القديمة، كان إله الشمس يقود مركبته عبر السماء كل يوم. وفى المساء كان يهبط إلى العالم السفلى، حيث يخوض حرباً ضروساً مع ملك الظلام، لكى يجاهد من أجل شق طريقه من جديد إلى ناحية الشرق، حتى يشرق مرة أخرى. أما الألوان الحمراء التى تظهر عند غروب الشمس وبنوغ الفجر، فقد نجمت عن إراقة الدماء فى هذه المعارك الطاحنة. وإذا كنت تعتقد وتؤمن أن هذا هو التفسير الحقيقى لشروق الشمس، فمن الطبيعى أن تتقبل احتمالية، أنه ذات ليلة ربما ينتصر ملك الظلام على ملك الشمس.

واعتماد المصرى القديم على طرح السؤال "هل سوف تشرق الشمس غداً؟".

وهذا تساؤل يحب طلاب السنة الأولى للفلسفة أن يتجادلوا حوله، وهو ليس تدريباً أكاديمياً، متعلقاً بالدراسات العقلية أو الكلاسيكية.

والمفكر المصرى القديم، لا يستطيع أن يتقبل ظاهرة شروق الشمس، كحدث تلقائى، وأمر مسلّم به جديلاً.

وكل شروق للشمس حدث منفصل، ومعجزة موجودة ولها كينونة مستقلة، تعتمد على مدى ما حققه إله الشمس من انتصارات على ملك الظلام فى العالم السفلى، فى الليلة السابقة.

وبالنسبة للبابليين، فإنه حتى وجود الكون، كان حقيقة تصادفية^(١). إننا موجودون فى هذا الكون، لأن (ماردوك) حقق النصر على الوحش فى المعركة. وإذا لم يكن قد فعل ذلك، لسادت الفوضى التى عمت العصور القديمة، حتى الوقت الحاضر. وما كانت هناك أرض ولا سماءات، وبالتالي - بطبيعة الحال - لا يوجد جنس بشرى، يتسامل عن كيفية حدوث الخليقة.

وفى كل من المثالين، فإن السماوات البارزة الرئيسية لهذا العالم، تعتمد على أحداث لا تخضع لقوانين ثابتة، غير قابلة للتغير أو التطور. ويمكن للآلهة فقط أن يتحكموا فى الكون، وبالإمكان استعطافهم لتلبية الاحتياجات البشرية عن طريق إقامة الطقوس الدينية.

وتساورنى الشكوك، فى أن الأكوان التى تعج بالأرواح والآلهة، يمكن أن توفر إشباعاً عاطفياً، لهؤلاء الذين يؤمنون بها، أكثر من الذى يقدمه كوننا لنا.

وعلى أية حال، فإن الكون كانت تقع فيه الأحداث، بطريقة بشرية للغاية. ولم تختف تماماً، تلك الجاذبية التى تكمن فى هذه المعتقدات القديمة، حتى فى الوقت الحاضر.

وقد تضمن الجزء الأكبر من الحركة الثقافية المناهضة^(٢) فى الستينيات من القرن العشرين، رفضاً للثقافة العلمية العقلانية، لأمريكا المعاصرة، وعودة إلى الرؤية الأكثر أسطورية للكون.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان هناك تجانس عاطفى، كما فى الطرق القديمة، مما أدى إلى ترك الكثير مما نرغب فيه ونصبو إليه، من الناحية العقلانية.

(١) حالة ممكنة ولكنها غير محتومة. (المترجم)

(٢) حركة ثقافية ذات قيم مخالفة لثقافة الجيل السابق. (المترجم)

سواء كانت ثمة معركة فى العالم السفلى أم لا، فإن الشمس تشرق بالفعل فى كل صباح. وربما تعتمد حركة النجوم والكواكب، على رغبات الآلهة، بيد أنها منتظمة ويمكن التنبؤ بمساراتها.

والى حد ما، فإن تقارب الحقائق الشخصية تماماً والتصادفية، للأكوان القديمة مع السلوك المنتظم للسموات، يبدو صعب التفسير، على الأقل بالنسبة لعقل من يعيش فى القرن العشرين.

كان الإغريق هم أول من أدرك طبيعة الكون، وكانت أفكارهم تكاد تتطابق مع أفكارنا عن الكون فى الوقت الحاضر. وتميزت أراؤهم بالشكوكية^(١) متقدمة الذكاء، وعلى سبيل المثال، فقبل جيل كامل من عصر (أرخيتاس)، قام المؤرخ اليونانى (هيروdot) ^(٢) بزيارة مصر وطاف بأرجائها. وهناك أرشده إلى معبد يقدم فيه الكهنة، الطعام لأحد آلهتهم، فى كل مساء، وفى الصباح لا يبقى من الطعام شئ، وكانت هذه حقيقة قدموها للمؤرخ اليونانى دليلاً على وجوه الإله.

وعلق 'هيروdot' على هذا بقوله 'لم أشاهد أى إله، ولكنى شاهدت فئراناً عديدة حول قاعدة تمثال الإله!' وكان من الصعب ألا يعجب الناس بشخص يفكر بهذه الطريقة! ومناقشة هذه الأفكار والمعتقدات، قادت اليونانيين إلى تصور كون كان يختلف اختلافاً بيناً، عن التصورات التى سادت فى الأزمان الغابرة. لقد كانت أفكارهم تلقى اهتماماً بالغاً من الباحثين، إلى الحد أن نظرياتهم عن السماوات بقيت معترفاً بها حتى ما بعد عصر النهضة^(٣)، أى بنحو ألف وخمسمائة عام. وأتعجب إذا كانت نظرياتنا عن الكون، سوف تبقى لكل هذه السنين الطويلة!

وكان (كلوديوس بطليموس)، هو العالم الذى يقال دائماً إنه مفسر الفلك اليونانى، وقد عاش بالإسكندرية فى القرن الثانى الميلادى. وعلى الرغم من أنه يحمل نفس اسم حكام مصر فى ذلك الوقت، فإنه لم يكن - فى حدود معرفتنا - ينتمى إلى العائلة المالكة.

(١) المذهب القائل بأن المعرفة المطلقة مستحيلة وغير مؤكدة. (المترجم)

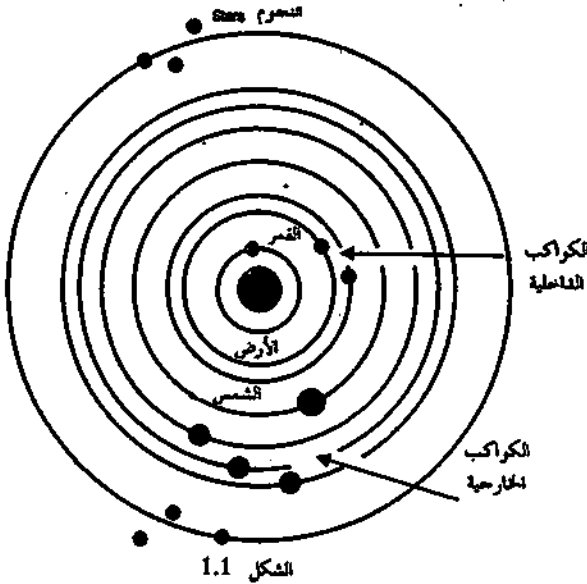
(٢) (٤٨٤ - ٤٢٥ قبل الميلاد). (المترجم)

(٣) مرحلة ثقافية فى كل المجالات، ظهرت فى إيطاليا فى القرن الرابع عشر ووصلت إلى ذروتها فى القرن الخامس عشر، وانتشرت بعد ذلك فى كل أنحاء أوروبا. (المترجم)

وعمل (كلوديوس بطليموس) فى مؤسسة تُعرف باسم "متحف الإسكندرية" وكانت بمثابة مركز أبحاث ومختبر حكومى حديث.

وكان العلماء والباحثون يقومون بعملهم ويكتبون أبحاثهم، دون أن يكلفوا بأية أعباء تدريسية مما قد يعيق تحقيق إنجازاتهم العلمية.

واستطاع بطليموس جمع القياسات التى قام بها أسلافه اليونانيون والبابليون، وأضاف إليها ما حققه بنفسه، ثم بنى على أعمالهم السابقة، ومن ثم توصل إلى ابتكار نموذج للكون، يتضمن كل الظواهر التى تمت ملاحظتها. ويوضح (شكل ١-١). مخططاً أولياً لكون بطليموس، كانت فيه الأرض فى المركز. وتدور حولها كرات بلورية، تحمل الشمس والقمر والكواكب. وكل كرة تدور بمعدل مختلف، مما يفسر حركة الكواكب بالنسبة لبعضها، وكذلك بالنسبة للنجوم. أما الكرة الأكثر بعداً عن المركز، فإنها تحمل النجوم. وهذه الكرة تدور بمعدل يزيد قليلاً عن مرة كل يوم. وتبين الدورة الواحدة، لماذا تتحرك النجوم عبر السماء فى كل ليلة، وتفسر الزيادة البسيطة فى هذه الدورة، سبب وجود نجوم مختلفة فى السماء، شتاءً وصيفاً.



والتعليل التفصيلي لحركة الكواكب، كان يفترض أن هذه الأجرام الفضائية تتدحرج في بوائر صغيرة (يطلق عليها: فلك التدوير)^(١)، والتي تتدحرج بدورها على الكرات الرئيسية.

وقد بنى نموذج الكون البطليموسى، على افتراضين غير متحدث عنهما، ولكنهما سيطرا على الفكر اليونانى القديم. أولهما "مركزية الأرض": أى الاعتقاد بأن كوكب الأرض، فى مركز الكون، وثانيهما الفكرة بأن الحركة فى السماوات تتضمن بوائر أو كرات. وهذان الافتراضان جديران بأن نتذكرهما، لأنهما بمثابة مثالين باهرين للاعتقاد الباطل بالاعتماد على آراء واضحة للغاية، وتبدو أنها لا تقبل الجدل ولا يمكن إنكارها. وللأسف، فإن مثل هذه الآراء تكون دائماً خاطئة، والعالم لا يتناغم تماماً - كما نظن أحياناً - مع الطريقة التى نفكر بها.

وعلى سبيل المثال، لا شىء يكون أكثر وضوحاً، من القول بأن كوكب الأرض ثابت، وأن الشمس والكواكب تدور حوله، وأى شخص لاحظ بانتباه غروب الشمس، يعرف أن الشمس تتحرك إلى أسفل تحت الأفق ولكى تؤمن بخلاف ذلك، يتطلب الأمر إجراء تجربة أخرى مفعمة بالحياة والنشاط ومؤثرة، بحيث تلقى ظلالاً من الشك، على الدليل المباشر الذى أدركته حواسنا. ويمكن قول نفس الشىء على فرضية الحركة الدائرية للأجرام الفضائية فى الكون.

وقد جادل الفلكيون اليونانيون، ببساطة شديدة، أن السماوات يجب أن تكون - بشكل جلى وواضح - كاملة ودائمة لا تتغير. ومن ثم، فإن النجوم والكواكب يجب أن تتحرك فى مدارات توصف بأنها أشكال هندسية كاملة للغاية. وما الشكل الهندسى الأكثر كمالاً من الدائرة؟

(١) فى فلك بطليموس هو دائرة صغيرة يتحرك مركزها على محيط دائرة أكبر مركزها الأرض. (المترجم)

ويبدو أن الدائرة تمارس قوة غريبة على العقل البشرى. إذ كلما تحدثت عن الفلك اليونانى فى إحدى محاضراتى، كنت أقوم دائماً بإجراء اختبار بسيط. كنت أسأل طلابى، عن الشكل الهندسى الأكثر كمالاً.

وكانت الإجابة دائماً ثابتة لا تتغير: الدائرة أو الكرة. ولم أسمع قط أى طالب، يقول المربع أو الشكل السداسى^(١).

ولو تابعت هذه النقطة، بالتساؤل: لماذا تكون الدائرة كاملة، عادة تكون هناك فترة تريت، ثم قد يتطوع شخص ما بالإجابة بالقول بأن كل النقاط على الدائرة متساوية البعد عن المركز. وإذا سألت كيف يؤدى ذلك، إلى جعل الدائرة كاملة، عندئذ يسود الصمت المطبق!

وقد كررت هذا الاختبار مرات عدة، حتى أتأكد من أن النتيجة ليست خبط عشواء أو حادثاً بالمصادفة، وهى توضح - بما لا يدع مجالاً للشك - عن طريق استخدام الأمثلة، ذلك الدور الذى يقوم به الافتراضيون خفية دون الإعلان عنها.

وثمة شعور بصحة هذين الافتراضين، ما دام لا أحد يطرح أسئلة، فكل شيء يبدو منطقياً وحقيقياً. بيد أن الافتراض يشبه ملابس الإمبراطور، وما أن يتسلل الشك إلى عقول الناس فإنهم، على حين غرة، يكتشفون الشيء المفقود. وهذه التجربة، تجعل الناس عادة، مرتبكين وغاضبين. وأعتقد أن هذا هو السبب فى أن الهراطقة^(٢) عادة ما كانوا يحرقون أحياء وهم مربوطون فى أعمدة.

وقد شكلت الافتراضات اليونانية غير المعلن عنها، لب الكون العلمى، لآلف وخمسائة سنة. وأولئك الذين عاشوا خلال هذه الفترة الزمنية، كانوا بالتأكيد أذكىء منا، ومع هذا لم يخطر فى بالهم، أن يواجهوا أسئلة، تبدو لنا الآن واضحة كل

(١) مضلع له ستة أوجه. (المترجم)

(٢) الخارجون على الدين. (المترجم)

الوضوح. ولكن ما الذى يمكن أن يخبرنا به ذلك عن قدرة الجنس البشرى، فى تتبع افتراضاته الخفية؟ أخشى أن تكون الإجابة غير مشجعة.

وسوف نكون غير أمناء، إذا لم نحاول أن نطرح أسئلة مشابهة، عن مفاهيمنا فى القرن العشرين عن الكون. وحسبما يتراعى لى، فالافتراض الرئيسى غير المعلن عنه فى علم كون القرن العشرين، أن هناك حلاً عقلانياً ورياضياً واضحاً لكل مشكلة، حتى مشكلة خلق الكون. ويتجاوب معظم الناس مع هذا المفهوم بتشكك: كيف يمكن أن يكون غير ما هو مفترض؟ وإننى أتخيل أن اليونانى كان قد استجاب بنفس الطريقة، إذا ما تساءل شخص ما عن افتراض مركزية الأرض. ومع ذلك، فالليونانيون كانوا مخطئين وربما نكون مخطئين نحن أيضاً.

وفى الواقع، منذ زمن ليس ببعيد، قام بعض العلماء فى جامعة "بيركلى" بتحدى هذا الافتراض غير المعلن عنه، للعلم الغربى، مدعين بأن التطور الذى حدث فى ميكانيكا الكم^(١)، سوف يدفع الفيزيائيين المحدثين إلى تغيير آرائهم عن الكون، لتصبح متناغمة مع البوذية^(٢) أكثر من الفكر العلمى التقليدى. ولكن صادفهم سوء حظ لا يُصدق، عندما حاولوا تدعيم تحديهم هذا، قبل التقدم الذى حدث فى نظريات المجال الموحد، التى تعد أحد أعظم تطورات العلم قاطبة. وسوف نناقش هذه النظريات، فيما بعد، ويكفى هنا أن نشير - ببساطة - إلى أنها تطورت فى وقت، كانت أساسيات العلم تتعرض لهجوم شرس، وأدت النجاحات التى حققتها تلك النظريات، إلى وضع نهاية - ولو مؤقتاً - لآى محاولة جادة لتحدى افتراضنا غير المعلن عنه. وأسارع للقول بأننى أعتقد أن افتراضنا صحيح، أى أن هناك حلاً عقلانياً لمشاكل علم الكون. ويمكن التوصل إلى هذه الحلول بالتطبيق الدقيق للطريقة العلمية.

(١) النظرية المتعلقة ببنية وحركة الذرات والجزيئات. (المترجم)

(٢) تعاليم الفيلسوف بوذا (٥٦٠ - ٤٨٠) قبل الميلاد. (المترجم)

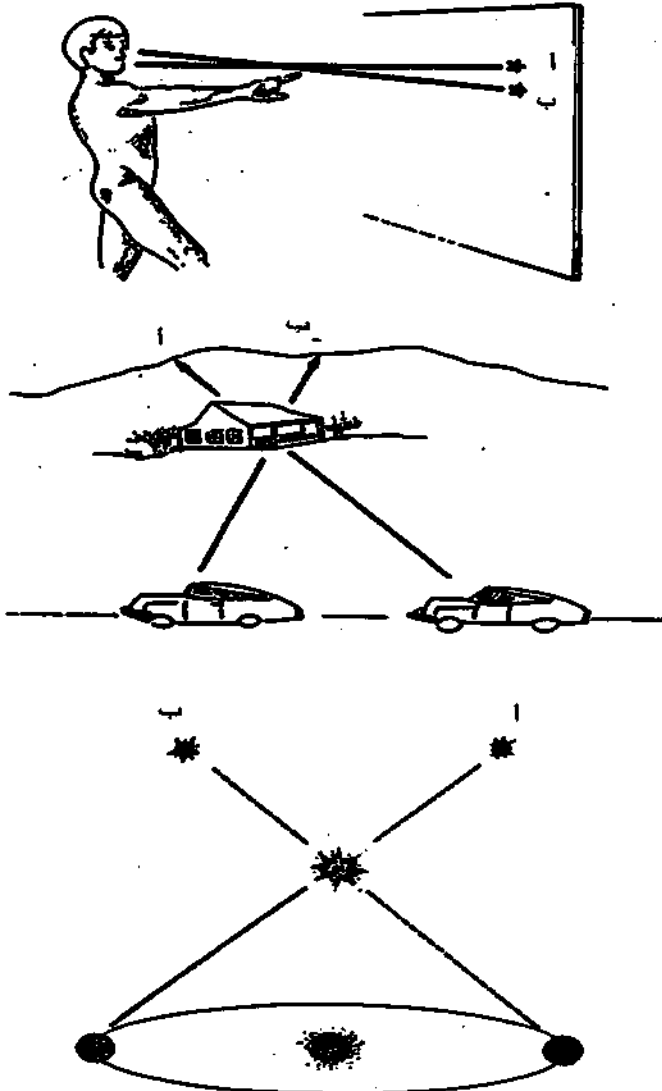
وما دام الآخرون كانوا قد اعتقدوا - بنفس قوة اعتقادنا - فى صحة افتراضاتهم، ثم اتضح لهم فيما بعد أنهم كانوا مخطئين، يدعوننا هذا إلى أن نكون مدركين للحقيقة، بأننا علينا - نحن أيضاً - أن نطور مفاهيمنا العلمية، على أساس الافتراضات التى سوف تثبت صحتها فقط، عندما تتم الإجابة عن كل الأسئلة التى تثار حولها.

وإذا كنت تعتقد أن الأرض هى مركز الكون، إذن، فإن كونك سوف يكون - نسبياً - مكاناً صغيراً محدوداً. أما إذا قبلت كحقيقة أن الأرض تدور حول الشمس، فإن الكون يجب أن يكون أكثر رحابة وأشد اتساعاً، ويرجع السبب فى هذا إلى تأثير ما يُطلق عليه "التزَيُّع"^(١). ولتوضيح التزيُّع، حاول أن تمد ذراعك، وإصبع يدك موجه إلى الأمام، ثم أغلق إحدى عينيك. ويعينك المفتوحة سوف ترى إصبعك يستقيم مع هدف ما بعيد، مثل علامة على جدار، أو شجرة أو أى شيء آخر. والآن عليك أن تغلق عينك التى كانت مفتوحة ثم افتح الأخرى، وانظر إلى إصبعك من جديد. سوف تلاحظ أنه لم يعد يستقيم مع نفس النقطة، ولكن مع هدف آخر، إن هذا التزحزح (التبديل فى الموقع)، هو ما يطلق عليه اختصاراً "التزَيُّع".

إن هذه التجربة التى أجريتها فى التو، تم تمثيلها بمخطط بصفحة ٢٢ فى (الشكل ١-٢). (إلى أعلى). إنك عندما تنظر بعين واحدة فى اتجاه إصبعك، فإن خط الرؤية بالنسبة لك - كما هو موضح فى المخطط - يمكنك من رؤية النقطة "أ" على استقامة إصبعك الموجه إلى الأمام. وعندما تنظر من خلال العين الأخرى، فإن خط

(١) تغير ظاهرى فى موقع الشيء المرصود وخاصة الجرم الفضائى. بسبب اختلاف مكان الرؤية. (المترجم)

رؤيتك يتزحزح، ومن ثم، فإنك ترى إصبعك يستقيم مع النقطة ب. وليس ثمة غموض
هنا، ولكن مجرد مسألة هندسية بسيطة.



الشكل 1.2

والأمثلة عديدة على هذه الظاهرة. فإذا كنت تقود سيارتك على طول طريق سريع، كما هو موضح في (الشكل ١-٢). (في المنتصف)، فربما يبدو لك منزل يتحرك عكس الخلفية البعيدة. وهذه الحركة الظاهرية، أحدثتها الحقيقة، التي مفادها أنه بينما تتحرك سيارتك، فإنك تنظر إلى هذا المنزل من زوايا مختلفة على طول الطريق.

ولنفترض الآن، أن الأرض تتخذ لها مداراً حول الشمس بالفعل، كما هو موضح في (الشكل ١-٢). (إلى الأسفل). فإذا نظرت إلى نجم قريب في فصل الصيف، فإنك سوف تراه يستقيم مع نجم أكثر بعداً، مثل المميز بحرف "أ" في الشكل. وبعد ستة أشهر، عندما تكون الأرض في منتصف المسافة من مدارها حول الشمس، سوف يكون أقرب نجم على استقامة مع شيء مختلف مثل ذلك النجم المميز بحرف "ب". تماماً كما بدا المنزل يتحرك، عندما كانت سيارتك تتحرك على طول الطريق السريع، فالنجوم والكواكب يجب أن تظهر وكأنها تتحرك، مثل الأرض التي تنطلق في مدارها.

والتزيح النجمي^١، أي الحركة الظاهرية للنجوم التي تسببها حركة الأرض في مدارها، يمكن رصدها بواسطة التليسكوبات الحديثة، بيد أن التأثير يكون ضئيلاً للغاية، إلى حد أنه لا يمكن أن يكشف عنه، بأي من أجهزة الرصد الفلكية التي كانت متوفرة لليونانيين أو لعلماء العصور الوسطى. كل ما كان لديهم الملاحظة بالعين المجردة. وبالنسبة لهم لم يكن هناك أي تزيح، ومن ثم كانت هذه حقيقة مهمة استنتجوا إليها، ضد أي محاولة تهدف إلى اعتبار الأرض ليست في مركز الكون، ووضعها في مكان آخر.

وعلى الرغم من اقتراح بعض "العلماء" اليونانيين مثل (فيثاغورث) و(هيباركوس)^(١) أن الشمس ربما تبيض في مكان مركزي في الكون، فإن مجادلاتهم لم تؤخذ على محمل الجد.

(١) فلكي يوناني شهير (١٩٠ - ١٢٠) قبل الميلاد. (المترجم)

والسبب في الغياب الواضح للترزيح، أن الكون مترامي الأطراف ورحب إلى حد أنه لا يمكن رؤية أي ترزيح بالعين المجردة. ولم يقترح وجود الترزيح إلا في القرن السابع عشر. وكان نموذج الكون البطليموسي، متوافقاً إلى حد كبير مع طريقة تفكير العلماء في العصور الوسطى.

وما إن قُدم هذا النموذج لأوروبا في القرن الثاني عشر (عن طريق ترجمة من الكتب العربية المأخوذة من النصوص اليونانية القديمة) اجتاحت الجامعات كالعاصفة الهوجاء. وكان الاعتراض الوحيد لنموذج الكون البطليموسي - وفق ما توصلت إليه - من (إيتيين تيمببلي) أسقف^(١) باريس، الذي قام في عام ١٢٧٧ بإصدار ٢١٩ شجباً وإدانة وتوبيخاً حاداً، للتعليم اليوناني الجديد، الذي كان يدرس في الجامعات الأكاديمية.

ويبدو أن اعتراضه الرئيسي، ينحصر في أن الحديث عن قوانين الطبيعة، يجعل الكليات العلمية تحد - إلى حد ما - من سلطة الرب. وأُعترف: (في قرارة نفسي، أن هذا الجدل يصيبني بالقشعريرة!)

وعلى أية حال، فإن الكون البطليموسي، سرعان ما اندمج مع الفكر المسيحي، كما هو واضح في (الشكل ٢-١)، الذي يمثل حفراً خشبياً من قصص الكتاب المقدس تأليف (مارتن لوثر)^(٢)، الذي نشر في عام ١٥٢٤، وتظهر فيه عملية الخلق، كرات متحدة المركز وجنة عدن في المركز.

(١) رجل دين مسيحي نو منزلة رفيعة. (المترجم)

(٢) (١٤٨٣ - ١٥٤٦) راهب ألماني وأستاذ للاهوت، قام بثورة ضد الكنيسة. (المترجم)



الشكل 1.3

ويطابق الكون البطليموسى الرأى الذى ساد من قبل عن الكون "الروحى" الذى احتل فيه الإنسان مكانة متوسطة، حيث يوجد الجحيم أسفل قدميه والجنة من فوقه. والأجرام السماوية كالنجوم والكواكب، كانت بين الإنسان والسماء. وتزودنا البراكين بلمحات ونظرات خاطفة عن العالم السفلى، واللون الأزرق للسماء وقت النهار، كان انعكاساً لبهاء الجنة ومجدها.

وينزع الشياطين الأرض أثناء الليل، عندما تقوم الظلال بحجب الوهج السماوى، وهذا دليل آخر على منطقية هذا الكون، وقد قام عالم كبير ولاهوتى عظيم

هو (توماس أكويناس) (١٢٢٤ - ١٢٧٤)، بتأسيس مبدأ حق العقل العلمى، ليعمل وفقاً لقواعده الذاتية، ضمن الإطار الأكبر للعقيدة المسيحية، وهذا ما زاد من قوة فكرة أن الأرض هي مركز الكون، وسارت هذه الفكرة جنباً إلى جنب مع العقيدة المسيحية.

وهكذا، جمع مفهوم الكون في العصور الوسطى، أفضل ما في كلا الكونين: فلك اليونانيين العقلانى الذى يتضمن الظواهر الكونية والميثيولوجيا^(١) التى سادت فى العصور القديمة، وكانت تشبع احتياجات ورغبات وتوقعات الحياة والطبيعة الروحية. ولا عجب أن الكنيسة والسلطات العلمانية فى أواخر عصر النهضة، كانوا مترددين إلى حد كبير، فى التخلص من هذا التركيب.

ومع هذا، فقد تخلصوا من ذلك التركيب بمرور السنين، إذ إن الافتراض اليونانى القديم، الذى يشكل جزءاً لا يتجزأ من نظام بطليموس فى الفلك، لم يقو على الوقوف أمام الرصد بواسطة الأجهزة المتقدمة.

وعندما حاول بطليموس حساب حجوم ومعدلات دوران الكرات التى داخل الكرات، قام بتعديل النتائج حتى تتسجم مع الأرصاد التى كانت متاحة فى عصره. وهذا مشابه لضبط ساعتك وفق المرصد الفلكى البحرى فى الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا قمت بالتعديل بدقة، سوف يسير كل شيء على ما يرام لفترة، سواء كان ذلك كوناً أو مجرد ساعة.

ولكن مع مرور الوقت، فإن أى خلل بسيط فى ساعتك، سوف يخرجها من التزامن^(٢) مع الوقت الصحيح، وكلما طال انتظارك، زاد التعارض الظاهرى، وقد حدث نفس هذا الشيء لكون بطليموس الذى يشبه الساعة الفلكية.

(١) مجموعة من الأساطير الخاصة بشعب ما وعاداتهم وتنظيمهم الاجتماعية. (المترجم)

(٢) الوقوع فى زمن واحد. (المترجم)

وفى أواخر العصور الوسطى، أبدأت الساعة الفلكية القديمة جليا عدم دقتها، فإذا قام الفلكيون بحساب الموقع الذى يجب أن يكون فيه أحد الكواكب، يتضح لهم أنه ليس هناك.

وقد أجرى البعض تجارب غير حاذقة ومحاولات تجريبية لتعديل فكرة الكرات الكونية. ولكن بسبب الاحترام الفائق لتعاليم الأقدمين، لم يفكر أحد بجدية فى التفحص الشامل، من أجل إجراء الإصلاحات الشاملة لنظام بطليموس الفلكى.

وكان هناك استثناء واحد، رجل دين بولندى منعزل عن الآخرين، يعمل فى كاتدرائية^(١) تقع على نهر فيستولا^(٢). إنه (نيكولاس كوبرنيكوس) الذى لم يزعج نفسه بالمشاكل التى أفرزها النظام البطليموسى، بسبب محاولات مواعة النظرية والتفكير النظرى مع الملاحظات الفلكية الفعلية.

والواقع أن (كوبرنيكوس) لم يظهر براعة كفلكى أو راصد للكون. وبدلاً من التحديق والنظر بتمعن إلى النجوم، قضى وقت فراغه فى مكتبه، يدرس بعناية وترو، ويتفحص بدقة ويتأمل، ويصمم النماذج الرياضية. وكان هدفه أن يتعرف على إمكانية ابتكار نموذج للكون، يعمل مثل كون بطليموس، ولكن تتخذ فيه الأرض مداراً حول الشمس، وليس العكس.

وكما حدث، فإن الإجابة عن هذا السؤال كانت بالإيجاب، فقط بسبب تلك الطريقة القليلة الكفاءة التى جمعت بها المعلومات فى النظام البطليموسى.

واليوم، نحن نكرم (كوبرنيكوس) ليس لأنه قدم لنا النموذج الحديث للمنظومة الشمسية أو لأن منظومته كانت أكثر بساطة من منظومة بطليموس، ولكن لأنه كان الشخص الوحيد فى العصر الحديث، الذى واثقه الشجاعة أن يفكر فيما لم يخطر على بال أحد من من قبل، والشجاعة والمثابرة فى الدفع بأفكاره وآرائه، إلى ما بعد ملكوت التأمل الفلسفى. إن (كوبرنيكوس) هو الشخص الذى أوضح أن ملابس

(١) كنيسة مركزية ضخمة. (المترجم)

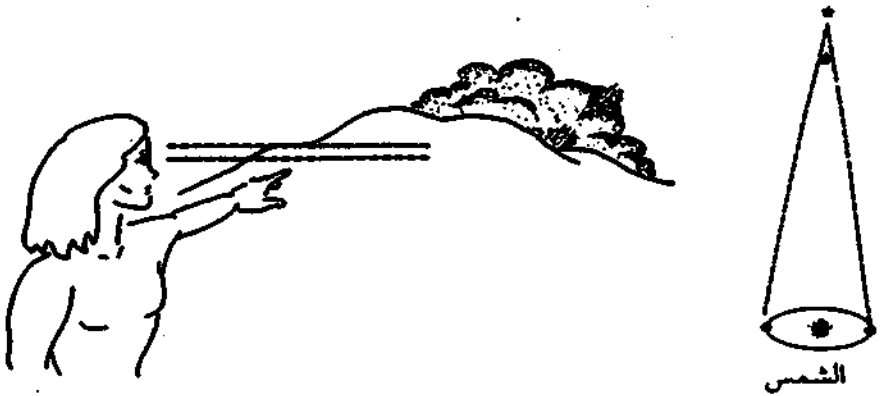
(٢) أطول نهر فى بولندا طوله ١٠٤٧ كيلو متراً. (المترجم)

الإمبراطور قد تكون غير موجودة، ومن ثم، أصبح كل شخص يأتي بعده، ينظر إلى "مركزية الأرض" كمجرد افتراض، يمكن مناقشته مثل أى افتراض آخر.

وبعد أن تمت الموافقة على هذا الرأي، كان لا بد من نبذ الفكرة التي سادت في العصور الوسطى عن الكون المحدود والمطلق. ولتفسير حركات الكواكب، كان من الضروري، أن توضع الشمس في المركز، وينظر إلى الأرض على أنها تتخذ مداراً حولها.

ولتوفيق هذه النظرية مع غياب "التزيح"، كان من الضروري افتراض أن النجوم والكواكب كانت أكثر بعداً في الكون، عما تخيل أى شخص من قبل.

لاحظ كيف تسير هذه المجادلة. لقد قدمنا التزيح من قبل، بالمثل الذي يتضمن استقامة شئ بعيد مع إصبع يدك، أولاً بفتح إحدى عينيك، ثم بالعين الأخرى. حاول أن تفعل نفس الشئ، مع شئين بعيدين، مثلاً تل مرتفع وسحابة تنساب في السماء. سوف ترى في التو، أنه على الرغم من أن العينين المتناويتين ستجعلان التل والسحابة يتحركان بالنسبة للأشياء القريبة الأخرى، فإنهما لن يقفزا بحركة دائرية في كل اتجاه، بالنسبة لبعضهما، وهذا موضح إلى اليسار في (الشكل ٤-١) والسبب في اختفاء التزيح عن الأنظار هو أن الاختلاف في الزاوية بين خطى الرؤية، ضئيل للغاية بحيث لا تتمكن العين من مشاهدته.



الشكل 1.4

وبالنسبة للعين، فإن خطي الرؤية متوازيان تماماً. ولكن لن يكون هناك أي فرق إذا اخترت أي خط منهما، حيث ستكون النتيجة واحدة، وهي أن الأشياء لا تتحرك بالنسبة لبعضها. وبنفس الطريقة، إذا كانت النجوم والكواكب بعيدة جداً شاسعاً عن الأرض (انظر إلى الجانب الأيمن من الشكل ٤-١)، فلا يمكن رؤية التزيح، دون منظومات رصد وكشف متقدمة. ومن ثم، فإن قبولنا لكون كوبرنيكوس، يتطلب أن تكون النجوم بعيدة للغاية عن الأرض. وللتوصل إلى نموذج أفضل للمنظومة الشمسية عما تصوره بطليموس، فإن علينا أن نتخلى عن الفكرة المريحة التي سادت في العصور الوسطى عن محدودية الكون، ونواجه الحقيقة بأننا نعيش في كون، كل دلالته وأهدافه، تدل على أنه غير محدود، كما اقترح (أرخيتاس) ورامى رمحه.

ولم يكن (أرخيتاس) هو الشخص الوحيد - عبر التاريخ - الذي فكر ملياً في احتمالية أن يكون الكون غير محدود. ففي القرن الرابع عشر، كان له نظير هو الكاردينال^(١) (نيكولاس أوف كوسا)، الذي ناقش في كتابه "عن الجهالة المكتسبة بالتعلم"، أن الإنسان - أينما يقف - يعتقد أنه في المركز، ومن ثم، فإن "الكون مركزه في كل مكان، ومحيط دائرته ليس في أي مكان" وهذا التصور القَبْلِي المذهب للشكل الحديث للكون، تجاهله معظم العلماء والباحثين.

ولهذا السبب، عندما تحدثت أفاق الكون، بنظرية (كوبرنيكوس)، كان من الصعب على أي شخص أن يكون مستعداً لمواجهة هذه الصدمة.

ومع هذا عندما استقرت الأمور وخفت حدة الاعتراضات، انبثق تصور يشبه إلى حد كبير فكرتنا عن الكون الحديث. ولم يعد الجنس البشري يرى في نفسه أنه يحتل مركز الكون، ولكن - بدلاً من ذلك - أصبح يعتقد أن موطنه الكبير، كوكب الأرض، عبارة عن كرة صخرية تتخذ مداراً حول الشمس، بصحبة الخمسة كواكب التي كانت معروفة في ذلك الوقت.

(١) عضو كنسي بارز في المذهب الكاثوليكي المسيحي بعينه البابا. (المترجم)

وخارج مدار كوكب زحل، على بعد مسافات مروعة لا يمكن تخيلها، تنساب النجوم فى الفراغ. ولم تعد السماء سقفاً يطوق كل المخلوقات، كما أنها لم تعد تعكس الإشعاع اللطيف والمريح للجنة.

بيد أننا اكتسبنا شيئاً ليموضنا عن هذه الخسارة. وعلى الرغم من أن السماء لم تعد سقفاً، فقد كانت - على الأقل - مدخلاً ومنطقة حدودية. وإذا وجب علينا الاعتراف بأننا لسنا فى مركز الكون، فلدينا القدرة على مواجهة الحقيقة الكاملة، بصدر زحب يريحنا وبدون أن نفغل أو يغمض لنا جفن، ونستمر فى بحثنا، لنستخلص من كوننا المتمد، كل أسرارهِ الكامنة فى أعماقه. وربما بعد أن ننتهى من أداء هذه المهمة، سوف نقارن بين الإنجازات التى حققناها، والتكاليف التى تكبدناها لتحقيق هذه الإنجازات.

بعض الملاحظات الشخصية

إن إحلال التصور الوجدانى والروحى للكون، الذى أشبع الرغبات والتوقعات والاحتياجات، بالكون الذى تميز بالآلية ومنهجية العلم، لم يحظ بقبول عالى عبر العصور، وسطور (والتر وايتمان) التى تصدرت هذا الفصل، تصريحاً واضحاً للرأى المعارض، الذى - على الأرجح - يمكن أن يصدر عن شخص ما. وتعد حركة الثورة الثقافية المضادة فى الستينيات من القرن العشرين، أحدث اندلاع مفاجئة لهذا الاتجاه.

إن كل من يقوم بالتدريس فى إحدى الجامعات، لن يستطيع أن يبقى غير مدرك للحقيقة، بأن عدداً كبيراً من الناس - حتى الحاصلين على تعليم عالٍ - يوافقون تماماً على الرأى الذى عبر عنه (وايتمان).

وثمة اعتقاد سائد - على الرغم من أنه نادراً ما يكون قادراً على التعبير عن نفسه بسهولة بشكل واضح ومؤثر - إنه بدراسة أمر ما بطريقة تحليلية، فإننا ندمر

ما يكمن فيه من جمال مثير للإحساس العاطفى والفكرى. وعبر عن هذا (وردز وورث) بقوله "إننا نقتل لكى نتفحص ونحلل بطريقة ناقدة ودقيقة" وقبل المضى فى تفحص تفاصيل كون الثمانينيات من القرن العشرين، أود أن أقرر هنا بأن هذا الكون جدير بذلك النوع من الإعجاب المتسم بالحساسية المرهفة للجمال، الذى وهبها (وايتمان) ليلته المرصعة بالنجوم.

ومن ناحية أخرى، فإن الفكرة التى أثارها (وايتمان)، غير قابلة للمناقشة: أن التجربة الحسية المباشرة، تكون دائماً هادفة أكثر من التحليل النوعى. وهذا هو أحد الأسباب، التى تضع فيها برامج الفضاء تأكيداً كبيراً على إخراج صور للأشياء التى يتم اكتشافها، حتى لو كانت هذه الصور بألوان غير حقيقية، ولكن هذا لا يماثل القول بأننا "يجب أن نرى الأشياء مباشرة بأعيننا المجردة، حتى يمكننا إدراك قيمتها".

إننا نستطيع الاستمتاع بصور جبال "الهيماالايا"^(١)، ونستخلص منها متعة جمالية، حتى لو كنا لم نسافر إلى "كاتماندو"^(٢) قط. أرجو أن تنظر إليها من هذه الوجهة: اخرج إلى الخلاء أثناء الليل وتطلع بصمت تام إلى النجوم، وسوف ترى على الأكثر نحو ألفين وخمسمائة نجم، وكوكب واحد أو اثنين. إننى أتفق معك، أن هذا المشهد رائع للغاية، بيد أنه مجرد قطرة فى دلو، مقارنة بما هو موجود فى الكون من أجرام فضائية، إذ إن مجرتنا (الطريق اللبنى) بمفردها تحتوى على أكثر من عشرة بلايين نجم^(٣)، وهى مجرد واحدة من بلايين المجرات التى يزخر بها الكون. وإذا قيدنا معرفتنا بالكون، بما يمكننا إدراكه بشكل مباشر عن طريق الحواس، فإننا بهذا نتعمد

(١) سلسلة من الجبال تمتد لنحو ٢٤٠٠٠ كيلو متر، وتمتد فى الصين والهند ونيبال وباكستان وبيوتان وأفغانستان. (المترجم)

(٢) عاصمة دولة نيبال فى آسيا. (المترجم)

(٣) البلايين ألف مليون. (المترجم)

التقليل من قيمة أبحاثنا، بقبول تجربة أقل ثراء مما يجب أن تكون عليه. ولا ريب أنه شيء رائع، أن نرى نجماً في السماء التي نقوم بدراستها، ولكن ثمة جمال أخاذ في صورة المجرة المأخوذة بالأشعة تحت الحمراء^(١)، صورة لحلقات كوكب زحل التي التقطتها المركبة الفضائية (فوياجير)، أو صورة مُنشأة بالحاسوب، لعنقود هائل من المجرات، يبعد عنا بمسافات مروعة، وهو ينتشر بجلال عبر السماء. وبالتأكيد ثمة دور لكل من الشاعر والتكنولوجي في علم الفلك المعاصر. بيد أن هناك أمراً بالغ الأهمية، لم يستطع نقاد العلم إدراكه، وهو الذي يتعلق بما حدث في الكون الحديث.

حقاً إننا استبدلنا بكون له بعد آدمي - أي ميال للضعف والخطأ الإنساني - آخر مترامي الأطراف بشكل لا يمكن تخيله وكذلك أكثر تعقيداً. وعلى الرغم من ذلك، أليس من الأهمية أن يشبع كوننا قدرتنا على الفهم والتعلم والتفكير بالإضافة إلى احتياجاتنا ورغباتنا وتوقعاتنا ووجداننا وخلقياتنا؟

أليس من الأهمية، أن كوننا، بالرغم من هذا الاتساع الهائل والتعقيد المروع، مازال العقل البشري قادراً على سبر غوره واكتشاف ذلك النظام الجوهري الدقيق والمنطقي الذي يحكمه، والذي يدعّم تعقيده؟

نعم، لقد استبدلنا بكون يتخيل فيه البشر، أن بمقدورهم السيطرة على الآلهة، من خلال مجموعة من الطقوس والشعائر الدينية، آخر تكون فيه سيطرتنا على الطبيعة، تتأني من خلال إدراك قوانينها الأساسية، ولكن - في الحقيقة - هل يمكنك أن تستبدل جراح مشعوذاً إذا كنت مصاباً بالتهاب الزائدة الدودية؟

لقد قمنا بالفعل بمقايضة كون يتدخل فيه الخالق جل شأنه في الأمور البشرية، بكون آخر يقتصر فيه دور الإله، على ابتداء قوانين الطبيعة ثم يدع - بعد ذلك - كل الأشياء تنتشر وتتفتح ذاتياً، دون الحاجة إلى أي تدخل آخر منه.

(١) إشعاع كهرومغناطيسي حراري غير مرئي. (المترجم)

ولكن أليس من الأفضل أن يكون لك إله، يعرف كيف يدير أمور الكون بالطريقة الصحيحة وبدقة تامة؟

كل ما يمكنني قوله، إننى أفضل كوناً تسيطر عليه الحقائق الواضحة والثابتة للقوانين الفيزيائية، ويتميز بجماله الأخاذ فى كل أجزائه، وقد ابتدعه العقل البشرى. وإننى لن أستبدل هذا الكون المعاصر، بأى كون آخر ذكر أنفأ.

الفصل الثانى

اكتشاف المجرات

قال رفيقى الطبيب: "الآن يجب أن نصلى، انظروا لقد اختفت النجوم وهذا شيء عجيب."

وقال قائد الأسطول الشجاع: "ماذا يمكننى أن أقول؟
"قل واصلوا الإبحار! واصلوا الإبحار!"

جواكين مولر

"كولومبوس"

ما إن نبذ العلماء فكرة أن الشمس توجد فى مركز الكون، وأن الكون أصبح أكثر اتساعاً ورحابة، بدأ الناس فى التساؤل عن كيفية جمع أجزاء الكون معاً. لقد كان فلكيو القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مثل رحالة اكتشافوا قارة جديدة، تحتاج إلى من يسبر غورها ويرسم خرائط دقيقة لتضاريسها.

ما دامت القدرة على رصد الأجرام الفضائية فى السماء، كان يحد منها قوة التليسكوب ودرجة استجابته، فإن الراصد الذى يستخدم تليسكوباً أكبر كان بمقدوره التوصل إلى اكتشاف عظيم.

وبتعاقب السنين، أثار تفحص الكون بدقة، سؤالين جوهريين يمعن العلماء التفكير فيهما: كم يبلغ حجم مجرة "الطريق اللبنى"؟ هل هناك جزر كونية أخرى - أى مجرات - فى الكون؟

ومع كل اكتشاف جديد، يزداد حجم الكون المدرك عن طريق الحواس، ومرة تلو الأخرى، وجد الفلكيون أنفسهم يرصدون كوناً مروعاً أضخم من أى شىء تخيلوه. وكان التطور التاريخى لحامل الرمح العتيق، مرتبطاً بشكل واضح، بمدى مقدرة الإنسان المعاصر، على الإجابة والتعامل مع السؤالين المذكورين آنفاً.

وإذا وقفت بالخلاء فى ليلة صيف صافية، وتطلعت إلى السماء، لشاهدت - بلا ريب - مجرة "الطريق اللبنى". حشد من بلايين النجوم (معظمها لا يرى بالعين المجردة)، تندمج معاً لتكون درياً مزيداً، عبر الظلمة. إنه أكثر السمات البارزة والمثيرة، لليل السماء. كما أنه يمدنا بأول مفتاح للفز بنية الكون، خارج المنظومة الشمسية. وعموماً فإنه يمكن اعتبار "توماس رايت Thomas Wright" (١٧١١ - ١٧٨٦)، الفيلسوف الطبيعى^(١) الإنجليزى، أول شخص تأمل بفاعلية فى بنية (إن لم يكن حجم) المجرة، التى نطلق عليها فى الوقت الحاضر "الطريق اللبنى". وتقلب على مصنفه الذى كتب حوالى عام ١٧٥٠، النزعة الصوفية الغامضة وطابع القرون الوسطى العتيق. ونظر إلى الكون باعتباره من خلق الله جل شأنه، وأن دراسته وتفحصه بدقة، مقترنة بعلم اللاهوت^(٢).

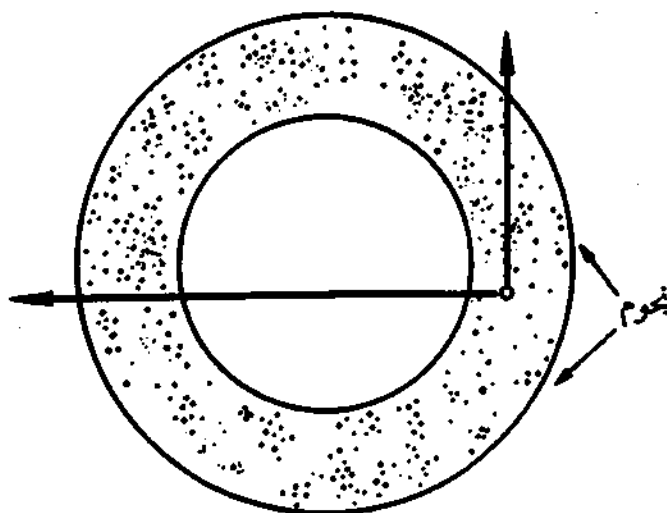
وفكر بمنطق أن الله خلق الكون فى أكمل صورة، ومن ثم، فلا بد أنه شيد فى شكل كرات. ودأب الفلكيون الذين يتبعون نظرية (إسحق نيوتن)^(٣)، بينما كانوا يقومون بحساب المدارات البيضاوية للكواكب، على أبعاد المجال الكروى إلى خارج المنظومة الشمسية، بيد أن (رايت) قام بمحاولة جريئة لإعادته إلى داخل إطار الكون الأكبر.

(١) الفلسفة الطبيعية (أو فلسفة العالم الفيزيائى)، مصطلح يُطلق على دراسة الطبيعة ومادية الكون. (المترجم)

(٢) دراسة طبيعة الله والحقيقة الدينية. (المترجم)

(٣) عالم إنجليزى شهير (١٦٤٢ - ١٧٢٧) فى الفيزياء والرياضيات. (المترجم)

وثمة مخطط أولي للكون كما تصوره (رايت) في (الشكل ٢-١)، حيث توجد النجوم داخل دائرتين متحدتي المركز. والجنس البشري، الذي يستوطن كوكب الأرض، يتحدد موقعه في مكان ما بين الشكلين الكرويين، كما هو موضح في الرسم:



الشكل 2.1

وعندما ننظر في اتجاه المماس^(١) للدائرتين، فإن خط رؤيتنا سوف يقطع نجوماً عديدة. ومع هذا، إذا تطلعنا اتجاه الخارج بعيداً عن المركز، أو إلى الداخل نحو المركز على طول نصف القطر، فإننا سوف نرى عدداً قليلاً للغاية من النجوم. وهذا التنسيق - طبقاً لتصوير (رايت) - يبرر لوجود مجرة الطريق اللبني، ويحدد اتجاه المماس للدائرتين. وتتضمن هذه المجادلة إفادة عن حجم الكون، حيث يجب أن يكون نصف قطر الدائرة الداخلية، كبيراً بقدر كاف، حتى إننا عندما ننظر إلى الداخل، عبر مركز الدائرة الكونية، فإننا لا نرى تركيزاً متكاملاً للنجوم، إلى الجانب البعيد.

(١) خط أو منحنى يلمس ولكن لا يتقاطع مع آخر. (المترجم)

كذلك يجب أن يكون نصف القطر كبيراً بقدر كاف، حتى إننا إذا نظرنا تماسياً، فلن نرى التقوس في المجرة، بل سوف تبدو لنا - إلى حد ما - كخط مستقيم.

وأعتقد أن (رايت) لم يتابع البحث في هذه النقطة، حتى يتمكن في نهاية الأمر، من تقدير حجم الكون برمته، إذ إنه تصوّر العلم كوسيلة لتلقين الدروس الأخلاقية، أكثر من كونه هدفاً في حد ذاته. وفي عام ١٩٦٦، تم الكشف عن بعض من مخطوطاته التي لم تنشر، وكان عنوان إحداها "أفكار ثنائية أو فردية عن نظرية الكون"، وتضمنت نموذجاً مبنياً أكثر على اللاهوت، وفيه تكون الشمس في مركز دائرة مفعمة بالنجوم. واستخدم (رايت) قياس التشبيه^(١) لبعض الظواهر الطبيعية الأرضية - مثل زلزال لشبونة^(٢) - لتفسير مجرة "الطريق اللبني"، كحمم^(٣) سماوية تتدفق في مجال الدائرة الكونية.

ويبدو أن هدفه كان منظومة، فيها نسق من الأكوان المادية والأخلاقية المتناظرة تماماً فيما بينها.

ويصعب القول، عما إذا كان (رايت) يريد الرجوع إلى النماذج السالفة للكون أو أنه مبشر بعلم حديث. وقد حاول أيضاً علماء الاجتماع الذين يتبعون الداروينية^(٤)، في أواخر القرن التاسع عشر، أن يرسموا تناظراً وظيفياً، بين النظام البيولوجي للطبيعة والنظام الاجتماعي للجنس البشري. وهذا ما يفعله أيضاً الماركسيون^(٥).

(١) شكل أو حالة من الاستدلال أو الاستنتاج المنطقي. (المترجم)

(٢) زلزال رهيب ضرب مدينة لشبونة عام ١٧٥٥، ويعد الأشد فتكاً وتدميراً في التاريخ. (المترجم)

(٣) مقنونات البراكين. (المترجم)

(٤) نظرية في النشوء والارتقاء طورها (داروين). (المترجم)

(٥) أتباع (كارل ماركس) (١٨١٨ - ١٨٨٣) وهو فيلسوف ألماني واقتصادي وعالم اجتماع. (المترجم)

ولم يغب عنا ذلك الاتجاه باستخلاص تناظرات بين العلم والحقائق الاجتماعية والأخلاقية، خاصة في العصور الأكثر تنويراً. وأذكر - على سبيل المثال - أنني قرأت أطروحة، جادلت قوانين ميكانيكا الكم^(١)، وبرهنت على أن جدول أعمال الحركة السياسية النسائية الجذرية، والتي ذاع صيتها في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، كانت البنية السياسية الوحيدة، التي تتناغم مع العالم الطبيعي.

ولكن تماماً كما أدرك العلماء الذين أتوا بعد (رايت)، أن شكل الكون ليس له أى علاقة، بالتعاليم الأخلاقية للكنيسة الأنجليكانية^(٢)، وكما أننا أدركنا بدورنا، بما لا يدع مجالاً للشك، أن التزامنا الأخلاقي يدفعنا إلى الاهتمام بمن هم أقل حظاً منا، والذين ليست لهم أى صلة عما إذا كانت الطبيعة تعمل طبقاً لمبدأ البقاء للأصلح^(٣) أم لا. وأمل أن يتمكن خلفاؤنا من العلماء - في نهاية الأمر - من تبين أن قوانين الطبيعة موضوعية، وأنها لا تشتمل على أية تعاليم عن كيف علينا أن ننظم مجتمعنا أو نعيش حياتنا. ولتحديد مثل هذه الأمور، فإننا أحرار فيما نفعله.

ولم يتبع (رايت) كثير من رجال العلم في بحثه عن نظام أخلاقي في خضم الكون. وجاءت أول محاولة حديثة، لسبر غور مجرة الطريق اللبنى، بواسطة (إيام هيرشل)، الذي ولد في ألمانيا في عام ١٧٢٨، وكان قد استهل حياته العملية كعازف مزمار في أوركسترا عسكرية، ثم هاجر إلى إنجلترا، حيث أصبح موسيقياً مرموقاً وصانع آلات موسيقية.

كما أنه قام - بجانب عمله الأساسي - بتأليف بعض المقطوعات الموسيقية. ولم يكن هذا هو السبب الرئيسي لاكتسابه الشهرة فيما بعد. وعندما عرض مسار^(٤) (أدler) في شيكاغو، مجموعة من الأجهزة الفلكية القديمة، كانت هناك لوحة تصويرية

(١) نظرية فيزيائية أساسية خاصة على المستوى الذري ودون الذري. (المترجم)

(٢) الكنيسة الإنجليزكية والكنايس الأخرى المتوافقة معها. (المترجم)

(٣) أساليب أخلاقية لإجراء النجاح الشخصى والمؤسسى. (المترجم)

(٤) قاعة فيها جهاز يظهر حركة سير الشمس وكواكب وأقمار المجموعة الشمسية. (المترجم)

تمثل (هيرشل) يحدق فى السماء، بينما كان هناك تسجيل لإحدى مقطوعاته الموسيقية التى تعزف على البيان القيثارى^(١) ترافق الأفلام التسجيلية الدعائية.

وقرر (هيرشل) فى نهاية الأمر، أن يجعل من هوايته الفلكية اهتمامه الأساسى، وعلى الرغم من انخفاض دخله نتيجة لهذا القرار، فإنه أصبح فلكياً محترفاً.

وقد انصببت أبحاثه على رسم خريطة للسماء، عن طريق إحصاء عدد النجوم التى كان بمقدوره رؤيتها، عندما كان يوجه تليسكوبه فى اتجاه معين. مفترضاً أن النجوم موزعة - بشكل أو بآخر - على نسق واحد فى الفضاء، وعلى ذلك، أنه عندما رصد مساحة شاسعة عبر الكون (أو بالأحرى عبر المجرة)، كان يرى عدداً هائلاً من النجوم، وإذا نظر فى اتجاه نحو الحافة، فإنه لا يشاهد الكثير منها. والخلاصة التى توصل إليها من مخطط مسح السماء: أن الكون مسطح، ولكنه غير منتظم الشكل، شئ ما يشبه أميبا^(٢) مهروسة. ويبدو مخطط (هيرشل) لمجرة الطريق اللبنى، فى (الشكل ٢-٢).



الشكل 2.2

وبينما كان المسح النجمى للسماء يجرى على قدم وساق، تم التوصل إلى سلسلة أخرى من الاكتشافات الفلكية تتعلق بأجرام سماوية ضبابية يكتنفها الغموض، أطلق عليها "السدم" (أى السحب الكونية). وعندما تكون ظروف الرصد جيدة، يمكن رؤية هذه السدم، بالعين المجردة.

(١) آلة وترية قديمة تشبه البيانو. (المترجم)

(٢) كائن دقيق وحيد الخلية. (المترجم)

وقد كانت معروفة للفلكيين العرب في القرن الثامن الميلادي، ويمكنك أن ترى بنفسك أحد هذه السدم، إذا نظرت إلى كوكبة^(١) (أندروميدا) "المرأة المسلسلة"^(٢)، التي تكون فوق مستوى الرأس، في السماء خلال فصلي الخريف والشتاء. وما سوف تراه، رقعة ضوء ضبابية بيضاء، أكبر كثيراً من أن تكون نجماً، بيد أنها ليست براقعة للغاية أو تمثل مشهداً مثيراً، وعندما تمت دراسة بعض هذه السدم بالتلسكوبات، اتضح أنها تشتمل على نجوم مرئية على خلفية متألقة ولكنها غائمة، وكان الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانت)^(٣)، وهو أول من اقترح - في عام ١٧٧٥ - أن هذه السدم، ربما تكون جزءاً كونية أخرى، كالمجرات، مثل مجرتنا (الطريق اللبني)، وبسبب الافتقار إلى وسائل الرصد الحديثة، التي توفر فحصاً أكثر دقة لتراكيبها، بقي السؤال عن الهوية الذاتية للسدم أكثر فلسفياً منه علمياً.

وفي عام ١٨٤٥، كان (ويليام بارسونز) إيرل^(٤) (روس)، يمتلك تليسكوباً شيد في إنجلترا، وكانت أهم أجزائه التشغيلية، مرآة قطرها - الذي لم يسبق له مثيل - يبلغ اثنتين وسبعين بوصة. وأمكن له باستخدام هذا التليسكوب القوي، أن يسبر غور التركيب الخلزوني للعديد من السدم في السماء. وعلى الرغم من أنه كان يجري أرصاده في فترة سبقت توفر إمكانية تصوير الأجرام السماوية للفلكيين، فإن رسوماته التخيلية للسدم، تذكر الإنسان بالصور الحديثة التي التقطت للمجرات حيث تظهر بوضوح بالغ، تلك الأقراص الدائرية المسطحة وأذرعها اللولبية الممتدة. ولأن بعض السدم تبدو كأن شكلها المسطح ينسب إلى مجرة (الطريق اللبني)، كان عمل (روس) مجدداً للاهتمام بالاقتراح القديم بأن الكون جزيرة منعزلة.

(١) حشد من النجوم تكون شكلاً أو صورة. (المترجم)

(٢) أقرب مجرة كبيرة إلى مجرتنا (على بعد مائتي سنة ضوئية)، تحتوي على نحو مائتين وخمسين بليون نجم (المترجم).

(٣) (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فيلسوف ألماني شهير. (المترجم)

(٤) لقب إنجليزي رفيع مثل مركيز. (المترجم)

واستمرت المجادلة حول طبيعة السدم، خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وحتى القرن العشرين، وقد أظهرت بعض السدم تركيباً حلزونياً، بينما بدا البعض الآخر، كسحب دوّارة من الغاز، تحتضن عدداً قليلاً من النجوم المبعثرة في غير انتظام.

ولو كانت السدم هي بالفعل جزر كونية على أبعاد شاسعة، مثل مجرتنا، إذن فلماذا تبدو البعض منها على شكل سحب من الغاز واضحة للغاية؟ وإذا كانت السدم كلها داخل مجرة (الطريق اللبنى)، فلماذا يظهر البعض منها، في شكل حلزوني، يشبه إلى حد كبير تجمعات النجوم؟ واثارت مجادلة عنيفة بين علماء الفلك حول هذا الأمر، ما يربو عن ستين عاماً - جيلين من الأبحاث العلمية الدقيقة - وكما سوف نرى، لم يتم التوصل إلى حل حاسم لها حتى العشرينيات من القرن العشرين. وكانت الإجابة النهائية للسؤال عن طبيعة المجرات هو كل ما تقدم ذكره. وهناك سدم ترتبط بمجرة الطريق اللبنى، هي سحب من الغاز يتخللها عدد قليل من النجوم. وثمة سدم أخرى عبارة عن مجرات مثل مجرتنا. وليس هناك حل وحيد للغز الذي يكتنف طبيعتها، إذ اتضح أنه يوجد سدم من كلا النوعين.

وتلك فترة ذات شأن في التاريخ، وذلك لأسباب متعددة. وفي الصفحات التالية من هذا الكتاب، سوف نناقش سؤالاً مشابهاً، يمكن صياغته على النحو الآتي "ما المادة المظلمة؟". وحتى وقت قريب، فكر ملياً علماء الفيزياء الفلكية في هذا السؤال، وجنحوا إلى الاقتداء بأسلافهم، إذ حاولوا حل المشكلة بافتراض أن هناك نوعاً واحداً من المادة المظلمة.

واجتهدوا لإيجاد شيء ما، يمكن أن يؤدي كل الأفعال التي من المفترض أن تؤديها المادة المظلمة. وإننى أشعر بسعادة غامرة، عندما أقول بأنه عندما واجه هذا السعى عدة مشاكل، أبدى زملائي مرونة كافية، للشروع في النظر إلى إمكانية أن نأخذ في الحسبان "كل الاحتمالات الأتفة الذكر".

والمجادلة الطويلة التى ثارت حول الهوية الذاتية للسدم، تضرب مثلاً - من جديد - لدى سهولة وتلقائية، القيام بحجب الإدراك الحسى الواضح والبصيرة.

وقراءة الأبحاث التى تمخضت عنها تلك المجادلة عن طبيعة السدم، تبين بوضوح بالغ، مدى ضحالة وتواضع هذه التجربة العلمية. وكان ثمة جيلان من أفضل العقليات العلمية فى العالم، يتابعون بإلحاح فى وجه مصاعب شتى وأوقات عصيبة، تلك المشكلة العصبية، فقد وضعوا نظم القياس، وقاموا بمناقشات مستفيضة فيما بينهم، ولم يقترح شخص واحد منهم (على الأقل حسب معلوماتى) ما يبدو أنه الحل الواضح لهذه المشكلة صعبة المراس.

ومع هذا، فقد كان الأمر واضحاً - من قراءة أبحاثهم - أن هؤلاء الباحثين كانوا علماء أكفاء، نوى تفكير ثاقب من الطراز الأول، موهوبين أكثر منى ومن معظم أصدقائى. وأتساءل كيف كان بمقدورهم التغاضى عن أمر بالغ الوضوح، خلال هذه المدة الطويلة؟

وبناء على مستوى تفاؤك العام، يمكنك أن تنظر إلى هذا الحدث من زاويتين؛ يمكنك أن ترى علماء أكفاء يغفلون - لمدة طويلة - حلولاً واضحة، مما أدى إلى حدوث اليأس الذى حاق بالتقدم الفكرى، ومن ناحية أخرى، يمكنك أن تتبين، أنه على الرغم من الماطلة والتسويق، فإن التقدم العلمى - فى نهاية الأمر - قد توصل إلى إجابة صحيحة.

ولكن مهما يكن استنتاجك الذى اخترته، من هذه المجادلة عن طبيعة السديم لابد من الاعتراف من أنها كانت بالغة الأهمية. إذ إنها كانت تعنى فى المقام الأول، بالحجم النهائى وبنية الكون. كما أنها توضح عن طريق استخدام الأمثلة - أفضل من أى شىء آخر أعرفه - تلك الصلة الوثيقة التى توجد فى العلم، بين مدى كفاءة الأجهزة المتوفرة، والتقدم الذى يمكن تحقيقه، فى الإجابة عن الأسئلة المهمة.

وكما سوف نرى، لم تكن الإبداعية الخلاقة، هى التى توصلت إلى الحل الصحيح لمشكلة السديم، والتى كانت مطروحة للنقاش والتساؤل، ولكن توفر تليسكوب المانة بوصه، الذى شيد فوق جبل (ويلسون) فى كاليفورنيا.

ولا شك أن العلاقة بين الأجهزة والتقدم العلمى انتقادية، وذلك لأنه لإثبات أن سديماً معيناً، يوجد فى مجرة الطريق اللبنى أو لا يوجد، يجب على الباحث أولاً أن يحدد مدى بُعد هذا السديم عنا، وثانياً إيجاد حجم مجرة الطريق اللبنى. وهكذا، فإن التعرف على طبيعة السدم تتطلب بالضرورة قياس حجم المجرة وقياس المسافات إلى النجوم.

وقياس المسافات وتحديد الأبعاد فى علم الفلك، أحد الموضوعات التى يفضل الباحثون الفلكيون عدم مناقشتها على الملأ مع غير المتخصصين. وثمة كثير من الأسرار لا يتم الإفصاح عنها، بل تظل فى طى الكتمان.

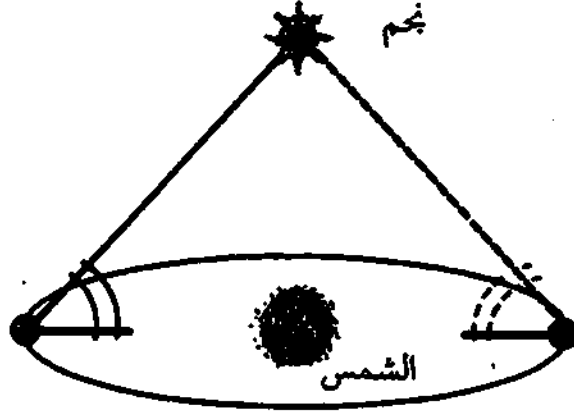
وقياس المسافات الشاسعة بين النجوم، ليست - بالطبع - مثل قياس طول منضدة ما، الذى يتم بوضع مسطرة فوقها، وتحديد نهايتها بعلامة، ثم تحريك المسطرة من هذه العلامة حتى نهاية المنضدة. أما فى علم الفلك فإن "المساطر" التى يمكن استخدامها لقياس أقرب النجوم إلينا، لا يمكن تشغيلها لقياس النجوم الأكثر بعداً عنا، ومن ثم يجب ابتكار تدريج^(١) للمسافات، بحيث تستخدم مسطرة أولى لتحديد المدى الأقصى لهذه النجوم، وتصمم مسطرة ثانية تتلاءم مع الأولى فى المناطق التى تتداخل معاً، ثم تستعمل المسطرة الجديدة إلى أبعد مدى لها، ويعدّها تستخدم مسطرة أخرى لقياس مسافات أكثر بعداً، وهلم جرا.

ويبدو أن هذه الطريقة يمكن استخدامها، ولكنها - دون شك - تعطى لقياس المسافات الهائلة فى الفضاء، معنى جديداً يمكن الثقة فى نتائجها.

وفى أواخر القرن التاسع عشر، كانت هناك مسطرتان مستخدمتان فى قياس المسافات إلى النجوم. أبسطهما عبارة عن تقنية "التثليث"^(٢) الموضحة فى (الشكل ٢-٣). (صفحة ٤٥).

(١) نظام من العلامات المرتبة بفواصل ثابتة تستخدم مقياساً. (المترجم)

(٢) حسب هذه التقنية تقسم منطقة إلى عناصر مثثة تعتمد على خط معلوم الطول حتى يتمكن من قياس بقية الأضلاع باستخدام علم المثلثات. (المترجم)



الشكل 2.3

ولو أن الزاوية تجاه النجم تقاس عندما تكون الأرض في الموقع أ، ثم يعاد قياسها بعد ستة أشهر من جديد، فإن معرفة بسيطة بعلم الهندسة وقطر مدار الأرض، يمكننا من حساب المسافة إلى النجم، وهذا مفهوم بسيط، وتعتمد هذه الطريقة، على قدرتنا على قياس الاختلافات الصغيرة في الزوايا. وإذا كانت المسافة إلى النجم كبيرة جداً، مقارنة بقطر مدار كوكب الأرض، فإن الزوايا التي تقاس بين الموقعين تكون متشابهة للغاية، ومن ثم نفقد القدرة على التمايز بينهما.

ويمكن استخدام "التثليث" لتحديد الأبعاد إلى ما يقرب من نحو مائة وخمسين سنة ضوئية، وهذا جزء ضئيل للغاية من قطر مجرة "الطريق اللبني". وفي القرن التاسع عشر، وباستخدام تليسكوبات أقل قدرة من تلك المتوفرة في الوقت الحاضر، كان من الصعوبة استخدام "مسطرة" التثليث حتى لنحو مائة وخمسين سنة ضوئية، ومن ثم، كان من المؤكد أنه لا يمكن استخدامها في قياس المسافات الشاسعة إلى حافة مجرة الطريق اللبني.

وهكذا، يمكن استخدام التثليث لقياس مسافات قريبة من كوكب الأرض. أما المسطرة التالية، التي لا أريد الخوض في تفاصيلها، تتضمن استخداماً أكثر تعقيداً للهندسة، بالإضافة إلى قياسات للحركة الظاهرية للنجوم. وبهذه التقنيات أمكن للفلكيين تطوير مسطرة لقياس مسافات تصل إلى عدة مئات من السنوات الضوئية.

وهذه المسطرة أيضاً، كانت متاحة في أواخر القرن التاسع عشر، ولكنها لم تسهم إلا قليلاً في تحديد حجم مجرة الطريق اللبنى، لأنها مقصورة على قياس المسافات الكونية البعيدة.

بيد أن هذا الموقف تغير في عام ١٩٠٨، عندما توصلت (هنرييتا سوان ليفت) - التي تعمل في مرصد "هارفارد" - إلى اكتشاف مهم، عن ذلك النوع من النجوم الذى يطلق عليه الفلكيون "المتغيرات القيفاوية". وهذه النجوم يحدث لها نموذجاً منتظماً من السطوع والخفوت ثم السطوع. وعندما تم رصدتها عبر فترات من الزمن، تراوحت بين عدة أسابيع وعدة أشهر. وما لاحظته ليفت، أنه كلما اشتد سطوح النجم، زادت مدة النبض (سطوعاً وخفوتاً). وهذا يعنى أننا بمراقبة أحد هذه النجوم، يمكننا تحديد مدة النبضة واكتشاف مدى سطوع النجم (أو بمعنى آخر، كم كمية الطاقة التى تتدفق إلى الفضاء). وإذا قارنت هذا الرقم بكمية الضوء، التى تتلقاها بالفعل من النجم، لأمكنك أن تحدد مدى بُعد ذلك النجم عنا.

وهذه "المسطرة" الثالثة، مكنت الفلكيين أخيراً، من قياس المسافات الكونية لأكثر من مائة مليون سنة ضوئية. وكما سوف نرى، قادتنا - فى آخر الأمر - إلى حل مشكلة السدم.

وثمة معلومات عرضية مثيرة، عن حالة علم الفلك فى أوائل القرن العشرين، مفادها أنه على الرغم من معرفة أن كوكب الأرض ليس مركز الكون، فإنه كان من المعتقد أن الشمس تقع فى مركز مجرتنا أو قريبة منه.

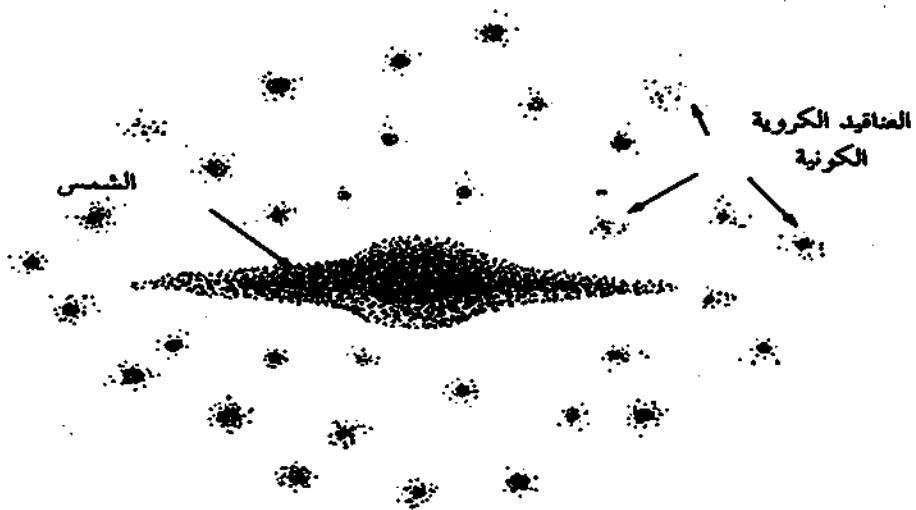
ولم يكن هذا افتراضاً خفياً مناظراً لتصور بطليموس عن موقع كوكب الأرض، بل كان مبنياً على ما بين أيدينا من بيانات فى ذلك الوقت. ولقد وجدت أن هذه الحقيقة البسيطة مثيرة للاهتمام، لأنها تظهر أننا كلما استطعنا أن نسيء تفسير البيانات، حتى تبدو منظومتنا الشمسية أكثر مركزية لكل شىء، خلافاً للواقع، نكون قد انتهزنا الفرصة التى لاحت لنا.

وأتساءل إلى أى مدى وصل هذا الحماس الشائع فى الوقت الحالى، لإيجاد حضارات كونية مثل حضارتنا، وهو أمر يدعمه نفس الاتجاه.

وكان الرجل الذي حدد - في النهاية - شيئاً مهماً مثل حجم مجرة الطريق اللبنى، والذي مازلنا نأخذ به حتى الوقت الحاضر، عالم فلك أمريكي نابغ يدعى "هارلو شابلي"^(١) ولد في ولاية "ميسوري"، وبدأ حياته العملية مراسلاً للحوادث والجرائم، لجريدة تصدر في مدينة صغيرة بولاية "كانساس". وكان عمله يتركز في تغطية أخبار الحفلات الصاخبة التي يقيمها الرجال السكارى الذين يعملون في مجال النفط، ورعاة البقر. وأصبح عمل (هارلو شابلي) مملاً، ومن ثم، قرر أن يلتحق بإحدى الكليات الجامعية. ولعل السبب الذي برر به استقراره في قسم الفلك - جامعة ميسوري، أقل ما يوصف به، أنه غير عادي:

"فتحت الكتالوج الذي يضم المقررات الدراسية.. وكان أول مقرر يدرّس هو (علم الآثار) (a-r-c-h-e-o-l-o-g-y)، ولم أستطع نطق الكلمة! ولقّبت الصفحة ورأيت مقرر (علم الفلك) (a-s-t-r-o-n-o-m-y) واستطعت أن أنطقها بسهولة. وهكذا التحقت بقسم الفلك".

وما اكتشفه (شابلي) يمكن أن يفهم من الرسم في (شكل ٢).



شكل 2.4

(١) (١٨٨٥ - ١٩٧٢) فلكي أمريكي، قام بقياس حجم مجرتنا (الطريق اللبنى). (المترجم)

إننا نعرف الآن أن مجرة "الطريق اللبنى" ذات بنية معقدة؛ إذ بالإضافة إلى القرص اللولبي المسطح المألوف، محاطاً بمنظومة من النجوم على شكل عناقيد كروية، يطلق عليها "العناقيد الكروية الكونية". ويحتوى كل عنقود على الملايين من النجوم، وهذه العناقيد (وبداخلها المتغيرات القيفاوية) يمكن رصدها بسهولة بالتلسكوبات التى كانت متوفرة لدى (شابلى) وزملائه. وعندما تم إحصاء هذه العناقيد، وُجد أنه يمكن مشاهدتها فى جانب واحد من السماء. وأقنع (شابلى) زملاءه بأسلوب منطقى، مؤكداً أن هذه العناقيد - فى الواقع - موزعة بانتظام حول مجرة الطريق اللبنى، وأوضح أن الوسيلة الوحيدة لفهم هذه الملاحظات تنأتى عن طريق: (١) جعل المجرة أكثر اتساعاً مما اعتقد سابقاً و (٢) إبعاد الشمس عن المركز، كما هو موضح فى الشكل.

وباعتناق أفكار (شابلى)، تقترب حثيثاً من النظرة الشاملة الحديثة عن مجرة (الطريق اللبنى). إنها قرص مسطح قطره نحو مائة ألف سنة ضوئية^(١). وتقع منظومتنا الشمسية على أحد الجوانب، فى الضواحي الخافتة الإضاءة، عند ثلث المسافة إلى حافة المجرة. ويمكن القول، إن (شابلى) قام بدور فى الفلك المجرى. يماثل نفس الدور الذى قام به (كوبرنيكس) فى المنظومة الشمسية - إذ إنه أزاح كوكب الأرض عن مركز أى شىء. وهكذا. تم إبعاد آخر أثر مرئى وواضح عن مركزية الأرض من المبادئ العلمية السائدة.

وفى نفس الوقت، تعاظم الكون المعروف إلى حجم أضخم مما تصوره بعض الناس - مثل (هيرشل) - الذى كان أول من حاول وضع خريطة لعالم النجوم.

اعتقد نقاد النتائج الذى توصل إليها (شابلى)، أن السدم اللولبية، كانت فى واقع الأمر، مجرات مثل مجرتنا. وعلتهم فى ذلك أنه إذا كانت مجرة (الطريق اللبنى) - فى

(١) كانت تقديرات (شابلى) الأساسية أكثر من هذا قليلاً. (المترجم)

حقيقة الأمر - بالحجم المروّع الذى قال به (شابلى)، فثمة أمل ضئيل أن السدم تكون خارج حدودها. وساند هذا الرأى، اكتشاف نجوم براقعة جديدة، أطلق عليها "نوفات"^(١)، فى بعض المجرات اللولبية. وكانت هذه النجوم متألقة للغاية، وبدت كما لو أنها لا تبعد عنا كثيراً. وفى الوقت الحاضر، نعرف أنها كانت "سوبرنوفات"^(٢) أى انفجارات مروّعة لنجوم عملاقة. كما أننا ندرك بوضوح ويتأكد، أنه خلال زمن قصير، يزود السوبرنوفات بالوقود عن طريق التفاعلات النووية، وكان يمكن أن يفوق ضياؤها مجرة بأكملها. وفى العشرينيات من القرن العشرين، عندما لم يكن قد اكتمل الفهم الصحيح للطاقة النووية، لم يلق هذا التفسير اهتماماً كبيراً. ويبدو أن الاتجاه السائد لدى العلماء، ضد النظرية التى مفادها أن الكون عبارة عن جزر، والاعتقاد بأن الكون يتكون من مجرة واحدة، وليس العديد منها.

وكان الموقف مرتبكاً ومشوشاً، وفى شهر أبريل من عام ١٩٢٠، عندما عقد (شابلى) و(هيربر كورتس) - أحد أشد المؤيدين لنظرية أن الكون يتشكل من جزر (المجرات)، مجادلة فى معهد (سميثونيان)، عن مسألة بنية الكون، برعاية الأكاديمية القومية للعلوم. ونظر الفلكيون إلى هذه المجادلة، كمثيل للمجادلات الشهيرة التى دارت بين هكسلى وويلبر نورس، حول مدى صلاحية نظرية التطور وفعاليتها. وقدم (شابلى) دليله الذى استند إليه لتقدير حجم مجرة (الطريق اللبنى)، وجادل (كورتس) فى صالح وجود مجرات أخرى مثل مجرتنا. ولم "يكسب" أحد تلك المجادلة، والسبب الرئيسى فى هذا أن العالمين ناقشا مسائل متباينة. وكان كل منهما محقاً فى مجاله. وكما جادل (شابلى)، فإن الطريق اللبنى له حجم مروّع، بيد أن المسافات إلى المجرات الأخرى شاسعة للغاية.

(١) مفردتها (نوقا) أو (مستعر). (المترجم)

(٢) مفردتها (سوبرنوفات) أى (مستعر أعظم). (المترجم)

وتأكدت طبيعة السدم أخيراً فى عام ١٩٢٢، عندما أصبح الفلكى الأمريكى (إدوين هابل)^(١)، أحد أول العلماء الذين قضوا وقتاً طويلاً فى الرصد بالتليسكوب الجديد ذى العدسة التى قطرها مائة بوصة، فوق جبل (ويلسون)، بالقرب من (لوس أنجلوس). وبواسطة هذا التليسكوب، تمكن (هابل) من رصد نجوم فردية، ومن بينها "المتغيرات القيفاوية" فى المجرات القريبة. وباستخدام العلاقة التبادلية، بين التذبذب والتألق، التى طورتها (ليفيت)^(٢) استطاع (هابل) أن يثبت صحة أن المسافات إلى السدم اللولبية، يمكن قياسها بملايين السنوات الضوئية، أى تزيد كثيراً عن تلك التى قدرها (شابللي) بالنسبة لحجم المجرة.

ومن جديد، اتسع الكون أكثر بفضل تحسن قدرتنا على سبر غوره، ولم يكن هناك جزر كونية أخرى فقط، ولكنها كانت أبعد كثيراً، مما كان يمكن لأى شخص أن يتخيله. والواقع أن السدم اللولبية هى منظومات نجمية مثل مجرتنا، تقع على مسافات مروعة منا. أما السدم الأخرى - تلك التى تشتمل على عدد قليل نسبياً من النجوم، ومادة كثيرة خفيفة ومجدولة، فهى عبارة عن سحب غازية فى داخل مجرتنا (الطريق اللبنى). ولكى نبين الفرق بينهما، فإننا نحتاج إلى تليسكوب قادر على تحديد أن مجموعة من السدم، أكثر بعداً عن الأخرى. وإذا أمكن تحقيق هذا الأمر، تم حل المشكلة.

كلمة عن العناقيد المجرية

قبل الاستطراء فى هذه المناقشة عن إنجاز (هابل)، يجب ملاحظة حقيقة واحدة عن هذه الجزر الكونية^(٣). ومنذ ذلك الوقت، أصبح جلياً أن المجرات لا تتوزع فى الكون

(١) عالم فلك أمريكى (١٨٨٩ - ١٩٥٣) أثبت وجود مجرات أخرى غير مجرتنا (الطريق اللبنى). (المترجم)

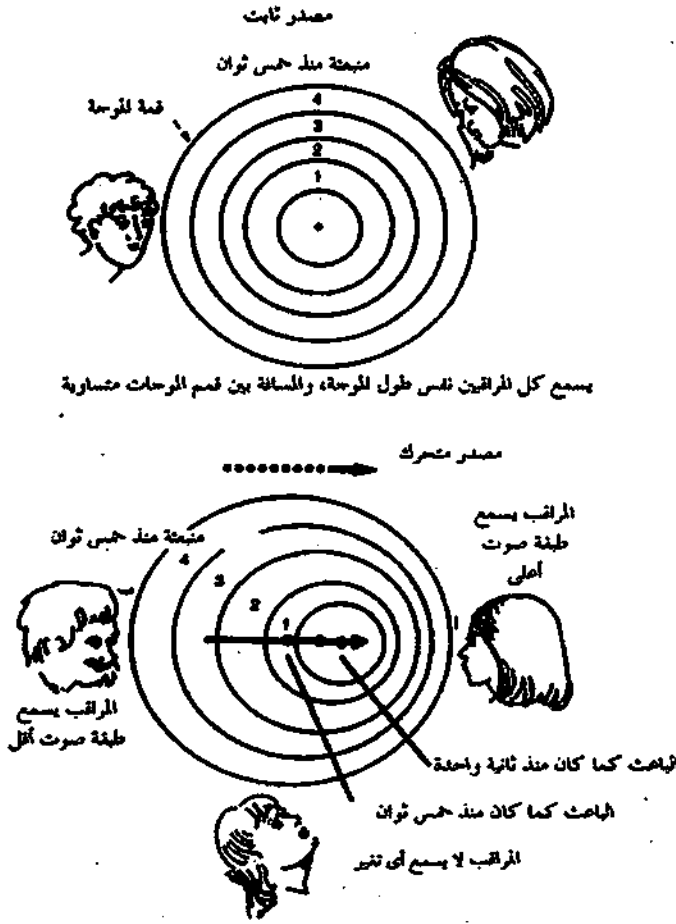
(٢) عالمة فلك أمريكية (١٨٦٨ - ١٩٢١). (المترجم)

(٣) "الجزر الكونية" نظرية صاغها (إدوين هابل) فى عام ١٩٢٤ مفادها أن السدم النائية عبارة عن مجرات مثل مجرتنا (الطريق اللبنى). (المترجم)

بعشوائية، ولكنها تجنح لأن تتكثف معاً في مجموعات تركيبية يطلق عليها "عناقيد مجرية"، وأن تلك العناقيد بدورها تتجمع في شكل "عناقيد مجرية فائقة". وعلى الرغم من أن (هابل) لم يجد طريقاً لمعرفة هذه الحقيقة، فقد تم التوصل إلى أن تفسير هذا التوزيع المتباين للمجرات، يمثل واحداً من أهم المشاكل، بل يقول البعض بأنه أهمها على الإطلاق، في علم الكون الحديث.

الكون المتمدد

ولا يقل أهمية عن إثبات (هابل) بوجود مجرات أخرى، ذلك الاكتشاف الذي توصل إليه كجزء من نفس الدراسة التي أجراها، وكان أكثر إثارة وإدهاشاً. إذ عندما تطلع (هابل) إلى المجرات القريبة منا، أدرك أنها تتحرك بعيداً عنه، وأنه كلما كانت المجرات أبعد، ازدادت سرعة تحركها. وكان هذا الاكتشاف مثيراً للغاية - ومفعماً بالتضمينات والتلميحات والاستدلالات، لعلم الكون الحديث - حتى إنه علينا أن نفكر ملياً في القاعدة التي استند إليها (هابل) كبرهان ليعلم اكتشافه. عندما تقف بجانب طريق سريع، وتسمع صوت دوى نفير سيارة أثناء انطلاقها، سوف تلاحظ أن صوت النفير يتغير، عندما تمر بك السيارة. إذ تكون طبقات موجاتها الصوتية أعلى عندما تقترب منك السيارة، وأكثر انخفاضاً عندما تبتعد عنك. هذا هو مجرد مثال لما يعرف بـ"دوبلر". ويفسر بطريقة بسيطة للغاية في (الشكل ٥-٢).



الشكل 2.5

إذ عندما تطلق سيارة ثابتة موجة صوتية، كما في أعلى الرسم البياني للشكل ٥-٢، تنبعث سلسلة من الحلقات متحدة المركز وانضغاطات وخلخلات، في الهواء الذي يتحرك من السيارة. وعندما يرتطم كل هذا بأذاننا، فإننا نسمع صوتاً، وتعتمد طبقاته على مدى تكاثف الموجات الصوتية. إذا كلما زاد عدد الموجات الصوتية التي ترتطم بأذاننا في كل ثانية، زاد ارتفاع طبقات الصوت.

أما إذا كانت السيارة تتحرك، كما فى الرسم البيانى الأسفل، إذن، فإنها سوف ترتحل - فى واقع الأمر - لمسافة قصيرة معينة، بين الوقت الذى نطلق فيها موجة صوتية واحدة، والوقت الذى تطلق فيه موجة أخرى. وسوف تتركز كل موجة فى البقعة التى كانت فيها السيارة، عندما أطلقت هذه الموجة تحديداً.

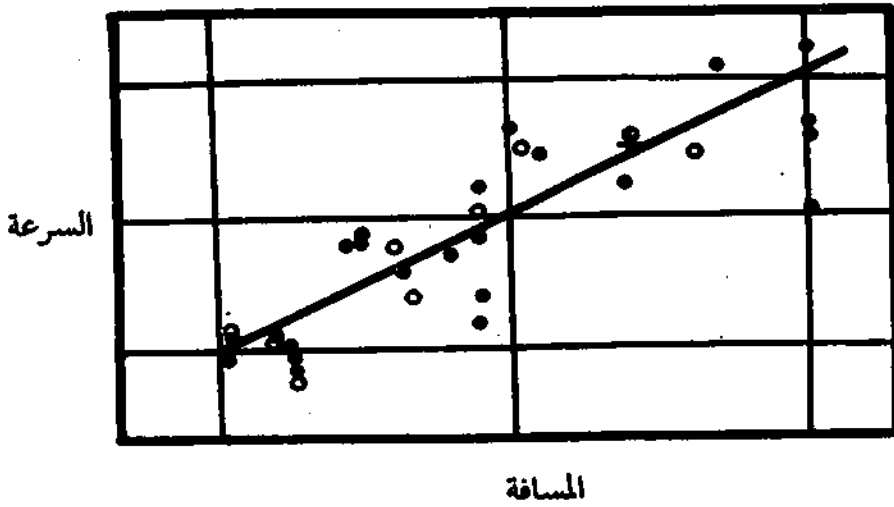
وتكون النتيجة أن النموذج متحد المركز السابق، قد استبدل به النموذج المائل الموضح بالشكل. وإذا كان ثمة شخص يقف عند النقطة أ عندما تكون السيارة مقترية، فإنه سوف يتبين أن الموجات الصوتية أكثر اندماجاً عن المعتاد. وسوف يسمع هذا المراقب صوتاً ذا طبقة أعلى. ومع هذا، وفى النقطة ب، تكون الموجات الصوتية أقل اندماجاً عن المعتاد، وسوف يسمع المراقب صوتاً ذا طبقة أكثر انخفاضاً.

إن هذا يفسر (تأثير دوبلر)، كما أنه يشرح أيضاً، كيف اكتشف (هابل) تمدد الكون. إن ما حدث لموجة الصوت يمكن أن يحدث لأى نوع من الموجات، من الأمواج المتكسرة على شاطئ المحيط إلى موجات الضوء، إن اندماج الموجات عندما يقترب الشيء الذى يطلقها، يمكن اعتبارها مثل إزاحة للون الشئ نحو الأزرق فى الطيف، وانتشار الموجات الصادرة عن شئ ما يتحرك بعيداً، يمكن اعتباره متجهاً نحو اللون الأحمر^(١) "إزاحة نحو الأحمر".

وما فعله (هابل) أنه قارن الضوء الصادر عن ذرات، لعناصر معروفة فى المجرات القريبة، بضوء نفس الذرات الصادر فى المختبرات الأرضية. واتضح له أن الضوء المنبعث من المجرات البعيدة، تنزاح إلى اللون الأحمر الذى يقع فى نهاية الطيف، واستخلص من ذلك أن المجرات تتحرك بعيداً عن كوكب الأرض.

وتكشّف نموذج آخر، عندما حسب (هابل)، بُعد المجرات النائية عنا. وبعض بيانات الأصلية مرسومة على هيئة مخطط فى (الشكل ٦-٢). وكان من رأيه أن البيانات تتخذ اتجاهاً معيناً، كلما كانت المجرات أبعد، زادت إزاحتها نحو الأحمر.

(١) إزاحة الخطوط الطيفية للمجرات البعيدة نحو الطرف الأحمر اللطيف. (المترجم)



الشكل 2.6

ويجب أن أعترف أن هذا الاتجاه ليس واضحاً ومؤثراً في الشكل (على الرغم من أنه بالغ الوضوح في البيانات الحديثة). ويجب عزو اكتشاف (هابل) - جزئياً - إلى التقنية التجريبية الرائعة، وكذلك إلى التخمين الملهم، الذي تضمن التساؤل عما يمكن أن يتحقق عندما تطبق مقاييس أفضل في المستقبل.

ومع ذلك، فإن النموذج الذي توصل إليه (هابل)، والذي سوف ينبثق في النهاية من هذه البيانات، وكان اكتشاف الإزاحة نحو الأحمر للمجرات، واحداً من أهم النتائج وأعمقها، التي تكشف عن الملاحظات الفلكية. وهي تحمل في طياتها بذور الصورة الحديثة التي تتوفر لنا عن الكون المتطور، تلك الصورة التي نطلق عليها "الانفجار الأعظم" ^(١) Big Bong.

(١) نظرية تقول بأن الكون نشأ بانفجار مروع قبل حوالي ١٣,٧ بليون سنة. (المترجم)

الفصل الثالث

الانفجار الأعظم

"لماذا يولد الناس؟ ولماذا يموتون؟ ولماذا يقضون أغلب أوقاتهم، ما بين ارتداء الساعات الرقمية؟".

(دوج آدامس)

"دليل المسافر المتطفل إلى المجرة"

ليس ثمة شك، في أنك لو أردت معرفة إجابات عن الأسئلة الأساسية التي يطرحها العلم، عليك أن ترجع إلى علم الكون. وعبر التاريخ، أخذ الفلكيون على عاتقهم إجابة أسئلة مثل "كيف بدأ الكون؟" أو "كيف سيبدأ؟" أو "ما مصيره؟". وإذا طرحت هذه الأسئلة على فلكيي العصر الحديث، سوف تصاغ الإجابات في لغة النموذج المقبول في زمننا هذا، وهو ما يطلق عليه "الانفجار الأعظم". وهذا النموذج نمو منطقي نتيجة تعاضل الاكتشافات عن المجرات، التي توصل إليها (هابل).

وإذا كانت المجرات النائية تبعد عنا بالفعل، وأن المجرات الأكثر بعداً، تبعد أسرع من مثيلاتها القريبة نسبياً، هنا تتبثق صورة للكون لافقة للنظر. تخيل أن

المجرات مثل حبات زبيب^(١) مبعثر فوق قطعة من عجينة الخبز أثناء خبزها. وبينما تتمدد قطعة العجين، فإن حبات الزبيب سوف تتباعد عن بعضها البعض أكثر فأكثر. وإذا تخيلت أنك تقف فوق واحدة من حبات هذا الزبيب، كيف تبدو لك الأشياء من حولك؟ إنك بالطبع لن تشعر بأي حركة، مثلما لا تحس بآثار حركة كوكب الأرض في مدارها حول الشمس، إلا أنك سوف تلاحظ أن أقرب جار لك، يتحرك بعيداً عنك. وتنسب هذه الحركة إلى حقيقة أن عجينة الخبز، بينك وبين أقرب جار لك تتمدد، ومن ثم تدفع بكما بعيداً عن بعضكما.

وإذا نظرت بعد ذلك إلى حبة الزبيب التي تضاعف بعدها عنك وعن جارك الأقرب، الذي سوف تراه يبتعد أيضاً. فإنها سوف تتحرك بضعف سرعة جارك، لأنه سوف يكون ضعف كمية عجين الخبز، بينك وبين حبات الزبيب، مثلما كان بينك وبين جارك. وكلما نظرت أبعد، سوف يفصلك المزيد من عجينة الخبز عن الزبيب الذي تراه، وسوف تزداد السرعة التي يتحرك بها بعيداً عنك.

وفى الواقع، أن هذا ما شاهدته (هابل) عندما نظر إلى بقية الكون من مرصد (ديلسون) كان كونا سيطر عليه تمدد شامل للفضاء ذاته، وكانت المجرات فيه تتحرك مثل حبات الزبيب في عجينة الخبز. لقد كان تمدداً، يوحى لأي مراقب في أى مجرة، بأنه يقف ساكناً، وأنه يشاهد كل الأشخاص يتحركون بعيداً عنه. إنه كما قال (نيكولاس أوف كوسا) - بعبارات اقتبسناها في الفصل الأول - "الكون مركزه في كل مكان ومحيط دائرته ليس في أى مكان" لقد أصبحت فكرة تمدد الكون، شيئاً مألوفاً للغاية في الوقت الحاضر، إلى الحد أنه من السهولة أن ننسى، كم كانت هذه الفكرة ثورية في ذلك الوقت.

(١) حبات العنب المجففة. (المترجم)

ولتوضيح هذه النقطة، دعنا نناقش كل تفاصيل الأشياء التي تضمنها رأى (هابل) عن الكون، تلك الأشياء المهمة من الناحية الفلسفية.

بداية الكون

لو تصورت أن تمدد الكون، شريط سينمائي، فيمكنك أن تتخيل بسهولة "إدارة الفيلم بطريقة معكوسة". وإذا فعلت ذلك، سوف تجد أن الكون يصغر ويصغر، وفي نهاية الأمر ستأتي اللحظة التي تصبح فيه كل كتلته، متراصة في نقطة كثافتها لا نهائية. ومن هذه النقطة، في ذلك الزمن الموهل في القدم إلى الوقت الحاضر، كان الكون يتمدد. وقبل هذا الزمن لم يكن الكون موجوداً، أو على الأقل لم يكن موجوداً بشكله الحالي.

وتجبرنا الحقيقة البسيطة بأن الكون يتمدد، لنستخلص أن الكون له بداية في الزمن. وسوف نرى أن هناك بعض الجدل عن العمر الفعلي للكون، ولكن في عصرنا الحالي نلاحظ بسهولة أن معظم الفلكيين، يقولون بأن عمر الكون يتراوح تقريباً ما بين عشرة إلى عشرين بليون سنة^(١). والقياس، يمكن أن يقارن هذا بعمر المنظومة الشمسية (حوالي أربعة ونصف بليون سنة)، ووقت انقراض الديناصورات (خمسة وستين مليون سنة) وعمر الجنس البشري (نحو ثلاثة ملايين سنة).

إن الحدث الذي ميز بداية الكون، أطلق عليه "الانفجار الأعظم"، ولقد دخل هذا المصطلح مفردات اللغة والأحاديث اليومية الشائعة في ثقافتنا. وفقط يشير ذلك الاسم - أصلاً - إلى الحدث الوحيد الذي يمثل بداية الكون، واليوم يستخدمه الفلكيون، ليعني الصورة الكاملة للكون، كما وصفناه فيما سبق، كون انبثق من حالة استهلاكية كثافتها مروعة، وأخذ يتمدد منذ ذلك الوقت. وسوف أستخدم مصطلح "الانفجار الأعظم" بهذا المعنى. ويعزو إلى العملية الكونية برمتها: الحدث الاستهلاكي بالإضافة إلى التمدد، وبالنسبة للحدث الاستهلاكي ذاته، دعنا نطلق عليه "لحظة الخلق".

(١) آخر ما توصل إليه علماء الفلك بأن عمر الكون نحو ١٢.٧ بليون سنة. (المترجم)

وأحد الاعتقادات الخاطئة الشائعة عن الانفجار الأعظم، والذي يجب التخلص منه في التو، الاعتقاد أن التمدد الكوني يشابه انفجار قذيفة مدفعية. فالمجرات ليست كرات شربيل^(١) تتسارع بعيداً، من انفجار مركزي. إن التشبيه بالزبيب في عجينة الخبز، هي طريقة مقبولة لنفكر في العملية الكونية كلها، إن ما يتمدد هو الفضاء ذاته، وليس مجرد سحابة من المجرات في داخل الفضاء.

أصبح الاعتقاد البسيط بأن الكون له بداية في الزمن، واضحاً للغاية للفيزيائيين الفلكيين، حتى إن عدداً قليلاً منا يمكن أن يشكك فيه. ومع هذا، فإنه اعتقاد، له تضمينات عميقة، إن معظم الحضارات تعتنق واحداً أو اثنين من المفاهيم المتعلقة بالزمن، والتي يمكن أن نميزها - بصفة عامة - بخطئ^(٢) ودائري أو بغربي وشرقي. فالزمن الخطئ له بداية واستمرارية ونهاية، أما الزمن الدائري، وكما يوحي به اسمه، يظل يدور ويدور إلى الأبد. وفي الكون الذي يعمل بالزمن الدائري، لا تثار أبداً مسألة الخلق، وفيه يكون الكون قائماً في الماضي، وسيظل كذلك في المستقبل.

وعندما نفكر في الزمن الخطئ، فإنك في التو سوف تواجه بسؤال محير ليس فقط عن الخلق، ولكن عن الخالق جل شأنه. وعلى الرغم من أنه ليس هناك سبب منطقي لهذه الفرضية، فإن العديد من الناس يعتقدون بأنه إذا وجد شيء ما، فلا بد أن وجوده كان استجابة لأفعال بعض الكائنات العاقلة. ويسبب ذلك الاعتقاد، فإن الفلكيين - على الرغم من كراهيتهم للانخراط في مناقشات لاهوتية - وجدوا أنفسهم متورطين في إحدى هذه المناقشات، عندما افترضوا حدوث كون الانفجار الأعظم. فقد وضعهم ذلك الفرض مباشرة، في خضم المجادلة الموهلة في القدم، عن وجود الله!

(١) قذيفة مدفعية تحتوي على كرات معدنية صغيرة مصممة لتنفجر في الهواء. (المترجم)

(٢) مؤلف من خطوط. (المترجم)

الكون ليس ساكنًا

منذ اكتشاف (هابل) للإزاحة نحو الأحمر، كان يفترض عادة أن الكون ساكن، وأن النجوم أبدية ولا تتغير، وأن مشكلة سبر غور الكون، مشابهة لرسم خريطة لمنطقة مكتشفة حديثاً. بيد أن المنطقة كانت معقدة ومتشابكة، ومن ثم، كانت المهمة صعبة، ولكن - على الأقل - يمكن للشخص أن يتأكد بأن الأرض لن تتحرك في كل اتجاه، بينما يتم رسم الخريطة، وقد غير اكتشاف (هابل) كل هذا. فبدلاً من الاعتقاد بأن الكون ساكن، أصبحنا نتعامل مع كون يتطور باستمرار مع مرور الوقت. ويجب أن نفكر في الكون كسلسلة من العمليات والتغيرات.

وبالتالي، فإن كل الملاحظات التي تمت عبر الزمن المدون، تعطينا أقل من لقطة للكون، خلال جزء ضئيل من تاريخه الطويل. ولو أن عمر الكون كله الموغل في القدم، قد ضغط إلى سنة واحدة، فسوف يشغل التاريخ المدون - تقريباً - اللحظة الأخيرة قبل منتصف ليلة رأس السنة. ولو أن الكون كان ساكناً، إذن، فإن لقطة واحدة سوف تكون كافية لتخبرنا كيف كان يبدو الكون، وكيف تطور منذ بداية الزمن. ولكن ما دام الكون يتطور، فإن اللقطة سوف تخبرنا عما هو عليه في الوقت الحاضر، علينا أن نستنتج كيف كان الكون في الماضي.

وتحدث وجهة النظر هذه، فرقاً كبيراً فيما ارتضيناه كتفسيرات، للكون الذي يتراعى أمام أعيننا حالياً. وسوف نرى فيما بعد، أن ملمحاً واحداً للكون يظهر أنه ملئ بالفراغات المروعة، مناطق لا توجد بها مجرات على الإطلاق. ولو اعتنق المرء الرأي بأن الكون ساكن ولا يتغير، إذن، فعليه أن يجد آلية ما، يمكن بواسطتها تخليق هذه الفقاعات والحفاظ عليها إلى الأبد، وهي مهمة - بكل المقاييس - مستحيلة. ومن ناحية أخرى، إذا اعتقد شخص ما أن الكون يتطور، سوف تكون المهمة أكثر سهولة إلى حد كبير. كل ما على المرء أن يفعله هو أن يفكر في شيء ما يمكن أن ينتج فقاعة بحيث تستمر في الوجود لزمان طويل، يكفي لكي يمكننا مشاهدتها. ويمكن للعديد من

العمليات الطبيعية الفيزيائية أن تنتج فقاعة مؤقتة، كما سوف نرى فى الفصل الخامس.

لن يبقى الكون على وضعه الحالى إلى الأبد

كما أن الكون بداية، فسوف تكون له نهاية. وستعرض فيما بعد لتفاصيل الشكل الذى ربما تتخذه تلك النهاية، أما فى الوقت الحاضر، فإننا نلاحظ أن كوناً متطوراً يجب أن تكون مراحل تطوره فى اتجاه نهاية محتومة.

وفى القرن التاسع عشر، لاقت فكرة "الموت الساخن" للكون، قبولاً لدى العلماء، ومفادها أن الكون أصبح ضعيفاً وأصابه الكلال، وفقاً للقانون الثانى من الديناميكا الحرارية^(١)، وفى النهاية سوف يتحول كل الخلق إلى كيان ضعيف مفتقر للمعالم، كتلة خفيفة لا شكل لها من المادة. أما المستقبل المحتمل لعلم كون الانفجار الأعظم، فسوف تكون درامية إلى حد بعيد، أكثر من الموت الحرارى، ولا نستطيع أن نجزم القول. أى من النهايات المحتملة، هى التى سوف تحدث، وذلك بسبب قصور تقنيات الرصد لدينا، أو لعلها مجرد حالة جهل عابرة. ولكن حتى الوقت الحاضر، يمكننا إدراك أن هناك رؤيتين مستقبليتين محتملتين، نستطيع الخوض فى تفاصيل كل منهما.

عندما كان الكون أكثر شباباً، كان أشد كثافة وحرارة مما هو عليه فى الوقت الحاضر

عندما كان الكون أكثر شباباً، كانت نفس كمية مادته مضغوطة فى حجم أصغر كثيراً مما هو عليه فى الوقت الحاضر. وبناء على هذا، كانت كثافته أشد مما هى عليه الآن.

(١) علم يبحث العلاقة بين خواص المواد وتفاعلاتها التى تتأثر بالحرارة، وتحول الطاقة من وجه لآخر. (المترجم)

ومعروف أنه كلما ضغطت المواد إلى كثافة عالية، تصبح أشد حرارة، والتفسير الشائع لهذه الحقيقة، من ممارساتنا اليومية، هو استخدام مضخة يدوية لنفخ إطار، وبعد برهة، تصبح أنبوبة المضخة ساخنة، وقد تولدت هذه السخونة من الانضغاط المستمر للهواء، وبالمثل، عندما نعود بالزمن إلى الوراء، سنجد المادة أكثر كثافة والحرارة - تبعاً لذلك أشد - وفي الحقيقة، إذا كان على اختيار شعار وحيد، وأطلب من الناس أن يتذكروه عن الانفجار الأعظم، فسوف يكون: "فيما يتعلق بالكون، فإنه في مرحلة شبابه، كان أشد حرارة وكثافة".

وتشمل هذه الحقيقة استدلالات وتلميحات وتضمينات مروعة، وفي الواقع يمكن القول إنها المسئلة عن ازدهار علم الكون في الوقت الحاضر. والسبب في ذلك، أننا عندما نقول بأن المادة ساخنة، فإننا نعني بهذا، أن الذرات المكونة لها تتحرك بسرعة. وكلما زادت سرعة تحركها، زادت الاصطدامات العنيفة التي تحدث من وقت لآخر.

ويشابه ذلك الموقف حوادث السيارات. ففي المادة الباردة، تتحرك الذرات ببطء، وتكون الاصطدامات مثل سيارتين تتصادمان عندما تتحركان بسرعة بطيئة في موقف مخصص للسيارات. وليس من المحتمل أن تتحطم السيارتان أو الذرات بشدة. ومن جهة أخرى، إذا كانت المادة ساخنة، سوف تشبه الاصطدامات ارتطام سيارتين وجهاً لوجه، عندما تسيران بسرعة قصوى. وفي هذه الحالة، ثمة احتمال كبير، أن تتمزق السيارتان والذرات إرباً إرباً، تاركة مكان الاصطدام ركاماً مبعثراً، ورفارف ومصدات وأجزاء أخرى.

وهكذا، عندما كان الكون أشد حرارة وأكثر شباهاً، كانت الاصطدامات بين الذرات عنيفة، ولا بد أنه كان هناك وقت، كانت فيه الحرارة لافحة إلى الحد أنه كان من المستحيل على أي ذرات أن تعمر بعد هذه الاصطدامات. إذ لا بد أن يتفكك كل شيء إلى مكوناته الأساسية، ونعرف من هذا، أنه كان هناك وقت، لم توجد فيه ذرات، ووقت آخر، انبثقت فيه إلى الوجود. وقبل خلق الذرات، وجدت المادة على شكل إلكترونات

تتجول فى كل مكان، باحثة عن نواة ترتبط بها، وكانت النواة بدورها ترتحل فى جميع الاتجاهات، للبحث عن إلكترونات، وهذه حالة من المادة يطلق عليها الفيزيائيون "بلازما"^(١). وإذا حدث وارتبط إلكترون بنواة لكى يشكل ذرة، فإن كليهما سوف يتمزق فى الاصطدام التالى.

وتلك السلسلة من الأحداث، التى تتحول فيها المادة - باستمرار - من حالة إلى أخرى، كلما انخفضت درجة حرارة الكون، من أفضل أن أطلق عليه "التجمد"، لأن ذلك يشبه تحول الماء، من الحالة السائلة إلى الحالة الصلبة، إذا ما انخفضت درجة الحرارة إلى أقل من صفر مئوى. والواقع أن التحول من مركبات من الإلكترونات والنوى، إلى ذرات، ربما حدث فى درجة حرارة أعلى من هذا، بيد أن العمليتين خصائص عدة مشتركة.

عندما كان الكون أكثر شباباً. كانت الأمور أبسط

إن الذرة بنيان بالغ التعقيد؛ إذ إن لها نواة مدمجة، ذات شحنة موجبة وحشد من الإلكترونات ذات شحنة سالبة، تتحرك فى مدارات حولها، ومن ناحية أخرى، فإن الذرة منظومة بسيطة نسبياً. إذ - على الرغم من كل ذلك - لتكوين ذرة ما، عليك بوضع كل الأجزاء المكونة لها معاً، بالأسلوب الصحيح تماماً. ولعمل مزيج ما، يمكنك وضعها كيفما اتفق. وذلك هو الفرق بين حزم الأمتعة بعناية فى حقيبة سفر، ومجرد إلقاء شئ - دون عناية - داخلها.

وحكاية ما حدث للذرات، يعد نموذجاً للتاريخ المبكر للكون؛ إذ عندما أخذت الحرارة فى الانخفاض، كنتيجة لتمدد الكون - وفقاً لنظرية (هابل) - تشكلت بنى أكثر وأكثر تعقيداً. وكانت الذرات - وهى أكبر وأكثر نشاطاً من كل البنى التى تلقى

(١) غاز متأين تكون فيه الإلكترونات حرة وغير مرتبطة بالذرة. (المترجم)

اهتمامنا - هي آخر ما تشكلت. وإذا رجعنا بالزمن إلى الوراء، لوجدنا أن البنية التالية التي مرت بمرحلة التجمد هي النوى نفسها. إن النوى هي - ببساطة - تكدس من البروتونات والنيوترونات. وإذا حدث بين هذه الجسيمات اصطدام عنيف إلى حد ما، فإن البروتونات والنيوترونات، يمكن أن تنفصم عراها وتتباعد عن بعضها. لا بد إذن أنه كان ثمة وقت، عندما لم تكن نوى الذرات موجودة، ووقت آخر انبثقت فيه إلى الوجود.

وينفس الطريقة، فإن البروتونات والنيوترونات والجسيمات الأساسية الأخرى، التي تكوّن النوى، مكونة بدورها من جسيمات يطلق عليها "كواركات"^(١) وهي "أولية" أكثر، ويعتقد بأنها اللبنة الأولى للمادة، حتى الآن.

عندما كانت حرارة الكون مروعة، لم تستطع هذه الكواركات أن تبقى "محبوسة" في داخل الجسيمات الأساسية، بل انطلقت كجسيمات حرة. وبمعنى آخر، في بواكير الزمن، لم يكن هناك أي جسيمات أساسية، التي تتخذ لها - في الوقت الحاضر - موطناً داخل الفواة. وكان ثمة وقت، لم تكن موجودة فيه، ووقت آخر انبثقت فيه إلى الوجود.

وعندما كانت درجة حرارة الكون، شديدة بقدر كاف، عندئذ كانت المادة خليطاً من الكواركات وجسيمات كالإلكترونات، جسيمات يطلق عليها الفيزيائيون "لبتونات" (أي الجسيمات التي تتفاعل بضعف).

ووفقاً لأفكارنا الحالية، لقد وصلنا إلى نهاية الطريق: إن المادة لا يمكن تفكيكها أكثر، والبحث عن جسيمات دون ذرية داخلها. وأن كل شيء حولنا مكون من توافقيات متباينة من الكواركات واللبتونات. وبينما كان الكون يتمدد، تجمدت الكواركات داخل الجسيمات الأساسية، ثم تجمدت الجسيمات داخل النوى، وفي النهاية تجمدت النوى والإلكترونات لتكوّن الذرات. ويجب أن تعترف أنها صورة بارعة ودقيقة لتطور أشكال المادة.

(١) تروى قصة الجسيمات الأساسية والكواركات. في كتابي "من الذرات إلى الكواركات" "From Atoms to Quarks". (المؤلف)

بيد أن تبسيط الكون إلى أجزائه الأساسية، لا يتوقف على المادة، إذ ما إن تفككت المادة إلى عناصرها الجوهرية، حتى وجد مصدر آخر للتعقيد فى الكون، ألا وهى القوى الرئيسية التى تتحكم فى الطريقة التى تتفاعل بها الجسيمات مع بعضها. وفى كوننا الحالى الذى يتميز بأنه - إلى حد ما - قارس البرودة، ثمة أربع من هذه القوى؛ إذ إن هناك (بترتيب تنازلى لمدى قوتها) القوة الشديدة، التى تمسك بمكونات النواة معاً، والقوة المألوفة للكهرباء والمغناطيسية (الكهرومغناطيسية) والقوة الضعيفة التى تتحكم فى بعض أنواع التحلل الإشعاعى، والجاذبية. وعلى الرغم من أن هذه القوى، تبدو متباعدة إلى حد كبير، ولكن وفقاً لنظريتنا عن البنية الرئيسية للكون، فإن تلك القوى ليست إلا جوانب مختلفة لنفس القوى. وعندما تزداد شدة طاقة الاصطدامات، فإنه من المفترض أن تختفى الصفات الفارقة التى بين القوى الأساسية.

وحالما يختفى التمايز بين قوتين، نقول بأن هاتين القوتين قد توحدتا، والنظريات التى تشرح عملية الاندماج هذه يطلق عليها نظريات "المجال الموحد". وتشتمل هذه النظريات على استدلالات وتلميحات وتضمينات، عن تطور الكون. وعندما نرجع فى الزمن، فيما وراء النقطة التى تفككت فيها المادة إلى مكوناتها الجوهرية، نجد أن أول قوتين توحدتا، هما القوة الكهرومغناطيسية والقوة الضعيفة. وقبل هذا التوحد، كانت هناك ثلاث قوى أساسية فقط: القوة الشديدة، والقوة الموحدة الجديدة "الكهروضعيفة"، وقوة الجاذبية.

وبالرجوع فى الزمن إلى الوراء، وبعد هذا التوحيد، كان الحدث ذو الأهمية، توحيد القوة الشديدة والقوة الكهروضعيفة. وقبل هذا التوحيد كانت هناك فقط قوتان أساسيتان: القوة الشديدة - الكهروضعيفة والجاذبية. وبعد هذا، أصبح هناك ثلاث قوى. وباستمرار هذا التوحيد بين القوى، أصبحت الكواركات واللبتونات، قابلة للتبادل فيما بينها، وفى الواقع، صارت نوعاً واحداً من الجسيمات.

وأخيراً، مع الارتفاع المروع لدرجات الحرارة، لحد لا يمكن تخيله، تقترح النظريات الكونية والفيزيائية، أن آخر قوتين قد اتحدتا. (والنظريات التى تصف هذه العملية، تسمى نظريات "التماثل الفائق"، وسوف نناقشها فى الفصل الحادى عشر).

وفى هذه المرحلة من دراستنا للكون، لا نحتاج إلى ملاحظة أن العلماء يخبروننا بأنه فى أول جزء من الثانية من وجود الكون، كان بسيطاً ورائعاً وأنيقاً، كما يمكن أن يكون. وكان يتكون من محيط من نوع واحد من الجسيمات، وأخذت هذه الجسيمات تتفاعل مع بعضها عبر نوع واحد من القوة الكونية.

وبينما أشعر بمتعة أن أخبر جماهيرى الحبيبة التى تتابعنى إلى هذا الحد البعيد من تاريخ الكون، أن كل شيء يتفاقم منذ ذلك الوقت^(١).

الجدول الزمنى

تاريخ الكون منذ لحظة الخليقة، كان عبارة عن تمدد وتبريد وتجمدات، وفيها لا يحدث للمادة ذاتها أو للتفاعلات الأساسية أى تغير فى الشكل. ويدون الخوض فى التفاصيل، يمكن تأريخ تطور الكون على أساس زمنى، بمساعدة جدول زمنى بسيط. دعنا ننسب للحدث الأولى نفسه، الكمية التى نطلق عليها الوقت صفر. ثم الأوقات التالية تميز التجمدات التى تم وصفها فيما سبق:

١٠-٤٣ ثانية^(٢)

فى هذا الوقت، انفصلت قوة الجاذبية، عن القوة الشديدة المتحدة بالقوة الكهروضعيفة. وبعد "شهر العسل" القصير من أقصى درجات البساطة، صار الكون

(١) يمكنك أن تجد مناقشة كاملة للخطوات التى أوجزت هنا، وذلك فى كتابى (لحظة الخليقة) The Moment of Creation. (المؤلف)

(٢) سوف أستخدم ما يطلق عليه "التدوين العلمى" الذى يعنى باستخدام العلامات والرموز فى التطبيقات العلمية، وذلك لتوفير المساحة. وليس من الصعوبة فهم التدوين العلمى. إن رقم ١٠ له أس مكون من رقم سالب، يجب أن يفسر بأنه إشارة لتحريك الفاصلة العشرية بعدد هذا الرقم إلى اليسار. وهكذا فإن الرقم إلى أعلى عبارة عن فاصلة عشرية. واثنين وأربعين صفراً ثم واحداً. أما الأس الإيجابى فيعنى "حرك الفاصلة العشرية بعدد هذا الرقم إلى اليمين". (المؤلف)

- إلى حد ما - أكثر تعقيداً، إذ إن التفاعلات بين الجسيمات، أصبح يتحكم فيها الآن، نوعين من القوى. كانت الحرارة بالغة الشدة والاصطدامات عنيفة للغاية، وهذا يفوق إلى حد كبير، أى شيء فى كوننا الحالى، حتى فى مراكز النجوم والكوازرات. ولدى بعض الفيزيائيين النظريين، أفكار عما كانت عليه الأمور فى ذلك الوقت، ولكن ليس ثمة اختبارات تجريبية متاحة، تؤكد لنا صحة أفكارهم.

١٠-٣٥ ثانية

انفصلت القوتان: الشديدة والكهروضعيفة، تاركة الكون بثلاث تفاعلات أساسية. وتوقفت قابلية الكواركات واللبتونات للتبادل فيما بينهما، واتخذاً - تقريباً - صورتها الحالية. وبالإضافة إلى ذلك، ففى خضم هذا التجمد تشكل عدد من الأشياء الغريبة، استوجب خلقها طاقة مروعة أشد كثيراً، مما هو متوفر فى الوقت الحاضر، سواء فى الطبيعة أو المختبر. وهذه الأشياء، مثل الأوتار الكونية، سوف يتم سبر غورها فى الفصل الثانى عشر، وتتميز بأنها تكون مستقرة بمجرد تشكلها. ومن ثم، فربما استطاعت أن تبقى بعد زوال غيرها، منذ هذا الزمن المبكر الموهل فى القدم، ولعلها تؤدي دوراً رئيسياً فى بنية الكون.

وعلى المستوى التجريبى، فإن العلماء النظريين الذين وصفوا هذا التحول، لم يقدموا دليلاً قاطعاً عليه. بل صاغوا نظرية أطلقوا عليها (النظريات الكبرى للتوحيد) GUT، وتنبأوا فيها بأن البروتون - الذى اعتقد حتى ذلك الوقت بأنه مستقر تماماً - سوف يضمحل بجدول زمن يزيد كثيراً عن عمر الكون. وقد باع بالفشل كل المحاولات لرؤية هذا الاضمحلال بتجارب بالغة الحساسية والدقة، ومن ثم، فإن العمر المقدر يزيد كثيراً جداً، عما تم التنبؤ به فى أبسط الرؤى للنظريات.

فى هذا الزمن حدث آخر تجميد للقوى؛ إذ انفصلت القوة الكهرومغناطيسية عن القوة الضعيفة، وبقي الكون بالمجموعة الكاملة من الأربعة تفاعلات. ويمثل ذلك أيضاً الزمن الأبعد الذى يمكن فيه أن نستحدث من جديد - فى مختبراتنا - تلك الظروف التى كانت سائدة فى الكون. وفى المعجلات العملاقة للجسيمات، يمكن إنتاج هذه الظروف خلال تلك الحقبة الزمنية، ولكن فى قياسات ضئيلة للغاية، لا تزيد على حجم البروتون. وليس هذا بالإنجاز العظيم، بيد أنه يعد كافياً، لإمدادنا بطريقة موثوق بها للغاية، لتصوير الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الزمن الموهل فى القدم.

١٠ مايكرو ثانية^(١)

اندماج الكواركات لتشكل الجسيمات الأساسية

ثلاث دقائق

التحام البروتونات والنيوترونات معاً، لتكوين النوى. ولكن أكثر دقة، فقط النوى الخفيفة - حتى الهيليوم والليثيوم - تكونت خلال هذه المراحل المبكرة من الكون. أما كل العناصر الأثقل، فقد تشكلت فيما بعد، فى النجوم.

من ١٠٠,٠٠٠ إلى ١,٠٠٠,٠٠٠ عام

اندمجت الإلكترونات والنوى معاً، لتكون الذرات. وما أن تكونت الذرات حتى أصبح الكون يشبه - إلى حد ما - شكله الحالى. واستمر تمدد الكون بون أى تغييرات جذرية.

(١) جزء من مليون من الثانية. (المترجم)

دليل على حدوث الانفجار الأعظم

صورة "الانفجار الأعظم"، كما يدرك كل شخص، رؤية شاملة وبارعة لتطور الكون، تأخذنا من لحظة الخليفة إلى الوقت الحاضر، عبر سلسلة من الخطوات البسيطة نسبياً. ولكن هل هذا ما حدث بالفعل، أم هي حكاية تعطى انطباعاً خادعاً للحقيقة، وكأنها من أحداث قصص (روديارد كيبلنج) التي أطلق عليها قصص مطابقة للحقيقة؟

إن الوسيلة الوحيدة للإجابة عن هذا السؤال، هو اللجوء إلى الدليل الذي يعتمد على الأرصاد الفلكية والقياسية، التي تساند النظرية. وبغض النظر عن "الإزاحة نحو الأحمر" ذاتها، ثمة دليلان رئيسيان متاحان: التخليق النووي بسبب الانفجار الأعظم والموجات الدقيقة الخلفية الكونية. ثمة عدد آخر من الدلائل، بيد أنها من الصعوبة بحيث لا يتسع المجال لشرحها، هنا، وإجمالاً، فإن هذه الدلائل أقل تأثيراً من الدليلين اللذين سوف أناقشهما فيما بعد.

تخليق النوى (أي وضع النوى معاً) يعزو إلى سلسلة العمليات والتغيرات التي حدثت أثناء نقطة التحول التي استمرت ثلاث دقائق (مُعَلَّم الثلاث دقائق). فخلال فترة وجيزة، تصادمت البروتونات والنيوترونات ببعضها ثم التصقت معاً، مكونة نواة خفيفة.

وقبل مرور ثلاث دقائق، كانت درجات الحرارة مروعة، بحيث لم تمكن النوى من الالتحام معاً، وبعد ذلك استمر تمدد الكون إلى النقطة التي أصبحت فيها كثافة الجسيمات منخفضة للغاية، إلى الحد أنها لا تسمع بحدوث عدد كبير من الاصطدامات. ومن ثم، فهناك رؤية ضيقة للغاية، حول حدود الثلاث دقائق الأولى من عمر الكون، حيث تم فيها عدد كاف من الاصطدامات التي كونت أعداداً كبيرة من النوى، وكانت درجة الحرارة منخفضة لتسمح بالنوى التي تشكلت حديثاً، بالبقاء على قيد الحياة.

وتخبرنا نظرية الانفجار الأعظم، عن مدى كثافة المادة المكثفة، خلال تلك الحقبة الزمنية القصيرة، ومن ثم عدد الاصطدامات التي حدثت في تلك الفترة، ويمكن إعادة إنتاج هذه الاصطدامات نفسها، في مختبراتنا، وهكذا نعرف كم مرة تنتج نواة معينة من كل اصطدام محدد. ومن ثم يكون عدد كل نوع من الأنوية المنتجة - الفيزياء الأساسية الأولى - اختباراً متفحصاً لكل جوانب الرؤية الشاملة للانفجار الأعظم.

وأفضل مثال لكيفية عمل هذا الاختبار، يتعلق بالفيزياء الأساسية الأولى، للهيليوم - ٤، وهي نواة تتكون من بروتونين ونيوترونين. وتتنبأ النظرية بأن ٢٥ بالمائة من المادة في الكون، بعد الثلاث دقائق، يجب أن تتكون من هذا العنصر. وعندما تطلع الفلكيون إلى الفضاء وقياسوا الكمية الفعلية للهيليوم في الكون المعاصر، وطرحوا منها تلك الكمية التي أنتجت في النجوم منذ زمن الانفجار الأعظم، توصلوا إلى تحديد الكمية التي تنبأوا بها، بدرجة كبيرة من الدقة. ولو كانوا قد وجنوا فيضاً من الهيليوم، اختلفت كميته بنسبة تصل إلى اثنين أو ثلاثة بالمائة، مما تم التنبؤ به، لأصبحت نظرية الانفجار الأعظم في محنة خطيرة.

وهذا الموضوع عن التنبؤ الدقيق والإثبات اللاحق، يمكن تكراره لعدد من النوى المتباينة، وتتضمن نواة الديوتيريوم^(١)، (بروتون واحد ونيوترون واحد) ونواة الهيليوم - ٣ (بروتونان ونيوترون واحد) ونواة الليثيوم - ٧ (ثلاثة بروتونات وأربعة نيوترونات). ويتفق جميع العلماء، أن تنبؤات الانفجار الأعظم، ثبتت صحتها وقتما يتم إخضاعهما للاختبار.

والدليل الدامغ الثاني لنظرية الانفجار الأعظم، يتأتى من مصدر مختلف تماماً. وأفضل طريقة لفهمه، يكون بضرب الأمثلة. إذا دخلت حجرة بها مدفأة انطفأت فيها النيران، ويمكنك أن تعرف منذ متى كانت النيران مشتعلة، إذا نظرت إلى فحم المدفأة. فإذا كان الفحم أحمر وساخناً، معنى ذلك أن النيران انطفأت منذ وقت قليل. أما إذا كان الفحم برتقالياً باهتاً، فربما تكون قد انطفأت منذ مدة طويلة. إن هذا التسايع

(١) الهيدروجين الثقيل. (المترجم)

المتواصل لعملية تبريد الفحم، والتي تصدر فيها إشعاعات لها موجات تزداد طولاً مع مرور الزمن، من الضوء المرئي إلى تحت الأحمر (التي لا تستطيع رؤيتها، ولكنك تشعر بها على راحة يدك).

ويمكن التفكير في المراحل المبكرة للانفجار الأعظم، وكأنها نيران مشتعلة، والكون بذاته كفحم لهذه النيران. ومثل الفحم في مدفئك، فإن الكون يصدر إشعاعات تزداد أطوال موجاتها، أثناء عملية تبريده. واليوم بعد اشتعال تلك النيران، بنحو خمسة عشر بليون سنة، لابد أن تكون هذه الإشعاعات في شكل موجات دقيقة^(١)، وهي نفس النوع من الإشعاع الذي نستخدمه لطهى الطعام (فرن المايكرويف) وإرسال إشارات بث التلفاز. ويكمن الفرق بين الكون والفحم في المدفأة هو أنه في المثال الأخير، نقف بعيداً عن الفحم ونشعر بالإشعاع، بينما في حالة الكون نكون في داخل المصدر الذي يصدر الإشعاع، أى إننا - فى حقيقة الأمر - داخل كومة الفحم ذاتها.

وفى العام ١٩٦٤، قام (أرنو بنزياس) و(روبرت ويلسون) - وهما فيزيائيان يعملان فى مختبرات هاتف بل فى نيو جيرسى - بتوجيه طبق تليسكوب راديوى ضخّم إلى السماء، واكتشفاً بأنه بغض النظر عن الاتجاه، فإنهما يستقبلان إشارة تدل على وجود الإشعاعات الدقيقة. وبعد مناقشات فى المجتمع العلمى، اتضح أن هذا الإشعاع هو تماماً ما يمكن أن يتوقعه المرء، إذا كان الكون قد بدأ بالانفجار الأعظم الشديد الحرارة، منذ نحو خمسة عشر بليون سنة. وفى هذا الزمن الموهل فى القدم، برد الكون من درجات الحرارة المروعة التى سادت عند بدايته إلى درجة الحرارة المميزة للموجات الدقيقة، وهى حوالى ثلاث درجات فوق الصفر المطلق^(٢). ويحتمل أن يكون هذا الاكتشاف قد جاء فى وقت، ما زالت المناقشات محتدمة حول بنية الكون، مما رجّح كفة

(١) إشعاع كهرومغناطيسى تقع أطوال موجاته بين ملليمتر وعشرة سنتيمترات. (المترجم)

(٢) درجة حرارته ٢٧٣.١٥ درجة مئوية تحت الصفر. (المترجم)

الميزان، وأقنع المجتمع العلمى بتأييد نظرية الانفجار الأعظم، واستمر هذا حتى الوقت الحاضر.

ما الاحتمالات ؟

خلال شتاء وربيع عام ١٩٨٦، حظيت بمتعة وامتنياز قضاء إجازة عمل لمشاركة مجموعة من علماء الحفريات^(١) فى جامعة شيكاغو. كنت أعكف على دراسة مشكلة الانقراضات الجماعية (ما الذى قتل الديناصورات؟)، وأتاحت لى هذه الزيارة التعرف على (دافيد روب)، رئيس المجموعة. وقالوا لى عن (دافيد) إنه أعظم علماء الحفريات فى العالم كله، وهو تقييم - بعد أن عملت معاوناً له لفترة من الوقت - أعتقد أنه يستحقه تماماً. وهو أيضاً واحداً من هؤلاء الأفراد النادرين، الذين يجدون متعة هائلة من كل ما يقومون به من عمل. كما أنه يحب طرح الأسئلة عن الأمور، التى يقبلها أى شخص دون مناقشة، وأعتقد أن هذه الصفة لها صلة وثيقة، بما حققه من نجاح كعالم يشار إليه بالبنان. وهو أيضاً لاعب ورق ماهر (كما عرفت - لشدة أسفى- ونحن نلعب "البوكر" فى أواخر إحدى الليالى)، كما أن دافيد يقضى بعضاً من وقت فراغه على حاسوبه الشخصى، محاولاً إيجاد طريقة ليهزم بها النظام فى "البلاك جاك"^(٢)!

إننى أذكر هذه الأشياء كخلفية لما أريد أن أخبرك بها، أمر ما حدث أثناء زيارة قمت بها مع مجموعة علماء الحفريات. كنا فى مكتب دافيد نناقش بعض الأمور من هنا وهناك، عندما استدار إلىّ وسألنى، فجأة دون أية مقدمات "ما الاحتمالات بأن الانفجار الأعظم قد حدث بالفعل؟". وكما تتخيل، فقد توقفت عن المناقشة مع الآخرين، إذ أخذنى على حين غرة. وانتابتنى قوة دافعة أولية أن أجيب قائلاً "بالطبع إن نظرية الانفجار

(١) دراسة أشكال الحياة القديمة. (المترجم)

(٢) لعبة ورق يكون هدفها تجميع أوراق بعد أعلى من عدد الموزع للورق ولكن لا يتجاوز ٢١. (المترجم)

الأعظم صحيحة" بيد أنني توقعت أن يسألني كيف عرفت، ومن ثم، فقد تريت في الإجابة.

وكما أمعنت التفكير في السؤال، أتت إلى ذهني المزيد من الذكريات المتناثرة، تطفو في عقلي، وتذكرت أثناء تناول غداء خفيف في قسم الفيزياء المهيب، أن عضواً بارزاً ذو مكانة مرموقة من أعضاء التدريس في الكلية (لا أريد إحراجه بذكر اسمه) قال بأنه كثيراً ما يفكر في ترك مظلوف مختوم، لا يفتح إلا بعد وفاته بخمسين عاماً. وسوف يُضمَّن هذا المظلوف تنبؤات عن الطريقة التي سوف تتمخض عنها مناقشات خلافية وجدلية معينة. وفي أعلى القائمة، سيكون التنبؤ بأن تفسير "الإزاحة نحو الأحمر" دليلاً على تمدد الكون، سوف يثبت أنه ليس متسقاً مع هذه الذكريات التي انتابتنى، بالإضافة إلى تجريبي الشخصية في دراسة بعض الأفكار التي لم تستمر طويلاً، في علم الكون، والتي سوف نناقشها فيما بعد، كل هذا جعلني متردداً في أن أكون متسماً بالتأكيد الجازم في إجابتي عن سؤال دافيد "ما الاحتمالات بأن الانفجار الأعظم قد حدث بالفعل؟" وأخيراً، قلت له بأنني أعتقد أن الرؤية الشاملة للتمدد الكوني من البداية المروعة للحرارة، يساندها احتمال مرتفع للغاية، بأنها صحيحة، بيد أن الكثير من التفاصيل التي يتضمنها فهمنا، يمكن أن تكون ببساطة، غير صحيحة. ويبدو أن هذه الإجابة قد أشبعت توقعات دافيد، الذي أعتقد أنه طرح السؤال عليّ، لأنه وجهه من قبل إلى أحد أعضاء التدريس في قسم الفلك - جامعة شيكاغو، وكانت إجابته بأن الانفجار الأعظم كان مؤكداً بنسبة مائة بالمائة. وباعتبار دافيد مقامراً ماهراً، فقد ارتاب في الشيء القاطع والبات والذي يكون صحيحاً تماماً.

بيد أنني كلما أمعنت التفكير أكثر في السؤال، أدركت أنه ليس من الممكن الرد عليه بإجابة وحيدة محددة وحاسمة، إذ إن لنظرية الانفجار الأعظم جوانب متعددة، يرتبط بكل منها مستوى مختلف من الثقة.

وكتدريب لإعطاء تقديرات - فى الجدول التالى - فإننى أقدم حدسى الشخصى فى الاحتمالات التى تقدمها الجوانب المتعددة لرؤية الانفجار الأعظم، المقدمة فى هذا الفصل، ومن ثم إثبات صحتها.

الاحتمال	جوانب النظرية
٩٩٪ وأكثر	الرؤية الشاملة للتمدد الكونى من البداية المروعة الحرارة
٩٥٪	تشكيل الذرات وتخليق النوى
٩٥٪	توحيد القوة الكهروضعيفة ^(١)
٨٥٪	تجميد الكوارك والرؤية الشاملة للكوارك - لبتون
٥٠٪	توحيد القوة الشديدة والكهروضعيفة
٣٠٪	التوحيد مع الجاذبية
٢٠٪	التماثل الفائق، الأوتار الفائقة
١٠٠٪	أى نظريات عن تشكيل المجرات والبنية على نطاق واسع التى نوقشت فيما بعد

(١) لا بد أن هذا صحيح، فقد حصل العلماء (شيلدون جلاشو ومحمد عبدالسلام وستيفن واينبرج على جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٧٩، بسبب هذا الاكتشاف الذى يعد ركيزة من ركائز فيزياء الجسيمات والنموذج المعيارى. (المترجم)

الفصل الرابع

خمسة أسباب تشرح لماذا لا يمكن للمجرات أن توجد

يقول التقرير عن التقدم، إنه ليس هناك تقدم

نك كوزروك

سائق كاسحة ثلج من مونتانا

خلال العاصفة الثلجية في ١٩٨٥

يمكننا تلخيص الرؤية الحديثة للكون في عبارتين موجزتين، الأولى، أن الكون كان يتمدد على الدوام، منذ الوقت الذي تشكل فيه، وخلال هذه العملية تطور من بُنى بسيطة إلى أخرى معقدة. والثانية، أن المادة المرئية في الكون منتظمة في شكل تسلسل هرمي: تتجمع النجوم في مجرات والمجرات في عناقيد مجرية، والعناقيد المجرية في عناقيد فائقة. والمشكلة التي تواجهنا عندئذ، هي فهم كيف أن كوناً تسيطر على تطوره العبارة الأولى، يمكن أن تصبح بنيته قابلة للتفسير بالعبارة الثانية.

وقد ثبت أن مشكلة تفسير وجود المجرات، واحدة من أكثر الموضوعات الخلافية في علم الكون. وبإعمال المنطق، فإن المجرات يجب ألا تكون موجودة في الكون، ومع هذا، فإنها رابضة هناك. ومن الصعوبة أن ننقل مدى عمق الإحباط الذي أحدثته تلك الحقيقة البسيطة بين العلماء. وبمرور الوقت، تحققت تطورات ناجحة، وبدأ أنه تم

التوصل إلى حل للمشكلة. ولكن فى كل مرة ينهار الحل، وتنشأ مشاكل جديدة. ونجد أنفسنا ثانية من حيث بدأنا.

وكل بضع سنوات، تعقد الجمعية الفيزيائية الأمريكية - التى تضم تجمعا مهنياً للفيزيائيين - جلسة فى أحد اجتماعاتهم، يتحدث فيها الفيزيائيون الفلكيون، عن الطرق الجديدة الأكثر إثارة التى تعالج مشكلة المجرات. وكنت أحرص على حضور عدد كبير من تلك الجلسات، التى جعلتنى أشعر باحترام كبير للأمية وبراعة زملائى. وفى نفس الوقت، أثارت فى نفسى الشكوكية^(١) العميقة، عن الآراء التى قدموها.

واستمعت بشغف فى هذه الجلسات، إلى تفسيرات عن كيف أن الاضطرابات الدوامية الكونية والثقوب السوداء والانفجارات أثناء تشكيل المجرات، والنيوترينوات الثقيلة والمادة المظلمة الباردة، سوف تقدم حلولاً لكل مشاكلنا، وهكذا كونت حصانة لما أطلق عليه (جيم بيبلز) الفيزيائى الفلكى فى جامعة (برنستون) "أسلوب المخادعة" فى علم الكون. وعلى الرغم مما قد تقرأه فى الصحف والمجلات، فإننا مازلنا غير قادرين على الإجابة عن السؤال، لماذا تمتلئ السماء بالمجرات، مع أننا نجحنا فى استبعاد إجابات عديدة خاطئة. وربما نكون فى الوقت الحاضر أقرب كثيراً للحقيقة، عما كنا عليه من قبل، ولكن لا تدع هذا يخدعك ويدفعك إلى سلامة الطوية.

فليس مستحيلاً أن تفاصيل الحلول الموصوفة فيما بعد، سوف تلحق بالجهود الفاشلة التى تمت فى الماضى. وعلى الرغم من هذا، فإننا سوف نناقش رأى القائل بأن بعض الأفكار العامة المتضمنة فى تلك الحلول، سوف تشكل - على الأرجح - جزءاً من الحل الكبير، وذلك إذا توصلنا إليه فى أى وقت.

وفى البداية، أود أن أشعرك بمدى الصعوبة والتأثير العميق لهذه المشكلة الملحة، بتقديم خمسة أسباب تؤكد بأن المجرات لا يمكن أن توجد. وسوف يمنحنا ذلك أيضاً

(١) المذهب القائل بأن المعرفة المطلقة تكون مستحيلة وغير مؤكدة. (المترجم)

الفرصة لكي نتجول خلال "معرض روج"^(١) للأفكار الفاشلة، أى تلك الآراء التى لم تؤت ثماراً. وسيتربنا هذا بإحساس شديد بالاتضاع، ونحن نتفحص النظريات السائدة فى الوقت الحاضر.

السبب الأول: لا يمكن أن تكون المجرات قد تشكلت قبل تكوين الذرات

ربما نفكر فى الكون - خلال المراحل المبكرة من تمدد (هابل) - أنه يتكون من عنصرين: المادة والإشعاع، ورأينا فيما سبق، كيف أن المادة خضعت لسلسلة من التجمدات، بينما كانت تتحول تدريجياً إلى بنى أكثر وأكثر تعقيداً. وبينما كانت هذه التغيرات تستمر باطراد فى شكل المادة، حدثت تحولات جذرية فى الطريقة التى تتفاعل بها المادة مع الإشعاع. وهذا بدوره، يؤدي دوراً محورياً فى تشكيل المجرات.

إن الضوء والأنواع الأخرى من الإشعاع، تتفاعل مع الجسيمات الحرة المشحونة كهربياً من النوع الذى يوجد فى البلازما التى شكلت الكون قبل تكوين الذرات.

وبسبب هذا التفاعل، وعندما يتحرك الإشعاع عبر مثل هذه البلازما، فإنه يصطدم بالجسيمات، فترتد إلى الخلف باذلة ضغطاً، بنفس الطريقة تقريباً التى ترتد بها جزيئات الهواء عن جدار إطار العجلة المطاطي، لتحفظ به منفوخاً. وإذا حدث أن تكتللاً للمادة - فى حجم مجرة - حاول أن يتشكل قبل تجميد الذرات، فإن الإشعاع المتدفق عبر المادة، سوف يمزق التكتل إرباً. وينفس الفكرة، يميل الإشعاع إلى الاحتجاز داخل المادة. وإذا حاول الخروج، فسوف يعانى من الاصطدامات، ومن ثم يرتد إلى الخلف.

(١) مسألة عرض لجموعة من صور المجرمين والمشتبه فيهم، من مقتنيات الشرطة، يتم الاحتفاظ بها لأغراض إثبات الهوية ودليل للإدانة. (المترجم)

وتكمن أهمية هذه العبارة، بأنه من الصعب المبالغة فى تقديرها. إذ إن ما تعنيه - فى واقع الأمر - أنه ما دامت المادة تبقى فى حالة بلازما (أى ما دامت الذرات لم تتجمد بعد)، فلا يمكن أن تكون المجرات قد تشكلت أو حتى بدأت فى التشكل. وتبع هذا فترة محدودة، بدأت قبل هذا التاريخ بحوالى مائة ألف سنة، عندما حدث أول تشكيل للمجرات. وقبل ذلك الوقت، كان التفاعل بين المادة والإشعاع، سوف يمنع أى شىء، مثل كوننا المعاصر، من التشكل.

وبعد تكون الذرات، تغير الموقف بشكل واضح. والحقيقة الدامغة هنا، أن الإشعاع لم يتفاعل بنفس القوة مع الذرات، كما حدث مع الجسيمات المشحونة فى البلازما. فإذا وقفت على قمة جبل أو أعلى مبنى مرتفع، وتطلعت إلى ما يحيط بك من مشاهد طبيعية، فإنك - على سبيل المثال - ستتمكن من رؤية علامات بارزة مميزة لتضاريس الأرض، على بعد خمسين ميلاً أو حتى مائة ميل. وفى بعض المناطق، مثل قمم الجبال التى تنتصب عالياً فى الهواء الرائق فى غرب الولايات المتحدة، يمكنك أن ترى معالم على بعد أكبر.

والآن، وقبل أن ترى هذه المعالم، من الضروري أن الضوء يجب أن يرتحل من الشىء الذى تراه، إلى عينيك. إذن الخبرة البسيطة لرؤية طريق طويل ممتد، تخبرنا أن الضوء يمكنه أن ينطلق لمسافات طويلة، خلال الهواء، دون أن يتشتت أو يشوش. ولا يمكن حدوث ذلك فى البلازما. إن ذلك يحدث فى الهواء الذى يتكون من ذرات وجزيئات، يُظهر أن التفاعل بين الضوء وهذين الشكلين من المادة، لا بد أن يكون مختلفاً تمام الاختلاف.

فى ذلك الوقت، عندما كان الكون فى مرحلة مبكرة من تطوره، جرت الأحداث فى تسلسل مثل هذا. حتى معلّم^(١) الـ ١٠,٠٠٠ سنة تقريباً، كانت المادة فى شكل بلازما،

(١) علامة بارزة مميزة. (المترجم)

ولم يكن من الممكن تشكل أى أجرام فضائية فى حجم مجرة. وعند المئة ألف سنة، بدأت الذرات الظهور وبدأ يضعف التفاعل بين الضوء والمادة.

ولم يحدث تكوين الذرات فجائياً، بل استمر لما يقرب من مليون سنة. وبين هذين الزمنين انتقلت بنية الكون - تدريجياً - من البلازما إلى الذرات، وفى الوقت الذى انتهى فيه هذا الانتقال، تبقت بعض الجسيمات الحرة المشحونة كهربياً. وكانت الذرات هى الشكل السائد من المادة.

وبين الحين والآخر - أثناء تكوين الذرات - انخفضت قوة التفاعلات بين المادة والإشعاع، إلى الحد أن الإشعاع لم يعد محبوساً داخل البلازما. ومن ثم، تدفق الإشعاع حرراً، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، كان له تأثير بسيط على عملية تشكيل المجرات. وباستخدام مصطلحات علماء الكون، نقول بأنه خلال تكوين الذرات، فك الإشعاع تقارنه^(١) بالمادة .

وعلى الرغم من أن فك التقارن كان تدريجياً، فإننى بين فترة وأخرى متباعدة، سوف أشير إلى هذه العملية على نحو طليق. سأحدث عنها على أساس أنها حدثت خلال الـ ٥٠٠,٠٠٠ سنة، وبهذا رقم تقريبي، ويمثل - إلى حد ما - منتصف الطريق إلى تجميد الذرات. وسوف يكون هذا كمرجع مختصر، ويجب ألا يعنى أن الكون كان معتماً إلى أن أصبح عمره ٥٠٠,٠٠٠ سنة، ثم صار شفافاً بعد الـ ٥٠٠,٠٠٠ سنة بثانية واحدة!

وقد توصلت إلى مثال مفيد، للمساعدة فى تكوين صورة ذهنية، لعملية فك التقارن. عندما يقدم إليك مشروب مثل الشاي المثلج، فى كوب زجاجى طويل، لاحظ ما الذى يحدث عندما تضع السكر وتحركه. فى البداية، سوف يصبح المشروب معتماً، ذلك

(١) التقارن: ما يحدث بين الأشياء من تأثير بعضها فى الآخر. (المترجم)

أنه فى تلك المرحلة، يكون السكر فى شكل مكعبات كبيرة نسبياً، تشتت الضوء بفاعلية. وأنت تعلم أن التشتت فعال، لأن الضوء لا يستطيع تخطى الشئ. بطول كل الكوب، بيد أنه - بدلاً من ذلك - يتشتت. إن الذى يعطى الشئ مظهره الغائم، ذلك الضوء الذى ينتشر داخله باتجاهات عشوائية مختلفة. وفى هذه الحالة يشبه الشئ - مع الفارق - الكون قبل تكون الذرات، عندما كان الإشعاع يتفاعل مع البلازما. وبعد عدة لحظات، يصبح الشئ فجأة شفافاً من جديد.

وما حدث هو أن السكر ذاب فى الشئ، والآن يوجد فى شكل جزيئات تتفاعل بضعف مع الضوء. وأصبح الضوء يأتى خلال الشئ دون أن يتشتت، فيذهب التغير. وهذا التغير من التغير إلى الشفافية فى كوب الشئ، يشبه ما حدث فى الكون، عندما تشكلت الذرات. وأصبح الكون شفافاً، عندما فك تقارن الإشعاع، ولم يتبق شئ ليقاوم قوة الجاذبية، التى تجمع المادة معاً.

وهكذا يمنع التفاعل بين الإشعاع والمادة، بداية عمليات تؤدى إلى تشكيل المجرات، قبل أن يبلغ الكون من العمر ٥٠٠,٠٠٠ سنة، ويصبح ذلك مشكلة أساسية لأن..

السبب الثانى: لم يكن لدى المجرات الوقت الكافى لتشكيل

الجاذبية، هى أكبر قوة تفقد الكون استقراره وتوازنه، وهى لا تترك شيئاً على حاله بل تعمل دائماً بنشاط وفاعلية، تحاول أن تجذب كتلا من المادة معاً. وبشكل ما، فإنه يمكن النظر إلى تاريخ الكون برمته، على أنه محاولة يائسة وعيشية وغير مجدية مطلقاً - فى مآل الأمر - للتغلب على الجاذبية. وسيكون من المذهل حقاً، أن نعتزف بقوة الجاذبية الكونية، إذا لم تكن قد أدت دوراً رئيسياً فى تشكيل المجرات.

افترض أن الكون قد بدأ بتجميع على نسق واحد. لكتل متراسة من المادة، ولا يوجد موقع فيه به تركيز أكبر للمادة، أكثر من أى موقع آخر. فى هذه الحالة، يمكنك أن تتوقع أن قوة الجاذبية تعمل على جذب كل شىء فى الكون معاً، إلى شمس مركزية محال وجودها. يمكنك أن تعتقد ذلك، ولكنك ستكون مخطئاً، إذ لا يكون هذا متسقاً مع الحقيقة والواقع.

وتكمن المشكلة فى أن أى تركيز للمادة، مهما كانت موزعة بطريقة متماثلة، سوف توجد بها تجمعات ضئيلة فى مكان ما حتى لو استخدمنا الفحص المجهرى للبحث عنها، إذ سوف ينتج عن الحركة العشوائية للذرات - فى نهاية الأمر - وجود حالة من عدم التماثل فى الكون، تؤدي إلى تكوين فائض صغير من الذرات فى بعض المواضع، ونقص ضئيل فى مواضع أخرى.

وليس من الصعب تصور ما يحدث بعد ذلك، ففي لحظة معينة، تتراكم كمية إضافية من المادة فى مكان ما، إما بسبب حركة الذرات أو لسبب آخر. ويؤدي التكس الزائد للمادة فى هذا الموضع، إلى أن تكون قوة الجاذبية فيه أشد من المواضع الأخرى المحيطة. وبالتالي، سوف تجذب كتلة أكثر إلى الموضع الذى حدث فيه التركيز الأسمى للمادة. ومع انجذاب المزيد من الكتلة، يصبح التركيز قادراً على ممارسة قوة تجاذبية أكبر، وسحب المزيد من المادة إليه، ويغض النظر عن التوزيع المائل الأولى، فإنه ما إن يتشكل أصغر تركيز للمادة، حتى تتحطم الكتلة الخفيفة إلى أجزاء أصغر، ويلتصق كل منها بأحد تركيزات الكتلة الأساسية. وعدم الاستقرار هذا المتأصل فى كتلة من المادة، قد أشار إليه - فى العشرينيات من القرن العشرين - الفيزيائى الفلكى البريطانى سير (جيمس جينز)^(١).

(١) (١٨٧٧ - ١٩٤٦)، عالم شهير عمل فى مجالات الفيزياء والفلك والرياضيات. (الترجم)

وللهواة الأولى، يبدو هذا كبارقة أمل. إن الكون يجب أن يفتت إلى وحدات صغيرة من كتل المادة، وبالمصادفة وبضربة حظ، يمكن أن تتحول هذه الوحدات الصغيرة إلى مجرات. ويحدث لها هذا التحول، على الرغم من أننا تحدثنا فقط عن كون لا يتمدد، والنتيجة التي توصل إليها جينز حقيقية أيضاً، حتى لو كان هناك تمعداً للكون. بيد أن المشكلة ليست بهذه البساطة، إذ إن نفس النظرية التي تخبرنا أن التوزيع المتماثل للمادة، غير مستقر في حالة وجود هذا التفتت إلى كتل صغيرة، تبليغنا أيضاً عن المدى الزمني الذي سوف تستغرقه هذه العملية.

ويمكن تلخيص هذا الأمر فيما يلي: هل يمكن لقوى الجاذبية أن تعمل بالسرعة الكافية، بعد حدوث فك التقارن، لتجميع المادة في كتل بحجم المجرات، قبل أن يجعل تمعد الكون كل شيء خارج السيطرة؟ ولعل واحدة من الصدمات الكبرى لمجتمع علماء الفلك، في الثلاثينيات من القرن العشرين، هي أن الإجابة الكبرى المدوية لهذا السؤال، النفي بكلمة "لا". وفيما يبدو أن أكثر آلية مرجحة لتشكيل المجرات - تلك الآلية المصاحبة لعدم الاستقرار التجاذبي، والتي شرحناها للتو - سوف لا تعمل مع كون يتمدد. وربما أن هذه الحقيقة هي التي قادت (جينز) - عندما تقدم به العمر - ليقترح كوناً خلقت فيه المادة باستمرار في الفراغات التي تخلفت عن التمدد المجري. وفي هذه الرؤية، فإن تشكيل المجرات عملية متواصلة، وليست مقتصرة على زمن معين من تاريخ الكون.

وأطلق على هذا الرأي فيما بعد "الكون المستقر"، وفي نهاية الأمر، أهمل بعد تجميع الدليل الدامغ والمقنع، الذي يدعم نظرية الانفجار الأعظم (انظر الفصل الثالث).

وهكذا يمكن تلخيص مشكلة تشكيل المجرات، كما يلي: لا يمكن أن تبدأ المجرات في التشكل، إلا بعد أن فك تقارن الإشعاع والمادة. ومع هذا، إذا كانت الآلية الوحيدة التي تتوفر لنا هي الاختلالات التجاذبية من النوع الذي قال به (جينز)، فإن كل المادة سوف تخرج عن المجال الذي يحدث فيه أي نشاط، قبل أن يتمكن أي شيء - مثل

الكتل المجرية الحالية - من التجمع. وثمة رؤية ضيقة للزمن بين فك التقارن والنقطة التي تكون فيها المادة منتشرة في الكون على نحو رقيق غير كثيف للغاية، وأى آلية لتشكيل المجرات يمكننا قبولها، يجب أن تعمل بسرعة كافية حتى تتناغم مع تلك الرؤية الضيقة للزمن.

وهناك طريقة واحدة تفرض نفسها للوصول إلى حل. إذا لم نتمكن من الانتظار حتى تتكدس التركيزات الذرية، وإذا استطعنا إيجاد طريقة ما لنعطى الانهيار التجاذبي، دفعة البداية، فربما نكون قادرين على ضغط تشكيل المجرات، ليحدث في الوقت المخصص. وثمة طريقة واحدة ممكنة لحدوث ذلك هو الحصول على تركيزات الكتل التي تكونت ببعض العمليات الفيزيائية الأخرى، مثل الاضطرابات في سحب الغاز الكونية، بعد تكوين الذرات. ولكن للأسف يقودنا هذا الاتجاه في المناقشة إلى.....

السبب الثالث: لن تعمل الاضطرابات أيضاً

إن دفعة البداية عبر الاضطرابات، فكرة بسيطة، تتضمن الرؤى الأولى، التي تم الإعلان عنها في نحو العام ١٩٥٠، وكان نص الافتراض كما يلي: أى عملية كونية فى عنفها واضطرابها مثل المراحل المبكرة من الانفجار الأعظم، لن ينجم عنها توزيع متماثل للمادة. ولن يكون الانفجار الأعظم مثل النهر العميق والساكن، ولكن مثل أنهار الجبال سريعة الجريان التي تمتلئ بالزبد والاضطراب. وفى هذا التدفق المضطرب، نتوقع وجود دوامات ودورات وزوابع من الغازات. وفى تلك النظرية، تكون الدوامة - فى واقع الأمر - تركيز من المادة من النوع الذى قال به (جينز)، تجذب إليها المادة المحيطة بها، بسبب قوتها التجاذبية. وإذا كانت الدوامة بالحجم المناسب، فيمكنها أن تجذب كتلة فى حجم مجرة، قبل أن تجد الفرصة لكى تنتشت، وهنا تصبح هذه المادة ضخمة بدرجة كافية، حتى تكون متماسكة بقوة الجاذبية، بعد انتهاء الدوامة الكونية.

هذا شيء رائع، بيد أن هناك بعض الصعوبات التي تواجهنا. فى المقام الأول، إن الدوامة التي تتكون قبل علامة الـ ٥٠٠,٠٠٠ سنة، مازالت تركيزاً للكتلة، ومثل كل تركيزات المادة الأخرى، سوف تتمزق إرباً بتأثير الضغط الإشعاعى المروع.

وبالتالى، فإن الدوامات الكونية الهائلة، التي تعمل كنوى تكاثف للمجرات، يجب أن تبرز إلى الوجود، بعد ظهور الذرات. ومعنى ذلك أن الدوامات الكونية التي تشكلت بعد التجميد الذرى مباشرة، هى تلك التي - على الأرجح - أدت إلى تكوين المجرات، لأنها الوحيدة التي كان لها الوقت الكافى لتجميع المادة معاً. وإذا كانت هذه الدوامات بالحجم المناسب، فإنها تستطيع - بلا ريب - أن تنتج المجرات التي نرصدها فى الوقت الحاضر. ويمكننا - ببساطة - أن نفترض أن هذه الدوامات كانت فى حجم المجرات (أو قريبة من حجمها)، عندما وجدت فى وقت تفتت التجمد.

بيد أن هذا الرأى يثير نقطة فلسفية مربكة. إننا يمكن أن نتطلع إلى المجرات التي نراها، ونتخيل شكلها فى الزمن الموهل فى القدم، ولنفترض وجود مجموعة من الدوامات الكونية العنيفة التي سوف تنتج هذه المجرات. إن هذه الصورة الذهنية لن تحل المشكلة، بل إنها تصيغ السؤال القديم بشكل مختلف، دافعة إياه إلى الوراء خطوة واحدة، وبدلاً من السؤال "لماذا تكون المجرات كما هى الآن؟" نوجه السؤال "لماذا كانت الدوامات الكونية بهذا الشكل فى الزمن الغابر؟ وهذا ليس تقدماً كبيراً، أليس كذلك؟

وعلى أية حال، فإن فكرة استخدام الاضطراب الكونى كسبب لبدء تشكيل المجرات، لم تلق نجاحاً على الإطلاق إذ إن مدى عمر الدوامات الكونية - أى استمرارية وجودها فى حركة دورانية ملتوية - ليس طويلاً بما يكفى لإنتاج أنواع المجرات التي نرصدها فى الوقت الحاضر. وأهمل العلماء هذه الفكرة لتفسير تشكيل المجرات، فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين.

السبب الرابع: لم يكن لدى المجرات الوقت الكافى لتشكيل العناقيد المجرية

ولعلنا نواجه صعوبات فى بحثنا، لأننا ننظر إلى مشكلة تكوين المجرات، نظرة ضيقة محدودة. وربما الأجدر بنا أن نبحث الأمور على مستوى أوسع، ونأمل فهم كيفية تشكيل عناقيد المجرات، أما نشوء المجرات الفردية فسوف تعتنى بنفسها. وتؤدى بنا هذه الفكرة - بطبيعة الحال - إلى السؤال المطروح عن كيفية تشكل التراكيزات الهائلة للكتلة فى الحياة المبكرة للكون. وإحدى أبسط الأفكار عن الشكل الذى ربما كان يتخذه الكون، عند تكون الذرات، أنه بصرف النظر عن الأحداث الكونية الأخرى التى تجرى، فإن درجة الحرارة كانت متماثلة فى كل مكان. ويطلق على هذا النموذج المتحارب^(١). ويتناغم هذا مع الافتراض بأن الإشعاع فى الكون المبكر كان منتشرًا بتمثال، سواء كانت المادة متكتلة معاً أم لا؟^(٢).

وإذا بحثت فى النتائج الرياضية للنموذج المتحارب، لوجدت أن أنواع تراكيزات الكتلة، التى تكون قد تشكلت فى الكون المبكر، يمكن شرحها بغاية السهولة. إذ مع انتشار درجة الحرارة فى كل أرجاء الكون، سوف تنتج التذبذبات العشوائية العادية، تراكيزات للكتلة من كل الأحجام، فإذا أردت إيجاد تركيز بحجم كوكب، سوف تجده دون عناء، وكذلك بحجم مجرة وعنقود مجرى، وهلم جرا. وفى اللغة الاصطلاحية لعالم الفيزياء الفلكية، سوف تظهر تراكيزات الكتلة على كل المستويات.

وفى هذا النموذج، ثمة حل بسيط محدد، لحل مشكلة المجرات، ذلك أن أصغر تراكيزات الكتلة، تنمو بسرعة أكبر من تلك التى لها حجوم كبيرة، وأول أشياء سوف تنمو ستكون الأشياء الصغيرة نسبياً، والتى يطلق عليها "المجرات الأولية"، وربما

(١) متساوى الحرارة. (المترجم)

(٢) إن العلاقة بين الحرارة الثابتة والتوزيع المتماثل للإشعاع، قد لا تكون واضحة، وسوف تأخذ وقتاً طويلاً لإثباتها. أرجو أن تأخذها الآن كأمر مسلم به. (المترجم)

تحتوى كل منها على حوالى مليون نجم. وهذه المجرات الأولية سوف تتكتل فيما بعد، بتأثير الجاذبية، لتشكيل مجرات مكتملة النمو، التى سوف تتكتل معاً بدورها، لتكوين العناقيد المجرية والعناقيد المجرية الفائقة. وهذا النموذج، يبنى نفسه من أسفل إلى أعلى". والعقبة الوحيدة هنا - ببساطة - أنه لم يتوفر الوقت الكافى لاتحاد المجرات مع بعضها، تحت تأثير الجاذبية، منذ لحظة الخلق. ومع هذا، وكما سوف نرى بالتفصيل فى الفصل الخامس، أن هناك بعضاً من تجمعات المجرات فى السماء، بالغة الضخامة والتعقيد. وهذا يدفعنا إلى الاستنتاج، بأن الكون، لم تكن درجة حرارته متماثلة خلال كل أجزائه، عندما حدث فك التقارن.

والجدالة التى طرحناها للتو، لا تعنى على الإطلاق، أنها ضد وجود المجرات. ولكنها تظهر فقط، أن المجرات لا يمكن أن توجد، إذا افترضنا أن الإشعاع كان موزعاً بتمائل فى الكون المبكر. وهذا الافتراض - على الرغم من أنه منطقى بقدر كاف فإنه ليس محفوراً كالوصايا العشر، فوق ألواح حجرية^(١). وحيث إنه أثبت فشله فى التطبيق، إذن، فإننا أحرار دائماً، لتجربة شئ آخر، على سبيل المثال، الافتراض بأن الإشعاع لم يكن موزعاً على نسق واحد فى الكون المبكر. وإذا واصلنا بحثنا فى هذا المجال، فإننا سوف نرتطم ب.....

السبب الخامس: لو أن الإشعاع يتكتل مع المادة، والمادة تتكتل فى المجرات فيكون إذن الإشعاع الكونى للموجات الدقيقة غير صحيح.

إذا لم يكن الإشعاع قد انتشر بشكل متماثل، مستقلاً عن المادة فى الكون، أين كان يمكن أن يوجد؟ ويتبع الأساليب النموذجية للفيزيائيين النظريين، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الافتراض العكسى، سوف نفترض أنه فى الكون المبكر، أن المادة

(١) يقصد المؤلف أن هذا الرأى ليس منزهاً عن النقد. (المترجم)

والإشعاع مندمجان معاً، إذا كان الوضع هكذا، ففي حالة وجود تركيز للكتلة، سوف يكون بالتالي تركيزاً للإشعاع. وفي اللغة الاصطلاحية للفيزياء، فإن هذا يسمى وضعاً "أدياباتياً"^(١)، الذي سوف ينشأ مع التغيرات في توزيعات الغاز، وستكون سريعة للغاية، إلى الحد أن الطاقة لا تتمكن من الانتقال بسهولة من إحدى النقاط إلى النقطة التي تليها. إننا نعرف أنه لكي نشكل مجرة، فلا بد أن تكون المادة في الكون، مقسمة بشكل واضح إلى كتل، عندما تكونت الذرات، وإننا نطلق على هذا "تعطى العملية إشارة تشغيل البداية". والنتيجة الطبيعية الضرورية، هي أنه تحت ظروف الأديباتية السائدة، لابد أن الإشعاع أخذ يتكتل أيضاً. بيد أن هذه النتيجة تتحدى إحدى الحقائق الثابتة للكون الذي نعرفه. وإذا تطلعت إلى إشعاع الموجات الدقيقة (انظر الفصل الثالث)، الذي يتدفق إلينا من القطب الشمالى للأرض، ثم استدر وأنظر إلى الإشعاع يأتى من اتجاه القطب الجنوبى، سوف تلاحظ أنهما متطابقان إلى حد كبير. وفي الحقيقة، إنك بغض النظر عن الاتجاه الذى توجه نظرك إليه فى السماء، فإن إشعاع الموجات الدقيقة الخلفية للكون، يجرى لنا متماثلاً من كل الاتجاهات فى السماء. وهذه العبارة صحيحة "بدقة تبلغ واحداً فى الألف. ومن هذا التماثل، نستنتج أنه عندما فك الإشعاع تقارنه بالمادة، لا بد أنه كان موزعاً بطريقة متماثلة تماماً فى كل أرجاء الكون. والمحصلة النهائية هي: أن ما هو مطلوب من إشعاع الموجات الدقيقة الخلفية للكون، فيما يتعلق بعملية تشكيل المجرات، وما نلاحظه من تماثلها، يتعارضان تماماً فيما بينهما إذ يتطلب المذكور أولاً أن يكون الإشعاع متجمعاً مع المادة، فإذا كانت المادة متكتلة عندما تكونت الذرات، كان لابد من آثار لهذا التكتل فى إشعاع الموجات الدقيقة الخلفية للكون، فى الوقت الحاضر. ومن ناحية أخرى، فإن التماثل الملاحظ لإشعاع الموجات الدقيقة الخلفية للكون، يدل ضمناً على أن الإشعاع من المستحيل أنه

(١) Adiabatic، أى ثابت الحرارة، ومعنى صفة تطلق على كل عملية تحدث فى نظام حرارى، لا يصاحبها فقد أو كسب حرارة. (الترجم)

كان متكتلاً بشكل كامل، وإلا ما أصبح متماثلاً فى أيامنا هذه. وعندما تجرى الحسابات الرقمية، يجد علماء الفيزياء الفلكية، أنه من المستحيل التوفيق بين هذين المتطلبين المتعارضين. إذن لا يمكن لإشعاع الموجات الدقيقة الخلفية للكون أن يكون متماثلاً وغير متماثل فى نفس الوقت.

وماذا بعد؟

إن المنطق المستخدم فيما سبق، فى التفكير والمناقشة، يؤكد - بما لا يدع مجالاً للشك ويوضح تام - أننا لا نستطيع أن نأخذ كوناً يمتلئ بالمجرات كأمر مسلم به، وأسهبنا فى شرح أن الكون كان أكثر تعقيداً مما تصور أى شخص، عاش فى زمن (هابل). بيد أن تفحصنا للنظريات التى لم يصادفها النجاح، أظهرت أيضاً بعض العناصر التى يجب أن تشملها أى نظرية صحيحة عن تشكيل المجرات.

إننا نعرف أنه إذا كان على المجرات الانتظار، إلى ما بعد فك تقارن الإشعاع، حتى تبدأ فى التشكل، لما استطاعت تحقيق ذلك أبداً. إن التقلص التجاذبى من توزيع متماثل للمادة، يكون بطيئاً للغاية ليقاوم بمفعول مضاد تمدد الكون الذى قال به (هابل). وبالتالي، فإن الكون - بعد فك التقارن - تكون مجراته بالفعل قد قطعت شوطاً طويلاً، فى طريقها إلى استكمال تشكيلها. ولا تحتاج المجرات أن يكون تشكيلها مسبقاً، ولكن على أقل تقدير، فإن الكون يجب أن تغرس به بذور ويدعم، بنوع من تركيزات الكتلة التى يمكنها أن تطلق عملية التقلص التجاذبى. وسوف تعمل هذه التركيزات - بلا ريب - مثل هبامات الغبار التى تعمل كنوى تتشكل حولها قطرات المطر فى الجو. إن تلك التركيزات للكتلة سوف تكون بمثابة النوى المتكثفة للمجرات.

وإذا كانت هذه النوى فى المكان المناسب عند الاحتياج لها، فلا بد أنها تكونت فى موضع ما مبكراً فى تاريخ الانفجار الأعظم وبقيت على قيد الحياة حتى علامة

الـ ٥٠٠,٠٠٠ سنة. ومن المناقشة فى صفحة ٥٦ (السبب الأول)، نعرف أن التركيزات العادية للمادة، لا يمكنها أن تقوم بهذا. إذا كانت قد تمرزت إرثياً بتأثير ضغط الإشعاع المروع، قبل زمن طويل من تمكنها من العمل كنواة متكتفة لمجرة. وأياً كانت "البذرة" التى نشأت مبكراً، كان لابد لها أن تقاوم احتدام الإشعاع وضغطه المروع، لمدة طويلة. ومن ثم، يجب أن تكون "بنور" المجرات مكونة من نوع من المادة، التى لا تتفاعل بقوة مع الإشعاع. إن هذه تنويه عن الكون، كما سنرى فى الفصل السابع، التى زودتنا ببعض الأمل، بأننا ستمكن من تلمس طريقنا خارج ذلك النوع من العضلات التى فى مناقشتها.

ومع ذلك، وقبل أن نتوجه إلى هذا التساؤل، يجب أن نلاحظ أن السببين الرابع والخامس، اقترحا بقوة، أن مشكلة المجرات هى فى حقيقة الأمر، جزء يسير من تساؤل أكبر، يتعلق بالبنية الشاملة للكون. وقبل أن نستطرد فى بحثنا، ونأمل الحلول الحديثة للتساؤل، ثم سوف نستغرق بعض الوقت لمناقشة - بشئ من تفصيل أكثر - الطريقة التى تنتظم بها المجرات فى السماء.

الفصل الخامس

فقايع وعناقيد مجرية فائقة

وأدركت أن حياتي كانت فاشلة

عندما أخذت ألاحظ بانتباه الفقايع في كأس الجمعة.

(أغنية شعبية غربية)

يعرض بمعهد الفن في شيكاغو مجموعة من لوحات فرنسية تنتمي لأواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وتعد إحدى أفضل المجموعات في العالم لهذه الفترة من الزمن، وقد اقتنيت خلال الوقت التي كانت فيه مدينة شيكاغو بحق، كما يقال عنها "مركز صناعة تعبئة اللحوم وتغليفها، كما تشتهر بخطوط السكك الحديدية التي تعد الأفضل في كل الولايات المتحدة".

ومن بين أشهر تلك اللوحات الفرنسية، تلك اللوحة الكبيرة المرسومة على الكنف^(١) للفنان الفرنسي (جورج سورا)^(٢). وعنوانها الرسمي "البحيرة الكبرى"، ولكنها معروفة بين العامة باسم "بعد ظهر يوم أحد في المنتزه العام".

(١) قماش غليظ من القطن أو الكتان معد للرسم الزيتي. (المترجم)

(٢) (١٨٥٩ - ١٨٩١) من كبار الرسامين الفرنسيين. (المترجم)

وتظهر مجموعة من الباريسييين يتجولون فى منتزه عام قريباً من نهر السين. وبلغ من روعة اللوحة، أنها أصبحت إلهاماً لأحد عروض برودواى أطلق عليه "يوم أحد فى المنتزه العام مع (جورج)". واستخدم الفنان (سورا) تقنية فى الرسم لم تكن مألوفة فى عصره. فبدلاً من جر فرشاته على الكتفا بالطريقة التقليدية، عمد إلى لمس الكتفا فقط بطرف الفرشاة. وكانت النتيجة، رسم زيتى مكون من كمية هائلة من النقاط الصغيرة الملونة ويطلق على هذه الطريقة فى الرسم "التنقيطية"^(١).

ويسبب هذه التقنية فى الرسم، يكون النظر إلى اللوحة الفنية تجربة فريدة. وإذا تطلعت إلى اللوحة من بعيد، ترى ما الذى كان يعنيه الفنان، منظر المنتزه العام وما به من أشخاص يتمشون أو يجلسون. وإذا اقتربت من اللوحة، فإن المنظر يختفى وكل ما تراه مجرد مجموعة من النقاط الملونة المتناثرة فوق قماش الكتفا. وإن المشاهد الصقيلة والناعمة التى تتراعى لك عندما تنظر إلى اللوحة الكبيرة، تخفى بين طياتها التركيب الفعلى المنقط.

وتقدم لوحة (سورا) هذه، تشابهاً جزئياً بأحد أهم المفاهيم الباقية فى الذهن والتى تلقى تقديراً من الفلكيين، عن بنية الكون. ومضمون هذا المفهوم أننا إذا نظرنا إلى أحد المستويات الكبيرة بما يكفى، سوف نجد أن الكون صقيل وناعم وموحد كلياً فى البناء والتركيب. ومنذ عهد أينشتاين وما بعده، اعتبر ثقة علماء الكون أن هذه العبارة صحيحة.

ومع هذا، فإنه وفق الحقيقة والواقع، فإن الكون الذى نعرفه، متكتل^(٢). وتتألف مناطق الكون المجاورة لنا - فى معظمها - من فضاء فارغ، لا تقطعه إلا الشمس وكواكب وقطع الصخور التى نطلق عليها "الكويكبات". وإذا تطلعنا إلى العالم الخارجى، سوف نجد كوناً فيه الكتلة المرئية متجمعة فى مجرات تفصل بينها مسافات مروعة، وهذه المجرات نفسها، قد تجمعت فى عناقيد مجرية. ومهما حاولنا، فالأرجح

(١) مذهب فى الرسم يعتمد على التصوير بالنقاط الملونة. (المترجم)

(٢) مكس بالكتل. (المترجم)

أننا لن نجد طريقة لنحصل بها على مشهد من الضخامة بقدر كاف من الخلق، تمكننا من رؤية بنية بسيطة وصقيلة للكون. ويبدو أنه من المستحيل أن نبعد إلى حد كاف عن لوحة (سورا).

ويجد العلماء أن مجموعة العوامل والظروف، التي سادت في تلك الحقبة، مزعجة ومثيرة للقلق. وإننى دائماً مدرك بكثرة بتفضيل زملائي للرأى القائل، بتمائل الكون، ولكن حتى بدأت التخطيط لكتابة هذا المصنف، لم أعمل تفكيرى كثيراً فى الأسباب التي أدت بهم إلى اعتناق هذا الرأى، ولا أعتقد أن هذا الأمر مشابه للافتراض الذي جعل اليونانيين يفضلون فكرة أن الأرض مركز للكون. ويدرك العلماء - بكل تأكيد - وجود عدم التجانس فى الكون، إذ كان هناك، بل يتعاملون معه إذ لزم الأمر، وأعتقد أن ذلك ما يتمنون، فى قرارة أنفسهم وجوده، ويأثرون فى مستوى ما، سوف يختفى عدم التجانس من الكون، تماماً كما اختفت النقاط الملونة فى لوحة (سورا)، إذا ابتعدنا عنها بقدر كاف.

وجزاء من السبب الذي أدبى بالعلماء إلى الانخراط فى ذلك الاتجاه، له أصول تاريخية. لقد تطورت الفيزياء وعلم الفلك، بدراسة المنظومات المتجانسة، ولا ريب أن هذه الطريقة هى الأسهل فى التعامل معها. وحتى عندما تعامل العلماء مع منظومات مكونة من وحدات متمايزة مثل المجرات والذرات، فضلوا تجاهل الصعوبة التي تكتنف عدم التجانس، ومن ثم، تظاهروا بأن بنية الكون صقيلة وملساء، وهذه الطريقة فى التعامل مع الطبيعة لها ميزة واحدة هائلة: أنها تؤتى ثمارها. وإذا لم تنجح فى هذا، ما استطاع المهندسون ابتكار المحرك البخارى أو خط الأنابيب، قبل استكمال تطوير النظرية الذرية. ويمكننا عادة تجاهل حقيقة، أن المياه مكونة من ذرات، ونتعامل معها كما لو كانت وحدة متوالية، بحيث لا يمكن تمييز أى جزء منها عن الأجزاء المجاورة. وهذه الحقيقة محفورة فى ذهن كل طالب أو طالبة علوم، منذ بداية تعليمه (أو تعليمها)، ولا عجب - حينئذ - بأننا طورنا فى داخلنا شعوراً - على الرغم من أنه قد يكون

حينئذٍ للماضى - إلى الأيام التى كان فيها كل شىء صقيلاً وسلساً ومريحاً، ومن ثم فإننا نظل نأمل أن يكون كوننا - فى نهاية الأمر - متناغماً مع هذا الإطار المكثف لنا. واستمر هذا التفضيل، بعد اكتشاف المجرات، وكان من الممكن دائماً الاعتقاد، بأننا مارلنا قريبين للغاية من المشهد الكونى. بيد أنه منذ السبعينيات من القرن العشرين، أصبح من الصعوبة - التى تتزايد عبر الأيام - أن نظل نتمسك بذلك الاعتقاد الذى لا يقدم على دليل منطقى أو مادى. إذ عندما نتطلع إلى الكون على مستويات ضخمة واسعة النطاق وشاملة، نفشل فى مشاهدة منظومة كونية، تزداد بساطتها على مر الزمان. وفى حقيقة الأمر، إننا نرى كوناً، يبدو أنه يظل معقداً، حتى فى أضخم المستويات التى يمكننا رصدها. وأدى اكتشافان إلى الدفع بذلك الرأى - بقوة - إلى بؤرة المجتمع العلمى: أولهما الاكتشاف الذى بدأ فى العام ١٩٧٨، لسلسلة من العناقيد المجرية الفائقة المروعة، والثانى كان فى العام ١٩٨١، باكتشاف الفراغات الكونية.

عناقيد مجرية وعناقيد مجرية فائقة

ألحنا بالفعل فيما سبق، إلى إحدى أهم السمات البنيوية للكون، وهى حقيقة أن المجرات ليست موزعة عشوائياً فى الفضاء، لكنها تتجمع معاً لتكون ما أطلق عليه "العناقيد المجرية". وأول دراسة جادة لهذه العناقيد أجراها الراحل (جورج أبيل)^(١) بمعهد كاليفورنيا للتقنية، فى العام ١٩٥٨. لقد عكف على دراسة ألواح فوتوغرافية التقطت فى مرصد (مونت بالومار)، واستطاع التعرف على ٢٧١٢ تجمعاً للمجرات التى يطلق عليها الآن "عناقيد أبيل المجرية". وهذه العناقيد هى تركيبات تشتمل على أعداد هائلة من المجرات، فى تقاربية وثيقة من بعضها.

(١) فلكى ويبحث فى جامعة كاليفورنيا (١٩٢٧ - ١٩٨٢). (المترجم)

وتتنظم أكثر من نصف كل المجرات فى الفضاء، فى عناقيد متباينة الأحجام. ومجرة الطريق اللبنى، هى جزء مما يطلق عليه الفلكيون "المجموعة المحلية".

وهذا العنقود المجرى تحديداً يتكون من الطريق اللبنى ومجرة "أندروميذا" (المرأة المسلسلة). وهما مجرتان هائلتان تؤديان دور مرساتين تجاذبيتين، بالإضافة إلى عشرين مجرة أخرى صغيرة - على الأقل - تجر معهما. ويقدر العلماء هذا التجمع كله، بنحو ثلاثة ملايين سنة ضوئية، من جانب إلى آخر. ويمقارنته بالعناقيد المجرية الأخرى، لا يعد هذا الرقم لافتاً للنظر، إذ إن بعض العناقيد الضخمة تحتوى على آلاف عديدة من المجرات.

اكتشاف بنية كونية ذات أبعاد مروعة

إن القصة التى سوف أحكيها فى هذا الجزء، يمكن تلخيصها بطريقة بالغة البساطة: تقريباً كل المادة المضيئة فى الكون - أى المادة التى يمكننا رؤيتها^(١) - تكمن فى العناقيد المجرية الفائقة. وتلك العناقيد المجرية الفائقة، مثل أوتار بالغة الطول تنتظم فيها مجموعات المجرات، وكأنها حبات من اللؤلؤ تصطف فى عقد، وقد أطلق اصطلاح "الفراغات" على المسافات المروعة، بين هذه العناقيد المجرية الفائقة، وتخلو تلك الفراغات - نسبياً - من المادة المضيئة، كما سوف نرى وشيكاً.

وقد بدأ الاعتقاد باحتمال وجود العناقيد المجرية الفائقة، بالعمل الذى قام به (جورج أبيل) والمذكور آنفاً. وعلى الرغم من أنها لم تكن مجال بحث أساسى، فقد شهدت الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين، تدفقاً وطيداً من المحاولات لاستخدام أسلوب ما، مثل تقنية (أبل)، لاستنباط البنية ذات المقياس المروع للكون. وفى

(١) المادة المرئية فى تلك المادة التى ينبعث منها الضوء أو الإشعاع الكهرومغناطيسى. (المترجم)

العام ١٩٦٧، نشر (بونالد شين) و(كارل ورتانن) من مرصد (ليك) فى كاليفورنيا، فهرساً مفصلاً يتضمن مواقع مليون مجرة فى السماء، وكان هذا - حتى ذلك الوقت - مسحاً شاملاً لم يسبق له مثيل. وكان العالمان يؤديان عملهما المضىنى كلية بالعين المجردة، وقد تمكنا من تفحص وتحليل آلاف من الألواح الفوتوغرافية، وسجلا مواضع المجرات فوقها.

هب أنك كلفت بمهمة تفحص وتحليل خريطة شارع لكل مدينة كبيرة فى الولايات المتحدة، وطلب منك تسجيل أماكن كل التقاطعات الرئيسية بها، سوف تكون مهمتك الشاقة، متماثلة مع تلك التى أنجزها (شين) و(ورتانن).

ولا عجب أنهما استغرقا اثنى عشر عاماً لإتمام هذه المهمة البالغة الصعوبة!

ووفقاً للمعتقدات والأفكار المتعارف عليها فى علم الفلك، قاما بتطوير كل الطرق الممكنة لينجزا مهمتهما فى إحصاء المجرات، فى غمرة المهام الشاقة الأخرى. وكان (ورتانن) - باعتباره مدير مختبر - بمقدوره أن يكون قادراً على العمل فى تفحص وتحليل أحد الألواح الفوتوغرافية، بينما يجرى محادثات هاتفية طويلة حتى السام والمثل، مع مديرين ينعمون بمكاتب أنيقة فاخرة!

وباستخدام المسح الذى قام به (شين) و(ورتانن)، تمكن (ب.ج.أ. "جيم" بيبلز) ومعاونوه فى جامعة (برنستون) من تجميع خريطة كاملة للكون بأسره. وكان هذا أول تصور ذهنى شامل للكون، ومن ثم، فقد حازت تلك الخريطة على شعبية واسعة ورواجاً كبيراً. وظهرت فى كل أنواع الكتب الدراسية وفى لوحات ضخمة ملونة، وعلقت فى معظم الأقسام الفلكية بالولايات المتحدة، بل لقد تم تسويقها لتزين داخل وعاء للحساء! والرأى عندنا، أن الأمر البالغ التأثير فى الخريطة، الاعتقاد بأنها تظهر - بشكل أخاذ للفاية - البنية الخيطية والشبيهة بالنسيج المشبك للكون.

بيد أن المظهر قد يخدع. فعندما نشرت لأول مرة خريطة (بيبلز) الكاملة عن الكون. كانت هناك مناقشات ومجادلات عديدة، عن كيفية شرحها وتفسيرها. ما دامت

الألواح الفوتوغرافية، التي كانت مصدراً لها، تشتمل على صور للسماء ذات بعدين فقط، إذن فليست هناك ضمانات بأن تلك المجرات التي تبدو منتظمة على طول خيط رفيع ملفوف، هي في حقيقة الأمر، ترتبط مع بعضها. وربما كانت مواضعها لا تعدو أن تكون على طول نفس خط الرؤية^(١) من كوكب الأرض، ومن ثم، فهي - على غير ما هو مفترض في الخريطة - غير مرتبطة ببعضها.

وثمة حقيقة أخرى يجب التنويه عنها حول خريطة المليون مجرة، إنها تثقيفية بشكل واضح ومحددة، وتمس طبقة رقيقة ملساء، من العقل البشرى. لا تلقى إلا القليل من التقدير والامتنان، إن بصيرتنا وعقولنا - متقلبة بمهارة وبراءة - لرؤية نماذج في بيئتنا. وبالنسبة لأسلافنا الأوائل، الرئيسيات^(٢)، كان هذا النوع من المهارة، أساسياً لا غنى عنه لأداء بعض المهام اليومية، مثل البحث عن الفاكهة الصالحة للأكل، بين الأوراق المتشابكة للنباتات.

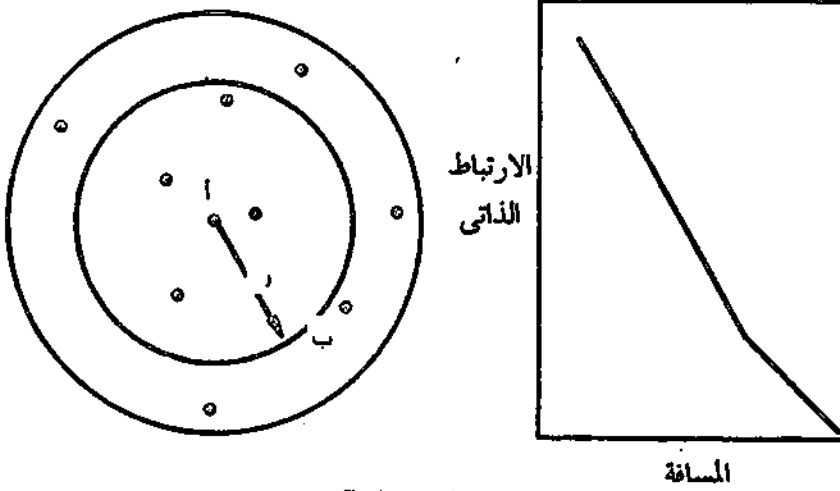
ولقد حملنا هذا الإرث معنا، في القدرة الرائعة للعقل البشرى، المتمثلة في تتبع واكتشاف النماذج في البيئة. ولم يبتكر حاسوب حتى الآن يماثل قدرة طفل في الثالثة من عمره، عندما يتعلق الأمر برؤية النماذج في بيئتنا. بأذهاننا إننا في الواقع، لدينا قدرة رائعة لإدراك النماذج، تلك التي نراها عادة بأذهاننا وحتى لو لم تكن هناك!

فكر في اختبار (رورشاخ)، الذي طوره علماء النفس ليعاونهم في دراساتهم المتعلقة بالشخصية الإنسانية، ويتكون هذا الاختبار من سلسلة من البطاقات الصغيرة، تظهر عليها بقع غير منتظمة من الحبر. وليس هناك نموذج جوهري في البقع، ولكنك إذا نظرت إليها، فسوف ترى أشياء متباينة. فعقل كل شخص يفرض بشكل إنزامي، نماذج الخاصة به على تلك البقع، وهذا ما يعطى الطبيب النفسى رؤية ثابتة للطريقة التي يعمل بها العقل. وعودة إلى خريطة المجرات، لكي نتساءل ما الذي نستفيد من

(١) خط وهمي من العين إلى الشيء المدرك بواسطة الحواس. (المترجم)

(٢) شبيهات الإنسان. (المترجم)

هذا النموذج الكوني، الذي يشبه النسيج المشبك؟ هل هو - في الحقيقة - موجود هناك في السماء، أم أن الكون قدّم لنا اختبار (رورشاخ) ولكن على مدى بالغ الضخامة؟ وهذا ليس سؤالاً فلسفياً مجرداً، ويمكن بالفعل الإجابة عنه بتطبيق بعض الإحصائيات شديدة البساطة. والمخطط مرسوم في (الشكل ١-٥) (إلى اليسار). ركز انتباهك على مجرة واحدة، مثل تلك التي معنونة أ ثم إحصِ كم عدد المجرات التي توجد على بعد أقل من المسافة ر، بعيداً عن أ. وفي الشكل، هناك أربع من هذه المجرات. ويمكنك أن تكرر ذلك الإحصاء لقيم متباينة للمسافة ر، ملقياً بشبكته إلى مدى أرحب، بينما تتوسع في إجراء هذا الإحصاء. وتمثل هذه العملية بالنواثر المتحدة المركز الموجودة في الشكل. وعندما تفرغ من تلك العملية للمجرة أ، حول اهتمامك إلى مجرة أخرى، مثل المعنونة ب، وكرر نفس الأداء. ولن تنتهي من هذه المهمة، حتى تعمل ذلك، لكل مجرة في المجموعة .



الشكل 5.1

وعندما تنتهي المهمة (لا حاجة بنا للقول، بأنها تؤدي بواسطة الحاسوب)، يكون لديك، ما يطلق عليه علماء الرياضيات، وظيفة الارتباط^(١) الذاتى. إنها تخبرك عن مدى احتمالية وجود مجرتين، ضمن مسافة معينة، تحدد بعد كل منهما عن الأخرى. ومن هذه الاحتمالية يمكنك أن تفسر وتشرح أهمية خريطة المجرات كما يلي: إذا كانت الاحتمالية كبيرة بالنسبة للقيم الصغيرة لـ r ، فهذا يعنى أن المجرات - على الأرجح - تبيض بالقرب من بعضها، ويكون هذا دليلاً على حدوث التجمع فى شكل عناقيد مجرية.

أما إذا لم تكن هناك قيمة معينة لـ r ، تكون لها احتمالية كبيرة وذات دلالة، أكثر من أى مجرة أخرى، يكون معنى ذلك أن المجرات سوف تتبعثر - بشكل أو آخر - عشوائياً عبر الفضاء، ومن ثم لن تتكون العناقيد المجرية.

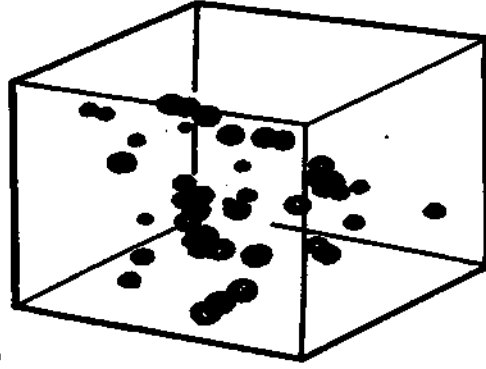
ويرسم بيانياً (شكل ١-٥) (إلى اليمين) وظيفة الارتباط الذاتى، لمخطط (شين - ورتانن). ويوضح هذا الرسم بجلاء الآثار المترتبة على تكوين العناقيد المجرية، إنها الأكبر بالنسبة للقيم الصغيرة لـ r . ما دام هذا الاختيار مستقلاً عن المدركات الحسية وقبل أن نستطرد فى البحث، يجب أن أشير إلى معركة كبرى اندلعت مؤخراً، حول جانب آخر من مسح (شين - ورتانن) للمجرات. وكانت الناقدة الرئيسية هى (مارجريت جيلر) من مركز (هارفارد - سيمثونيان) للفيزياء الفلكية، وتركزت مجادلاتها على الحقيقة التى مفادها أنه عندما قام (شين) و(ورتانن) بإجراء مسحهما للمجرات، قسما السماء إلى مربعات ثم وزعا هذه المربعات، بحيث يقوم كل منهما بتفحص عدد منها. وجهة نظر (مارجريت جيلر) تنحصر فى أنه إذا كان لدى أحد الباحثين معايير مختلفة عن الآخر، فيما يتعلق بتفسير وشرح الألواح الفوتوغرافية (فعلى سبيل المثال، قد

(١) قياس مدى تشابه متغيرين عشوائيين. (المترجم)

يتقبل أحدهما بقعة ضبابية معينة على أنها مجرة، بينما لا يتقبلها الباحث الآخر)، وسوف تكون النتيجة وجود نموذج من النقاط الفاتحة والداكنة فوق خريطة المجرات. ومثل هذا النموذج يمكنه بسهولة أن يظهر - على غير الحقيقة - أن بنية الكون خيطية.

وقد لجأ المدافعون عن خريطة المجرات، ومن أبرزهم (ب.ج.أ. بيلز)، إلى الرد على المعارضين بسلسلة من الحسابات المعقدة والتقنية إلى حد ما، ومن ثم بدا أن السؤال كله، غرق في لجة من الإحصائيات والرياضيات التي لا يهتم بها سوى الخبراء، ولقد ذكرت الصراع فقط للتأكيد على مدى الصعوبة التي تكتنف التوصل إلى إجابة نهائية للسؤال، الذي يتعلق بالبنية الكونية ذات المقياس المروع، باستخدام التقنيات الفوتوغرافية العادية. لعلم الفلك التقليدي. ويجب الاحتفاظ بهذا الأمر جيداً في ذهنك، حتى تقوم - فيما بعد في هذا الفصل - بتقديم فكرة مسح "الإزاحة نحو الأحمر". وكما سوف نرى وشيكاً، فإن مثل تلك المسوحات، تزودنا بمقياس أكثر وثوقية، عن الطريقة التي تتجمع بها المجرات في السماء. وثمة عدد كبير من مسوحات الإزاحة نحو الأحمر الرئيسية، أجريت منذ أواخر السبعينيات من القرن العشرين اكتشفت عشرات من بنى طويلة شبيهة بالأوتار، أطلق عليها "العناقيد المجرية الفائقة". وكان أكبر هذه الامتدادات، يمر عبر الكوكبتين (الجبار) و(الفرس الأعظم)، وهاتان الكوكبتان تميزان بالجلاء والوضوح في السماء ليلاً. خلال فصل الخريف وبداية فصل الشتاء. وهذا العنقود المجرى الفائق، هو أضخم بنية معروفة في الكون. وفي الرسم بالشكل ٢-٥، نظهر مخططاً لهذا العنقود المجرى الفائق، معتمدين على نموذج أبديع (دافيد باتوسكى)، عندما كان يعمل في جامعة (أريزونا). ويتكون هذا النموذج من ثلاثة وأربعين عنقوداً مجرياً، تنتظم معاً على خطين رفيعين ملفوفين ومتشعبين، ويحيط بهذين الخطين ذاتهما، مساحات هائلة فارغة، وهي التي نطلق عليها "الفراغات".

والرأى عندى أن أكثر الأشياء إثارة فى (الشكل ٢-٥)، ليست البنية الدقيقة للعنقود المجرى الفائق، ولكن الحجم النحيل والرقيق له. إنه يمتد لمسافة تبلغ بليون سنة ضوئية عبر السماء. وهذا جزء يمكن تقديره وقياسه واستيعابه، من الحجم الكلى للكون، وحيث إننا قد وجدنا بالفعل بنى بهذه الضخامة المروعة، فإن الأمر يبدو لى، أنه تنبؤ قوى، بأن الكون متكتل وخطى، حتى آخر الحدود التى يمكن أن تصل إليها أرصادتنا. ولا أرى إلا أملاً ضئيلاً، بأن التجانس سوف يوجد فجأة، عند قياسات مروعة تزيد على بليون سنة ضوئية.



الشكل 5.2

وأتساءل: هل العنقود المجرى الفائق بكوكبه الجبار وكوكبه الفرس الأعظم، أضخم بنية فى الكون؟ بالتأكيد هو الأضخم حسب إمكانيات أرصادتنا حتى الوقت الحاضر، ولكن على المرء أن يتذكر بأن كل المسوحات التى أجريت حتى الآن، قد اكتشفت أقل من واحد بالمائة من حجم الكون، فى نطاق بليون سنة ضوئية بعداً من كوكب الأرض، وبمعنى آخر، أقل من واحد بالمائة من حجم الكون الكلى الذى يمكن رصده، وسوف يكون من المذهل، أننا - فى حداثة مسوحاتنا المنهاجية للسماء - نعثرن على الفور بأضخم بنية فى الكون، وحتى النجاح بالصدفة يجب أن تكون له حدود، وهذا يعنى أننا نتوقع إيجاد بنى كونية أضخم، مع تعمق وتوسع أبحاثنا المستقبلية.

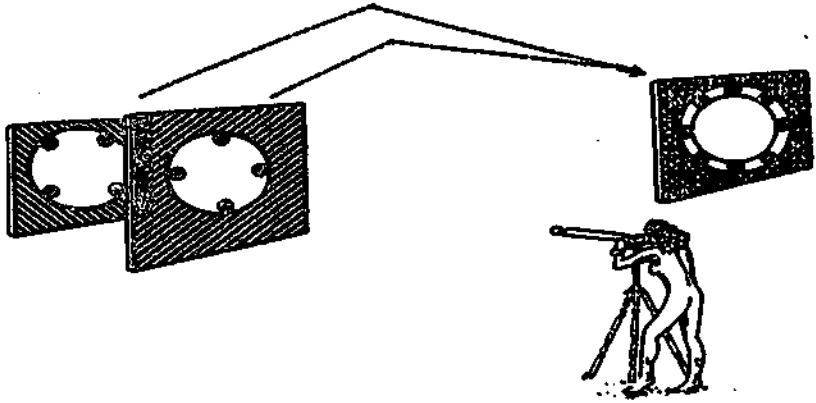
الفراغات

الفراغات هي تماماً ما يوحى به اسمها: مناطق هائلة من الفضاء، حيث لا توجد مجرات على الإطلاق أو يوجد قدر ضئيل منها. والفراغات ذات أبعاد مروعة، تصل أحياناً إلى مائتين وخمسين مليون سنة ضوئية، عرضاً، وتحت الظروف العادية، يتوقع المرء أن يجد أكثر من عشرة آلاف مجرة تقريباً، في مثل هذا الحجم. ومن ثم، فإن غياب هذه المجرات، أمر مثير للدهشة. وفي الواقع، فإن الدهشة الأكبر عن الفراغات، ليست في كيفية وجودها، بل السؤال الذي يتبادر للذهن، عن كيف أن وجودها استطاع مراوغة المجتمع الفلكي حتى عام ١٩٨١، عندما أعلن عن اكتشاف أول فراغ، في كوكبة "العواء"^(١) (راعى الماشية).

والإجابة عن هذه الأحجية، لها علاقة بالحقيقة الأساسية عن الطريقة التي يرصد بها الكون. فعندما نلتقط صورة للسماء أثناء الليل، من خلال تليسكوب، فإن ما نراه مشهداً ذا بعدين، ويظهر كل نجم ومجرة مثل نقطة مضيئة في الصورة، ناهيك عن بعدها. وكل ما يهم هو كمية الضوء التي تسقط فوق الصورة السلبية للفيلم^(٢).

وسوف يمكنك أن تفهم بيسر، مدى أهمية الوصف ذي البعدين لأرصادنا، إذا أخذت بعين الاعتبار الموقف الموضح في (الشكل ٣-٥). هب أن هناك مجموعتين من الأضواء في مكان ما، على سطح الأرض، وتفصل بين هاتين المجموعتين مسافة تقدر بغدة ياردات^(٣). وافترض أنك تقف على مسافة ما، من تلك الأضواء ومعك كاميرا. فما الذي سوف تظهره الصورة الملتقطة؟

(١) كوكبة "العواء" في نصف الكرة الشمالي على بعد نحو خمس وثلاثين سنة ضوئية من الأرض. (المترجم)
(٢) دعنى أضيف أنه على الرغم من استخدام مفردات ومصطلحات التصوير الضوئي، لكي أجعل الشرح أبسط في تفهمه، إذ إن معظم أرصاد التليسكوبات الرئيسية في هذه الأيام، لا تستخدم الصور الفوتوغرافية. وبدلاً من ذلك، فإنها تستخدم - منذ زمن طويل - منظومات إلكترونية شبيهة بكاميرات التلفاز. وهذا التباين التقني، لا يغير من جوهر المناقشة. (المؤلف)
(٣) الياردة تساوى واحد وتسعين سنتيمتراً. (المترجم)



الشكل 5.3

من الواضح، أنك ستري شيئاً يشبه ما هو مبين على يمين الصورة الإيضاحية. سوف يتداخل السطحان المستويان التي يشع عليهما الضوء، ومن ثم سوف ترى عرضاً وحيداً متسقاً، للضوئين في الصورة. ولن تكون هناك أية إشارة - أيًا كانت - لوجود فجوة بين السطحين المستويين، فإن الكاميرا سوف توحيهما عندما تلتقط الصورة. والطريقة الوحيدة لاكتشاف مثل هذه الفجوة، بالحصول على بعض المعلومات عن البعد الثالث - أي المسافة بين مجموعتي الضوء والكاميرا - في حالة الأضواء التي على سطح الأرض، فإن مثل هذه المعلومات قد يكون الحصول عليها صعباً، بيد أنه في حالة المجرات، فالأمر ليس كذلك.

في الفصل الثاني، رأينا أنه في تمدد للكون، كلما زاد بعد مجرة عنا، تزداد سرعة تراجعها، وتصبح الإزاحة نحو الأحمر - التي نلقاها منها - أكبر.

وبالتالي، فإن ظاهرة الإزاحة نحو الأحمر تزودنا بوسيلة تمكننا من تقدير المسافة إلى المجرة، أي البعد الثالث في مثال الأضواء. معنى ذلك أن هناك طريقة للحصول على صورة كاملة ثلاثية الأبعاد للكون بأسره، ومن ثم يمكننا تحديد - بشكل قاطع وحاسم - طبيعة البنية الكونية ذات القياس المروع.

ولسوء الحظ، فبينما أن ذلك الاستدلال صحيح من حيث المبدأ، فإنه من الناحية العملية، لا تكون الأمور بهذه البساطة الشديدة، ولكي نحصل على الصورة المألوفة للكون، ذات البعدين، كل ما نحتاج إليه أن نوجه تليسكوباً إلى اتجاه معين، ومستحلباً فوتوغرافياً لإظهار الصورة. ومن ناحية أخرى، إذا أردنا الحصول على صورة ذات ثلاثة أبعاد، فإن علينا - بطريقة ما - أن نرصد كل واحدة من مئات (وحتى آلاف) المجرات، وذلك حتى نتوصل إلى تحديد دقيق لقيمة الإزاحة نحو الأحمر الخاصة بها، ثم نتبع ذلك بوضع كل ملاحظاتنا معاً، بمساعدة حاسوب. عندئذ فقط، يمكننا أن نحصل على الصورة النهائية. ويطلق على جمع البيانات بهذه الطريقة، مسح الإزاحة نحو الأحمر. وليس هذا عملاً بسيطاً ينجز في وقت قصير. إنه يتطلب شهوراً وحتى سنوات من الجهد الشاق، يقوم به فريق من الخبراء المتخصصين والمتقنين في العمل.

وعندئذ، كانت مفاجئتنا المبكرة، أن اكتشاف البنية الكونية ذات القياس المروع، باستخدام مسوحات الإزاحة نحو الأحمر - التي لم تتم حتى عام ١٩٨١ - كان غير مبرر، وهذه الحقيقة - في واقع الأمر - لم تكن مثيرة للدهشة على الإطلاق. إن إجراء مسوحات الإزاحة نحو الأحمر، تتضمن عملاً شاقاً للغاية، خاصة أنها تجرى على الكون بأسره. وكان فريق الفلكيين من جامعة (ميتشجان)، الذي أعلن نتيجة مسح المجرات في كوكبة (العواء) أفضل تحقيق نتائج مذهلة لم يسبق لها مثيل، بإجراء مسح مفصل للغاية، لمنطقة صغيرة جداً، بدلاً من خريطة شاملة للسماء كلها، وأسفر عملهم عن اكتشاف أكبر فراغ في الكون.

ويقدر عرض "الفقاعة" في كوكبة (العواء) بنحو مائتين وخمسين مليون سنة ضوئية، ويبدو أنها لا تشتمل على مجرات عادية من أي نوع. ربما كانت تحتوى على عدة مجرات قزمة، ولكن هذا لا يلقى اهتماماً بين العلماء.

إن متوسط المسافة بين المجرات في مكان آخر من الكون، تبلغ عدة ملايين من السنوات الضوئية، ومن ثم، فإن وجود عدد قليل للغاية من المجرات، في مساحة بالفضاء بهذه الضخامة، أمر يثير الدهشة فعلاً.

وخلال الأعوام القليلة الماضية، بدأ الفلكيون في الإشارة إلى الفراغات - بشكل غير رسمي - على أنها "فقائيع (هابل)". إننى أحب هذا التعبير، إذ إنه يحتفظ بالروح الحرة لعلم الفلك الحديث، بالإضافة إلى تكريم الرجل الذى كان لعمله الفضل فى البدء بكل شيء (علم الرغم - لاكون أميناً - غير واثق من أن هابل كان سيقدر شرفاً يمنع إليه بهذا الشكل).

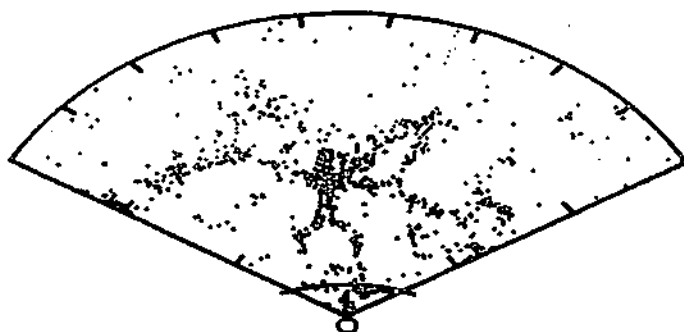
أحدث الإعلان عن فراغات كوكبة (العواء)، احتياجاً فى الصحافة العلمية، ولكنه لم يؤثر بطريقة فعالة على الفلكيين، لأنه من صفات العلماء، الإدراك بأن العامة غير واعين تماماً بالأمور العلمية، وعادة يستقبل العلماء المستحدثات دون حماس، إذ إن اكتشافاً مفرداً، يمكن دائماً أن يكون رمية من غير رام ومجرد ضربة حظ. ومن ثم فإنه - عادة - يكون من الأفضل تجاهله، على الأقل حتى تثبت صحته بتجربة مستقلة.

وفيما يتعلق بالفراغ فى كوكبة (العواء)، فإن وجوده يمكن أن ينسب دائماً إلى محض الصدفة. ومع ذلك، فإذا كانت المجرات تنتشر عشوائياً فى الفضاء، فإنه يلزم وجود عدد قليل من المناطق الفارغة، تماماً مثل وجود مساحات فارغة - أحياناً - فى حشد كبير من الناس متجمعين فى ساحة أو مركز تسوق مفتوح. وأدركت ذلك عندما سمعت عن الفراغ فى كوكبة (العواء)، وقلت فى نفسى "يا إلهى، إن هذا أمر مثير"، واستمررت فى عملى. لقد قاسيت من قبل مرات عديدة، بالظواهر الطبيعية التى حدثت مرة أو مرتين، ثم لم يسمع عنها بعد ذلك قط. ولهذا لم أشأ أن أقع فى هذا الشرك من جديد.

بيد أنه فى خريف عام ١٩٨٥، حدث أمر جلل. إذ قام فريق من الفلكيين فى مركز (هارفارد - سميثسونيان) للفيزياء الفلكية فى كامبريدج بولاية ماساشوسيتس، بالإعلان عن نتيجة مسحهم للإزاحة نحو الأحمر. لقد حققوا إنجازاً متميزاً، فى اتجاه مخالف تماماً عن فريق علماء ميتشجان، لكنهم توصلوا إلى نفس الاكتشاف، أن الكون كان مليئاً بالفقائيع الهائلة. وبهذا الإعلان المثير، انضمت فقائيع هابل إلى ثنایا علم

الكون. إنه يمكنك تجاهل واحدة من تلك الفقاقيع باعتبارها صدفة إحصائية محتملة، ولكن لا يمكن اعتبارها كلها محض صدفة أن مسحين للإزاحة نحو الأحمر في أعماق الفضاء، وفي اتجاهات متباينة، استطاع كل منهما أن يكتشف فراغات، فكيف يحدث هذا، إذا كانت الفراغات بالفعل نادرة في الكون.

لقد استمتعت بصفة خاصة، بحقيقة أن خريطة مسح كامبريدج، مصوغة في الأنموذج المخطط في (شكل ٤-٥). هل يمكنك أن ترى شخصاً داخله؟



الشكل 5.4

إن قليلاً من التشبيه بالإنسان، لا يسبب أى عيب على الإطلاق في الخريطة، يقع كوكب الأرض عند الحافة المستدقة للوتر، وتزداد المسافة من الأرض، كلما تحركنا بعيداً عن الحافة، في اتجاه الجزء الأوسع انتشاراً. وفي الواقع، فإن الوتر مجرد شريحة، في قطاع من الكون، وكل نقطة في المخطط، تمثل مجرة تم تحديد موقعها، باستخدام تقنيات الثلاثة أبعاد، والتي شرحت آنفاً. وخلال الفترة التي تلت نشر هذه النتيجة، أجرى عدد من مسوحات الإزاحة نحو الأحمر، ويبدو أن كلها أظهرت دليلاً على وجود الفراغات.

الكون الإسفنجي

إن صورة الكون التي تتكشف من هذه الدراسات، تتسم بالإثارة والغرابة. فالمجرات ليست متناثرة بانتظام عبر الكون، كما أنها أيضاً ليست مبعثرة بعشوائية. وبدلاً من ذلك، فإن مقطعاً عرضياً للكون، يشبه ما تحصل عليه إذا قطعت كتلة من الإسفنج إلى شرائح. سوف تكون المادة الجامدة منتظمة في ترابط مع شبكة خيطية، تتوزع مع فقائيع ضخمة، حيث لا توجد مادة، أو يكون منها كمية ضئيلة للغاية. وكل محاولة تهدف لتفسير بنية الكون. يجب أن تجابه هذه الرؤية الجديدة، للطريقة التي تنتظم بها المادة في الكون. وكيفية وصولها إلى تلك البقع؟

وفي الفصل السابق، ناقشنا بعض المشاكل التي يواجهها الباحث، أثناء محاولته تفسير الطريقة التي تتكثل بها المادة في القياسات الضخمة. وأدى اكتشاف وجود الفراغات إلى أن تصبح المشكلة أكثر صعوبة. ثمة نوعان عامان من الإجابات، لهذه النوعية من الأسئلة: تلك التي تتعلق بالأحداث التي وقعت في وقت متأخر للغاية من تاريخ الكون، وتلك التي تتضمن بقاء البنى التي تشكلت خلال الجزء الأول من الثانية بعد خلق الكون. وفي الأساس، فإن النوع الأول من الإجابات، سوف يقرر بأن المجرات قد تشكلت أولاً ثم أزيحت فيما بعد من بعض المناطق بالكون، تاركة وراءها الفقائيع. أما النوع الثاني من الإجابات، سوف تعلن أن المجرات تشكلت على حدود الفراغات، حيث يمكننا رصدنا، ولسبب ما لم تتشكل داخل الفراغات ذاتها.

وقبل أن نستطرد في المناقشة، أود أن أطرح عدة تحذيرات. إن فقائيع (هابل) موضوع رئيسي جديد للغاية (ومثير أيضاً) في علم الكون. والآراء عنها تتطير هنا وهناك في جو مسبب الدوار ومزعج للفكر، مماثل لتخوم العلم. وهذا يعني أن شخصاً ما سوف يفكر في شيء ما، ربما يجد تفسيراً، ويقوم بنشره، ثم يأتي شخص آخر ليظهر بأن هذا الرأي له نتائج ليست في الحسبان، والتي لا يمكنها التوافق مع الأرصاد. إذن لابد من إيجاد أفكار أخرى تتضمنها نظريات جديدة، وربما يكون هذا

أمرًا معتادًا، أما عندما يحدث هذا في العلم، فإن بعض الناس يجدون أنه من الصعب تقبله. ويبدو أنهم يعتقدون بأنه ما أن تنشر النظرية، حتى تكتسب نوعاً من الحقيقة الخالدة. وفي واقع الأمر، فإن أى نظرية، ليست إلا تخميناً مبنياً على الحدس، عن الطريقة التي تتصرف بها الطبيعة، ولن يتقبلها العلماء، إلا إذا أمكن تطبيقها بعد أن تكون قد اختبرت بدقة. وكثير من الأفكار الهوجاء، التي صدمت الصحافة، سرعان ما ثبت فشلها، والناس بطبيعتهم يصيبهم أحياناً قليل من الارتباك والحيرة، أين - على سبيل المثال - فكرة "الأكون الموازية" التي نادى بها البعض في الماضي^(١)؟

وبينما أكتب هذا، أصبحت الآراء التي نوقشت لاحقاً، في بؤرة اهتمام المجتمع الذي يضم علماء الكون، وفي الوقت الذي تقرأ فيه كلماتي، ربما يكونون قد عابوا لاعتناق نظرية الأكون الموازية. ومن ثم، فعليك أن تعتبرها ليست أكثر من أمثلة للنظريات التي تم اختبارها. ومما لا ريب فيه، أنها لا تقدم الإجابات النهائية لمشكلة الفراغات والبنية ذات القياسات المروعة. ومن وجهة ما، فإنها ليست أمراً يثير الدهشة البالغة، إذا علمنا أن الكون يشبه الجين السويسرى^(٢). إنك لا تستطيع أن تكون كومة من التراب، دون أن تحفر حفرة في الأرض، وقياساً على هذا، إذا أردت الحصول على مناطق في الكون، يمكن للمجرات فيها أن تتكثف في شكل عنقود مجرى، فإن عليك أن تتوقع وجود مناطق ليس فيها إلا عدد قليل جداً من المجرات.

وفي وقت سابق، اقترح فريق من علماء الفيزياء الكونية في جامعة (برنستون) تفسيراً فيزيائياً معقولاً للغاية، عن الفراغات. وكان من رأيهم، أنه بعد أن تشكلت

(١) إن هذا ينطبق على فكرة انبثقت عن نظريات التوحيد العظمى في بداية الثمانينيات من القرن العشرين، وعندما تمت إعادة النظر في صيغ هذه النظريات، بدت كأنها تنبأ بأن الكون يتشكل من رغبة من أكون كاملة ذاتياً مثل كوننا. وللأسف - ويعد أن نشرت في مجلة "تايم" الأمريكية ومنشورات أخرى - انشرت ولم يعد لها وجود. (المؤلف)

(٢) نظرية تصور الكون على أنه مثل الجين السويسرى، يمتلئ بالفراغات بجانب المادة. (المترجم)

المجرات، وقع انفجار مروع، ذو طبيعة معينة، فى منطقة من الفضاء. واختلفت وجهة نظر كل باحث عن الآخر، فيما يتعلق بالطبيعة الدقيقة للانفجار وكذلك الأسباب التى أدت إلى حدوثه. ومع ذلك، فبغض النظر عن مصدره، فإن الانفجار يمكن - بسهولة - أن يسبب موجة صدمية مروعة، تندفع عبر منطقة من الفضاء، وتدفع أمامها إلى الخارج، أى مادة كانت توجد فى المنطقة وتنتج ذلك النوع من جدران الفقاعة الموضحة فى (الشكل ٤-٥).

ولا شك أن هذه فكرة مثيرة للاهتمام، وهى بالتأكيد تزودنا بحل بديهي وقابل للتصديق عن المشكلة. وتبدو الفقاقيع بالفعل، مثل ما قد ينتج من سلسلة من الانفجارات فى وسط متناسق بشكل أو آخر. ولسوء الحظ، فإنه إذا وجدت آلية لإنتاج مثل هذه الانفجارات الهائلة، سوف يكون هناك تضارب مع قياس الإشعاع الكونى الخلفى للموجات الدقيقة (انظر الفصل الثالث).

إن انفجاراً مروعاً، يمكن اعتباره وقوداً مشتتلاً فى حد ذاته، ومن ثم، فإن علينا أن نتوقع رؤية الإشعاع ينبعث من الانفجار بعد أن يخمد، تماماً كما نرى الإشعاع الكونى الخلفى للموجات الدقيقة، الذى نتج عن الانفجار الأعظم. وتدل الحسابات والإحصاءات، بأن أى انفجار يكون من القوة، بحيث ينتج فقاعة (هابل)، يكون قادراً أيضاً على بث كمية كافية من الإشعاع، ليحرف الإشعاع الكونى الخلفى للموجات الدقيقة. ما دام مثل هذا الانحراف لم يرصد حتى الآن، فإن المناقشات مازالت مستمرة، ويمكننا أن نقرر أن الانفجارات لا يمكنها أن تحدث الفقاعات.

وعلى نقيض هذه المناقشة، يشير المدافعون عن فرضية الانفجار، إلى أن الفقاعة لا تحتاج أن تنتج كاملة مرة واحدة. إذ قد تنشأ من التحام العديد من الفقاعات الأصغر، مثل رغوة الصابون فى حمامك، أو فى قدح الجعة (أو الشمبانيا بالطبع)، أو البالونات التى تنفخها لأولادك. وإذا كانت هذه المناقشة سوف تظل معلقة حتى يتم التحقق منها بالرصد والملاحظة، فإن فكرة الانفجار، مثال جيد، لتفسير وجود الفراغات، التى تعزى إلى حدث كونى ما، وقع بعد أن تشكلت المجرات بالفعل.

وعلى خلاف ذلك، تبدأ النظريات الأخرى من الأطروحة بأن الفراغات والعناقيد المجرية الفائقة، نشأت عن أحداث كونية نشطت منذ زمن طويل، قبل أن تتشكل المجرات من الغاز الأولى بالكون. وتفترض هذه النظريات بأن تركيزات الكتلة حول المواقع التي تشكلت فيها المجرات، لم تكن موزعة على نسق واحد، ولكنها أظهرت - منذ البداية - بنية الجبن السويسري، التي نراها في مسوحاتنا للسماء، ووفقاً لهذا الافتراض، تتشكل المجرات في الوضع الطبيعي، حول حواف الفقائيع، وسوف تستقر هناك.

وعلى سبيل المثال، ثمة نوع من النظريات التي تلقى قبولاً معيناً، تتضمن شيئاً يطلق عليه "وتر كونى" (انظر الفصل الثانى عشر). والوتر الكونى، يمتد طويلاً للغاية، وكثافة بنيته مروعة، وقد تشكل فى ٢٥-١٠ من الثانية بعد الانفجار الأعظم، ويمكنه - بسهولة - أن يكون مركزاً لتركز مادة المجرات. وإذا كان الكون يمتلئ بهذه الأوتار، فإن المجرات إذن، سوف تتشكل بمحاذاتها، مكونة من العناقيد المجرية الفائقة. وفى مثل هذا النموذج، سوف تكون الفراغات هى المسافات بين هذه الأوتار الكونية المجسولة. بيد أن هذا كله مجرد تأملات وتصورات ذهنية. إن الأمر الذى أصبح واضحاً، أن تفسير الفراغات والبنية ذات القياس المروع فى الكون، ستكون مهمة بالغة الصعوبة للباحثين فى علم الكون.

الفصل السادس

المادة المظلمة أقل مما تراه العين

"كل التجارب الحديثة تميل إلى بحض النظريات الأقدم".

(جول فيرن)

رواية "رحلة إلى مركز الأرض"

وهكذا لا نستطيع أن نفسر لماذا يتكتل الكون في مجرات، كما لا يمكننا أيضاً أن نوضح لاي سبب توجد هذه المجرات في فراغات وعناقيد مجرية فائقة. ويبدو أن آخر شيء سوف نحتاجه في تلك المرحلة، هو لغز آخر. ومع هذا، فإن أى شخص مارس لعبة أحجية الصور المقطوعة، يعرف أن إضافة جزء إضافي من الصورة، يمكن من رؤية النموذج بكامله، وهذا النموذج يظل يراوغنا حتى يتوفر آخر جزء. إن اكتشاف ما أصبح يطلق عليه "المادة المظلمة" يؤدي نفس هذا الدور تماماً، في أحجية الكون.

إن السبب في هذا الخضم من الأمور والظروف الغامضة الكونية، بسيط: إننا حتى هذه النقطة ناقشنا مشكلة تفسير الكون، في ظل الافتراض الذي مفاده، أننا نتعامل فقط مع مادة مرئية. تلك المادة التي نراها عندما ننظر خلال تليسكوب بصري،

أو على الأقل ندركها عن طريق الحواس خاصة الرؤية والسمع كما فى حالة التليسكوبات الراديوية والأجهزة الأخرى الحساسة لأطوال الموجات، خارج نطاق استجابات أعيننا، لو أن كثيراً من المادة فى الكون - كما - سوف نناقش لاحقاً - ليست فى هذه الحالة المألوفة لنا. من ثم، يجب إعادة النظر فى "المدى الزمنى" وتشغيل البدايات".

وثمة اعتقاد بأن الصفات المميزة لهذه الأشكال الجديدة للمادة، ربما تختلف كثيراً عن خواص المادة التى نراها فى مختبراتنا، وربما تكون هذه الخواص غير المتوقعة، هى التى تخرجنا من بعض الطرق المسدودة التى صادفتنا. ومن الصعوبة بمكان أن نتقبل الاعتقاد أن هناك مادة لا يمكن أن نراها بذاتها، لكنها - مع ذلك - تؤثر على ما نراه. وحتى نتفهم هذه الفكرة، وأنه من المحتمل حدوثها يمكننا أن نبدأ بأن نتطلع إلى الأجرام الفضائية فى الجوار وأيضاً إلى مجرتنا "الطريق اللبنى".

الطريق اللبنى.. نموذج للمجرة الحلزونية

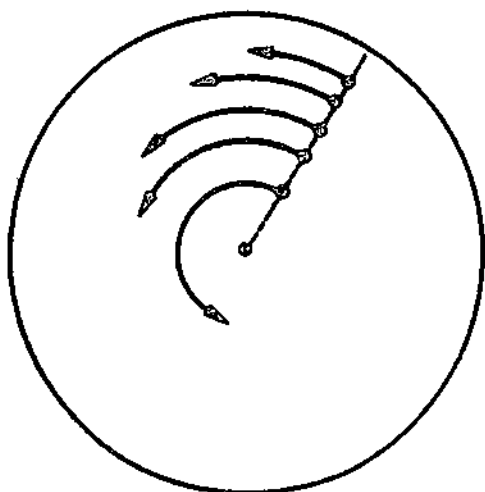
لا يمكن رؤية مجرتنا من الخارج، ولكن يمكننا مشاهدة عدد كاف من المجرات الأخرى. لنأخذ فكرة جيدة عن بنية مجرة الطريق اللبنى. إن ما يربو على نصف المجرات فى الكون لها نفس الشكل العام. الذى يتمثل فى لب مركزى براق وذراعين حلزونيتين (ولكن أحياناً أكثر). والأذرع الحلزونية بالتأكيد، هى أكثر السمات البارزة لهذه المجرات، والرأى عندي، أنه إذا طلب من شخص عادى رسم صورة لإحدى المجرات الحلزونية، فإنه سوف يخط نموذجاً يشبه إلى حد كبير، ما هو موجود فى (الشكل ١-٦).



الشكل 6.1

ويخبرنا وجود الأذرع الحلزونية بشيئين مثيرين للاهتمام للغاية، عن المجرات. أولهما: أنها تدور، وثانيهما: أنه ليس ضرورياً أن المواقع الأكثر تآكلاً في المجرات، هي التي تتجمع فيها معظم المادة.. وأن هذه المواقع التي تتبع من البنية الحلزونية، ليست واضحة على الفور، ومن ثم، فإننا سوف نقوم باستطراء طفيف لمناقشتها. إذا قلبت الحليب في قهوتك، فإنك ترى عادة أشكالاً حلزونية مؤقتة في فنجانك. ويرجع وجود هذه الحلزونية في الحليب، إلى ما يطلق عليه الفيزيائيون "الدوران التفاضلي"^(١) حيث يؤدي الاحتكاك إلى بقاء حركة السائل عند حافة الفنجان، ثم يميل إلى السكون، بينما يتدفق السائل بحرية في وسط الفنجان. وبالتالي، فإن سلسلة النقاط التي تكون خطأ مستقيماً في لحظة ما، سوف يحركها السائل لمسافات متباعدة في اللحظات التالية. وعندئذ، سيتحول الخط المستقيم بسرعة، إلى منحنى حلزوني. كما هو موضح في (الشكل ٢-٦). إن هذا ما تراه في فنجان قهوتك الصباحية، مما يغرينا بالقفز إلى الاستنتاج، بأن ثمة علاقة ما، بين ما تراه من منحنيات حلزونية في قهوتك الصباحية وتلك الحلزونية في مجرة "الطريق اللبني".

(١) ظاهرة في المجرة، حيث تدور نجومها بمعدل أسرع بالقرب من المركز، عنه عند حافة المجرة، وكذلك تلاهظ في الأجرام الفضائية الغازية (مثل كوكب المشتري)، حيث تدور بمعدل مختلف عند خط استوائها عنها عند قطبيها. (المترجم)



الشكل 6.2

بيد أنه لسوء الحظ، ثبت خطأ ذلك الاستنتاج، كما ستدرك إذا تأملت حقيقة بسيطة ثبتت صحتها بالرصد بواسطة التليسكوب. مفادها أن الشمس تقع - بالتقريب - على بعد ثلث المسافة من مركز مجرتنا. وعندما تدور المجرة، فإنها تحمل معها الشمس وكواكبها، بسرعة تبلغ حوالى مائتين وخمسين كيلو متراً فى الثانية الواحدة. وبهذا المعدل، يكون للشمس الفرصة أن تكمل تقريباً ستين دورة كاملة، منذ أن تشكلت مجرة "الطريق اللبنى". إذا كانت الأذرع الحلزونية - مثل الحليب الذى فى قهوتك - خطوط مستقيمة من مادة كثيفة التى انحرفت لتكون الشكل الحلزونى، بسبب تأثير الدوران التفاصيلى - حينئذ تكون قد التفت على بعضها منذ زمن موغل فى القدم ولم تعد موجودة.

وطبقاً للتفكير العقلانى الحديث، فإن الأذرع الحلزونية فى المجرات، تبرز إلى الخارج، لأنها مناطق توجد بها نجوم حديثة تستخدم فى لحظات ميلادها لتخرج إلى الوجود، ومن ثم، فإنها تكون أكثر بريقاً من الأجرام الفضائية المحيطة بها، ونحن نلاحظها لنفس السبب الذى نلاحظ به منطقة وسط مدينة ما، ونحن داخل طائرة فى

الجو، إذ إن كلا منهما يبعث بضوء أكثر، مما يحيط بهما. بيد أن هذا لا يعنى بالضرورة، أن المناطق الأكثر إضاءة فى المدينة، هى التى يسكنها أكبر عدد من السكان، كما أننا لا نستنتج من هذا، أن معظم المادة فى المجرات، تتركز فى الأذرع الحلزونية.

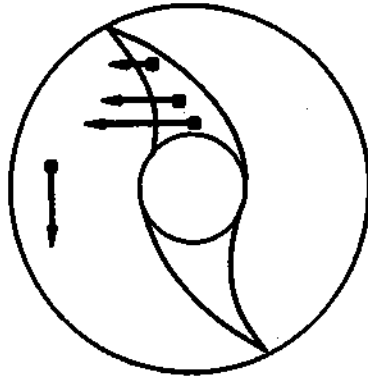
ووفق الحقيقة والواقع، فإن المادة فى المجرة، تنتشر منطقياً على نسق واحد، خلال كل جزء من القرص الدائرى المسطح للمجرة. وأمكن للأذرع الحلزونية أن تستمر فى البقاء فقط لأنها متألقة، وليس لأنها تحتوى على مادة كثيفة أكثر. ويقودنا ذلك إلى واحد من أهم الأفكار التى سوف نطرحها للمناقشة فى هذا الكتاب، والفكرة مفادها أنه ليست ثمة أهمية لوجود علاقة، بين وجود المادة فى منطقة ما، وانبعث ضوءه أو أى إشعاع آخر من هذه المنطقة.

إذ إن هناك طرقاً متعددة، يمكن للمادة أن تعلن بها عن وجودها، وتبعث بضوء (أو موجات راديوية أو أشعة سينية "إكس" وغيرها)، الضوء مجرد واحد من تلك الإشعاعات، والحقيقة الواقعة الموجودة أن الشيء الوحيد الذى يجب أن تبذله كل مادة، هو ممارسة قوة تجاذبية. ومن ثم فإن الاختبار النهائى للتحقق من وجود المادة، ليس عما إذا كانت تشع ضوءاً، بل ما إذا كانت تجذب إليها المادة الأخرى.

منحنيات الدوران المجري والمادة المظلمة

فى الفصل الثانى، ناقشنا تأثير (دوبلر). ورأينا أن تردد الضوء المرئى، يمكن أن تغيره حركة المصدر. ويسبب وجود تأثير (دوبلر)، نستطيع أن ننظر إلى الضوء المنبعث من أجزاء متباعدة من مجرة تدور، ونتبين كم هى سرعة تحرك هذه الأجزاء فى السطح المستوى لتلك المجرة، كما هو موضح فى (الشكل ٢-٦). والسرعات التى نحصل عليها بهذه الطريقة - عندما تخطط بيانياً على لوحة - تشكل ما نطلق عليه "منحنى الدوران المجرى".

وئمة أشكال متعددة ممكنة، يمكن أن يتخذها منحنى الدوران، ولكل منها شبيهه في خبراتنا اليومية. فعلى سبيل المثال، عندما تتركب لعبة "الدوارة"^(١) سوف ترى أنك سوف تصاب بالدوار بشكل أشد بكثير، إذا كنت في الحافة الخارجية، عما لو كنت في الداخل. وهذا هو السبب في أننا نجعل الصغار يبدأون بامتطاء الخيول الخشبية الداخلية، ثم يتخذون طريقهم إلى الخيول الخارجية كلما تقدموا في السن، والسبب في حدوث هذه الظاهرة بسيط: إن لعبة الدوارة عبارة عن قطعة صلبة، وعندما تدور، فإن الجزء الخارجى يجب أن يتحرك بسرعة أكبر، ليساير الجزء الداخلى. وهذا النوع من الحركة ينشئ منحنى دوران، مثل الموضع إلى اليسار فى (الشكل ٤-٦). وهو منحنى تزداد فيه السرعة كلما ابتعدنا عن المركز. وهذا يطلق عليه "عجلة التدفق"، فى لغة الفيزيائيين، وذلك لأسباب واضحة. ونتوقع أن نجدها، كلما كانت المادة مكسدة بإحكام معاً، كما هى الحال فى لعبة الدوارة.

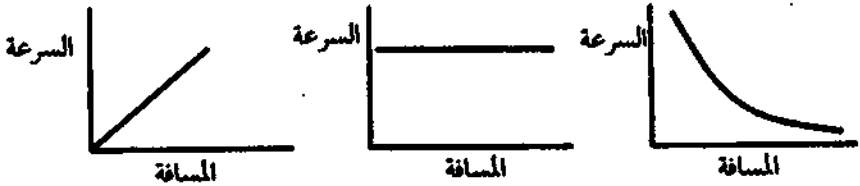


الشكل 6.3

ويمكنك أن تتصور نوعاً شائعاً آخر من التدفق، إذا فكرت فى مجموعة من العدائين داخل ملعب رياضى، كل واحد منهم فى أحد الممرات المحددة، التى تمتد من الداخل

(١) لعبة تتألف من منصة دائرية عليها خيول خشبية يجلس عليها الأفراد وتدور بهم، وهى توجد فى مدينة الملاهى. (المترجم)

إلى الخارج على سطح مضمار العدو. فب أن كل العدائين على درجة واحدة من المهارة، ومن ثم، سوف ينطلقون جميعاً بنفس السرعة، وإذا كان هناك منحني في مضمار العدو، عندئذ سوف يبدأ طابور العدائين في الانحناء، وبالنسبة للعدائين الداخليين، فإنهم سوف ينطلقون في خط مستقيم، ذلك أن عليهم اجتياز مسافة أقل. وإذا قمت بقياس منحنى الدوران للعدائين، سوف تحصل على شيء ما مثل الموضع في وسط (الشكل ٤-٦). وسوف يعبر كل العدائين الخط التخيلي بنفس السرعة، ولهذا سوف يصبح المنحني، خطاً أفقياً مستقيماً. (إن الحقيقة بأنهم اجتازوا الخط التخيلي في أوقات متباعدة. يعد خارجاً عن الموضوع، ما دام الأمر يتعلق بجسيمات القياس هذه. إن كل ما يهم، هو كم السرعة التي يتحركون بها، عندما يجتازون هذا الخط التخيلي)، وسوف نطلق على هذا الموقف "تدفق السرعة الدائمة". وستحدث، متناغمة مع منحنى الدوران الأفقى المميز، وقتما تتحرك كل الأشياء بنفس السرعة. بغض النظر عن بعدهم من المركز. وتدفق السرعة الدائمة، يقود بالضرورة إلى الدوران التفاضلي - نفس الشيء الذي نراه في فنجان القهوة - ذلك أن النقاط الخارجية، الذي عليها أن تنطلق إلى مسافة أبعد، ملزمة بأن تتحرك بنفس سرعة النقاط الداخلية النظيرة لها.



الشكل 6.4

وبالإضافة إلى ذلك، إنه التأثير الذي نناقشه هنا، مسئول عن الحقيقة بأن العدائين يعطون تعاقب الترتيب، في منافسات مضمار العدو. إن موازنة مواقع البداية، قد صممت لتعويض العدائين عن الاختلافات في المسافات، المقاسة على طول داخل مضمار العدو وخارجه.

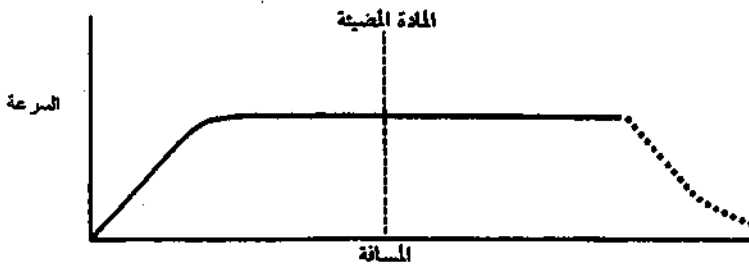
وثمة نوع ثالث من منحنيات الدوران، يمكن فهمه بالتفكير في الكواكب في المنظومة الشمسية، من المعروف جيداً أن طول "السنة" - الزمن اللازم لإتمام دورة واحدة - يتباين باختلاف الكواكب، ويتراوح بين ثمانية وثمانين يوماً لكوكب عطارد إلى نحو مائتين وخمسين عاماً لكوكب بلوتو^(١)، وإلى حد ما، فإن هذا مرده إلى الحقيقة بأن الكواكب الخارجية تستغرق وقتاً أطول لإتمام دورة كاملة، بيد أن هذا مجرد جزء من القصة. وكذلك اتضح أنه كلما كانت المسافة بين الكوكب والشمس أطول، تحرك ببطء أكثر. ومنحنى الدوران لمنظومة مثل الكواكب، موضحة إلى اليمين في (الشكل ٤-٦)^(٢).

والمنحنى من هذا النوع يسمى "كبلري" تيمناً بالفلكي الألماني (يوهانس كبلر) (١٥٧١ - ١٦٣٠)، وهو الذي صاغ القوانين الصحيحة لمدارات الكواكب، ونتوقع أن نجد ذلك المنحنى، في أى موقع، حيث توجد الكتلة التى تمارس قوة الجاذبية، فى مركز المنظومة، كما تفعل فى حالة الشمس والكواكب. ومن الأهمية، أن ندرك أن هذا المتطلب، لا يعنى ضرورة أن تكون الكتلة المركزية صغيرة الحجم. وبالتأكيد، فإن الشمس ليست جرمًا فضائياً صغيراً. وتعد المنظومة الشمسية "كبلرية"، ذلك أن حجم الشمس صغير، مقارنة بالمسافات إلى الكواكب، وينفس المفهوم، لو بعدنا كثيراً عن التركيزات الأساسية للكتلة فى المجرة، إلى الحد أن منحنى الدوران سوف يكون بالتأكيد "كبلرياً". وتلك نقطة بالغة الأهمية، ومن ثم، دعنى أشرحها بالتفصيل فى عجلة. افترض - لمجرد تبادل وجهات النظر - أن كل المادة فى المجرة، كانت مركزة فى شكل كروي قطره مائة ألف سنة ضوئية، أى إنه يتطابق - بمعنى آخر - مع توزيع المادة المضغوطة. عندئذ، إذا كان هناك بعض التوابع (شموس مثلاً أو حتى كواكب منفردة) تدور على بعد مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف سنة ضوئية، فإننا نتوقع أن تكون منحنيات دورانها "كبلرية". وكلما كانت هذه الأجرام الفضائية أكثر بعداً، فإنها يجب أن تتحرك أشد بطئاً.

(١) أصبح الآن مجرد كويكب وليس كوكباً فى المجموعة الشمسية. (المترجم)

(٢) الشكل الرياضى للمنحنى يكون $1/r$. (المؤلف)

وموضح فى (شكل ٥-٦) منحنى دوران نموذجى مقياس، لإحدى المجرات. وفى اتجاه نواة المجرات، حيث تتكدس وتتماسك المادة، سوف نلاحظ أن السرعات تتصاعد، مع زيادة المسافة: أى تدفق العجلة. وكما ابتعدنا أكثر، اختفت مستويات الانحناء، ونرى أنفسنا فى منظومة يتحرك فيها كل شىء، تقريباً بنفس السرعة، ومن ثم، يظهر نوع من الالتواء^(١) الذى يصاحب الدوران التفاضلى. ويمتد هذا الجزء من المنحنى كثيراً إلى ما بعد المائة ألف سنة ضوئية، وبالتالي، يصل إلى ما وراء تلك المنطقة، التى يمكننا أن نراها بالفعل، عندما ننظر إلى مجرة ما. وربما ينتابك العجب، وتتساءل كيف نستطيع أن نتعرف عن سلوك المادة، فيما وراء المنطقة المرئية؟ ومن الواضح، أنه ليس ثمة أى ضوء مرئى يصل إلينا مما قد يوجد بعيداً هناك، بيد أن هذا لا يعنى عدم وجود أى إشعاع على الإطلاق. إذ توجد غيوم رقيقة ورقيقة من غاز الهيدروجين فى تلك المنطقة، ويبث هذا الغاز الموجات الراديوية، التى يمكن رصدها، بواسطة مستقبلات فوق كوكب الأرض. ونوع تحليل دوبلر الذى تم شرحه فيما سبق، للضوء المرئى يمكن إجراؤه على الموجات الراديوية، ومن ثم، يمكننا بالفعل التعرف على سرعة تحرك الهيدروجين.



الشكل 6.5

(١) الدوران الكامل لجسم ما حول محوره العمودى. (المترجم)

وإذا كان الغاز فى منطقة فضاء فارغة^(١)، سوف يتخذ له مداراً حول المجرة، أنواع من التوابع الذرية. فى هذه الحالة، يجب أن نرى منحنى الدوران، وقد تحول إلى شكل كبلرى، ومن ناحية أخرى، إذا تدفق الغاز إلى الأمام بتأثير مادة غير مرئية - كحطام السفينة الطافى على سطح نهر صغير - عندئذ سوف يصبح منحنى الدوران للهيدروجين، مماثلاً لتلك المادة غير المرئية، المظمور فيها.

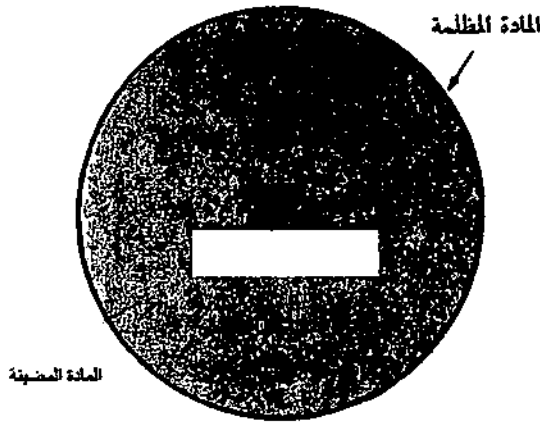
وكما ترى فى (الشكل ٥-٦)، يظل منحنى الدوران لمجرة نموذجية، مسطحاً تماماً خارج المنطقة، حيث يتم بث الضوء المرئى. وفى واقع الأمر، فلم يلاحظ قط تحول أى منحنى دوران مجرى، ليصبح كبلرياً، بل بقيت كلها مسطحة إلى مسافات تصل إلى مائتى ألف وثلاثمائة ألف سنة ضوئية، أكثر بعدة مرات من الجزء المرئى من المجرة. وهذا حقيقى بالنسبة للعديد من المجرات التى تم رصدتها وقياسها. ومن ثم، فمن الأرجح - إلى حد بعيد - أنه حقيقى أيضاً بالنسبة لمجرة الطريق اللبنى.

ونعلم أننا بمجرد وصولنا إلى نقطة، حيث نكون خارج معظم المادة فى المجرة، سوف يصبح منحنى الدوران كبلرياً، ويبدأ الزوال. والحقيقة أنه لم يلاحظ يفعل هذا، يعنى شيئاً واحداً: حتى على بعد مسافات مروعة من المركز، مسافات بعيدة تماماً عن تخوم المجرة المرئية، ثمة كميات هائلة من المادة. ربما لا نستطيع رؤيتها، بيد أننا نعرف أنها هناك، بسبب التأثيرات التجاذبية، التى تمارسها على منحنى الدوران.

وفى الواقع، فإنه يمكننا تقدير كمية المادة الإضافية فى مجرة الطريق اللبنى والمجرات الأخرى، عن طريق دراسة مدارات التوابع المجرية. كم قدر الكتلة التى يمكنها إنتاج منحنيات الدوران التى أمكن رصدها وملاحظتها؟ والإجابة هى أنه لا بد من وجود - على الأقل - عشرة أمثال من المادة غير المرئية فى المجرات، عن المادة المرئية بها. وبمعنى آخر، فإنه على الأقل، تسعين بالمائة من المادة التى فى مجرة مثل مجرتنا، فى شكل لا يبعث بضوء مرئى أو أى إشعاع آخر، وأن أحداً لم تساوره

(١) فراغ يقع بين المجرات. (المترجم)

الشكوك في وجودها، حتى السبعينيات من القرن العشرين. ومن ثم، كان من الملائم أن يطلق الفلكيون على هذه المادة "المادة المظلمة". وتنتشر تلك المادة المظلمة، خلال هالة كروية تحيط بالمناطق المرئية من المجرة (انظر الشكل 6-6).



الشكل 6.6

المادة المظلمة: بعض التعليقات الفلسفية

سوف نناقش فيما يلي النتائج التي ترتبت على وجود المادة المظلمة والفكر السائد في الوقت الحاضر عن الشكل الذي يمكن أن تتخذه، وذلك طوال بقية الكتاب، ولكن أنها سوف تكون فكرة جيدة أن نتمهل قليلاً عند هذه النقطة، ونضع اكتشافها وفقاً لعلاقاتها الصحيحة وأهميتها النسبية. وللوهلة الأولى، ربما يبدو أن المادة المظلمة، ما هي إلا مجرد قطعة صغيرة إضافية، في أحجية الصور المقطوعة، التي علينا أن نركبها، حتى نتتمكن من فهم كوننا، وهي تتساوى في الأهمية مع أجرام فضائية عديدة في الكون. وسوف تكون هذه وجهة نظر معقولة، إذا كانت المادة المظلمة تشكل مجرد جزء صغير من الكون، وفي هذه الحالة، نستطيع أن نعتبر وجودها مثل حاشية، لما هو أكثر أهمية (وأكثر سهولة في رصده) ألا وهي المادة المضيئة.

بيد أن وجهة النظر هذه قد عززت بانحيازنا المدرك، بأن ما يمكننا رؤيته يجب أن يكون أكثر أهمية، عما لا نستطيع رؤيته، ومن ثم، أصبح غامضاً ومثيراً للاهتمام.

والواقع أن الشكل الغالب من المادة في الكون، ليس مضيئاً ولكنه مظلم. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه أكثر من تسعين بالمائة من المادة في الكون مظلمة، وإن المادة المضيئة - والتي يمكننا رؤيتها بالفعل - لن تكون لها من الأهمية أكثر من حطام سفينة فوق سطح نهر صغير. ولعل الأذرع البارقة بالمعجرات تعمل - ببساطة - كعلامات سلبية، وشهود بكم، لقوى تعمل في مستوى غير مرئى لنا. ويبدو أننا كلما عرفنا المزيد عن كوننا، ندرك أن المعرفة التي حصلنا عليها بشق الأنفس عن الكون المرئى، هي أكثر قليلاً من خطوة أولى على الطريق، لفهم الأشياء على حقيقتها. ومعظم النظريات الحديثة التي تمت مناقشتها في الفصلين الحادى عشر والثانى عشر، كانت قد تبنت وجهة النظر هذه، ولكن إلى الآن اقتصر منحنى التفكير الجديد هذا، على عدد محدود من الخبراء.

وفى الفصل الأول، رسمنا خريطة تتضمن تطور أفكارنا عن الكون، من علم الكون لدى الإغريق الذى كان ينص على مركزية كوكب الأرض، إلى كوبرنيكوس الذى كان ينادى بمركزية الشمس فى الكون. ورأينا كيف أن خلع الأرض عن العرش، بإزاحتها عن مركز الكون، إلى القيام بدور، مثل أى كوكب آخر، كان له أبلغ الأثر فى تدمير عالم القرون الوسطى الذى كان ينعم بالاستقرار والهدوء.

استمر خلع كوكب الأرض عن مقام السلطة والنفوذ، بالعمل الذى قام به شابلى وهابل. فقد أظهر (شابلى) أن الشمس لم تكن حتى فى مركز مجرة الطريق اللبنى، بل تريض فى مكان ما. بالأذرع الحلزونية للمجرة. وعلى أثر ذلك، أظهر هابل أن مجرة الطريق اللبنى ذاتها، كانت مجرد واحدة من عدد لا متناه من المجرات، فى كون ممتد. وكما أصبح كون هابل مألوفاً فى خلال الستين عاماً الماضية، فإن اكتشاف المادة المظلمة قادنا إلى تغيرات بعيدة الغور، فى الطريقة التى ندركه بها. ولعل هذا الكون

المالكوف بذاته، أكثر قليلاً من مجرد جزء ثانوى، من التشغيل النشط الحقيقى للأشياء. حتى إنه ربما يكون نوع المادة، التى تكونت منها منظومتنا الشمسية، كوكبنا وأجسامنا، هى فى حد ذاتها جزء بسيط نسبياً من الكون، الذى تشكل - بالكثرة الغالبة - من مادة مختلفة تماماً. ومن الصعوبة تخيل نهاية أكثر كآبة من ملحمة كوبرنيكوس، خاصة إذا أردت أن تصدق فى قرارة نفسك، بأن كوكب الأرض وكل سكانه من البشر، يحتلون موقعاً متميزاً فى الكون.

العناقيد المجرية: المزيد من المادة المظلمة

تعد منحنيات الدوران، إحدى الدلالات المهمة، لوجود المادة المظلمة، ولكنها ليست الوحيدة فى هذا المجال. ثمة المزيد من المادة المظلمة هناك، أكثر من تلك الموجودة فى الهالات المجرية، وتلك حقيقة يمكن سبر غورها، بالتفكير فى العناقيد المجرية.

ومما يستأثر بالاهتمام، فيما يتعلق بالمادة المظلمة، أن هناك العديد من العناقيد المجرية، التى تشتمل على آلاف المجرات. وفى هذه العناقيد، تتحرك المجرات فى مسارات معقدة. وفى الواقع يمكنك أن تفكر فى العنقود المجرى، وكأنه يشبه نقطة ماء معلقة فى الفضاء. وكل من هذه المنظومات تشكل من مكونات (مثل المجرات والجزيئات)، لها الحرية فى التحرك هنا وهناك. وبالإضافة إلى هذا، هناك قوة فى كل منظومة (الاجاذبية إحداها والتوتر السطحى^(١) أيضاً) وهى التى تمنع المكونات من التطاير.

فى حالة نقطة الماء المعلقة، نعرف بأننا إذا رفعنا درجة الحرارة، فإن سرعة الجزيئات سوف تزداد، حتى - فى نهاية الأمر - يمكنها أن تتغلب على قوى التوتر

(١) قوى التجاذب المؤثر فى الجزيئات الواقعة على سطح السائل، وتؤدى إلى وجود شبه غشاء رقيق، ومن ثم الخاصية الشعرية. (المترجم)

السطحي. وعندما يحدث هذا، نقول بأن نقطة الماء تغلى. وفي الواقع، يمكنك أن تتنبأ ما إذا كانت نقطة الماء سوف تغلى أم لا، وذلك بقياس سرعة تحرك الجزيئات القريبة.

وينفس الطريقة تماماً، يمكن للفلكيين قياس سرعات المجرات. في عنقود مجرى قصى ويعرفون مدى قدرة تلك المجرات، على التغلب على قوة الجاذبية، التي يمارسها الأعضاء الآخرون بالعنقود. وبالطبع، فإن قوة الجاذبية، تعتمد على كمية المادة (المضيئة والمظلمة معاً) التي تكمن في المجرات في العنقود المجرى. وعندما يتم القيام بإجراء هذه الأنواع من القياسات للسرعات، تبرز حقيقة مذهلة من غير ريب، إذ يتضح أنه تقريباً في كل حالة، تكون سرعات المجرات الفردية مرتفعة إلى الحد الذي يسمح لها بالهروب من العنقود المجرى، وفي الحقيقة، فإن العناقيد المجرية "تغلى"، وتكون تلك العبارة صحيحة يقيناً، إذا افترضنا أن قوة الجاذبية الوحيدة الموجودة، هي التي تمارسها المادة المضيئة، بيد أنها أيضاً حقيقة حتى لو افترضنا أن كل مجرة في العنقود مثل مجرة الطريق اللبنى، محاطة بهالة من المادة المظلمة، التي تحتوى على تسعين بالمائة من مادة المجرة.

وثمة طريقتان محتملتان لشرح هذه النتيجة. أولها أن نأخذها بشكلها الظاهري، ونقول بأن العنقود المجرى "يغلى"، أى يضطرب بالفعل، بيد أن هذا حدث في الوقت الذي كنا ننظر إليه، أثناء قيام سلسلة من العمليات المروعة داخله. ويشبه هذا، مشاهدة نقطة من الماء فوق مقلاة معدنية ساخنة، قبل أن تتبخر تماماً. سوف تكون هذه المجادلة تفسيراً معقولاً للسرعات في عدد قليل من العناقيد المجرية، ولكن عندما ترى نفس النموذج يتكرر في كل مكان، سوف تبدأ التعجب.

ما احتمال أن نقوم بالرصد، في الوقت الذي تكون فيه نصف مجرات الكون، مدمجة في عناقيد بلغ من شدة ضعفها، أنها لا تستطيع أن تبقى متماسكة، ومن ثم كانت تضطرب بسلسلة من العمليات الكونية المروعة، التي تجعلها تتفكك وتتناثر؟

والبديل هو أن نفترض أن المجرات كانت دائماً متجمعة في عناقيد مجرية، كما هي في الوقت الحاضر، وأن القوى التي تمسك بالعناقيد معاً، أكثر شدة مما نتوقعه

اعتماداً فقط على كمية المادة في المجرات، والطريقة الوحيدة التي يمكن أن يحدث بها هذا، إذا كان هناك فيض من المادة المظلمة تفوق الهالات المجرية. ومثل تلك المادة يمكنها أن تختفي في الفضاءات الفارغة، بين المجرات في العنقود. إذا كانت هذه هي الحالة، فإن تلك المادة المظلمة الزائدة، سوف تمارس قوة تجاذبية مروعة، على المجرات، عندئذ سوف تحجز في العنقود، على الرغم من سرعاتها الهائلة، هذا هو التفسير الحديث لتشكيل العنقود المجرى، وهو مقبول في الوقت الحاضر، من معظم الفلكيين.

ويبدو - عندئذ - أن المادة المظلمة برزت في الكون، في أكثر من مكان واحد به: فقد خرجت إلى حيز الوجود، حول المجرات الفردية، بيد أنها ظهرت أيضاً بين المجرات في العناقيد المجرية، وفي لغة ومصطلحات علماء الكون، نقول إن المادة المظلمة تبنت على مستويات عديدة. وبالطبع سوف نجادل، بأن المادة المظلمة تكشفت على كل المستويات في الكون، وأتينا أيتها وجهنا نظرننا لرؤية المادة المضيئة، لابد أن نتوقع أن نجد المادة المظلمة أيضاً.

وبالانتهاء من هذه النقطة، دعنا نتحول إلى السؤال: كيف أن وجود - ما أوضحناه من قبل - من نوع غير متوقع من المادة، يمكنه أن يتوصل إلى حل للمشاكل التي صادفتنا، في محاولتنا سبر غور بنية الكون المروعة.

الفصل السابع

كيف يمكن للمادة المظلمة أن تجد حلاً لمشكلة بنية الكون

والآن، علينا أن نتأمل تخميناً في زمن كانت فيه الهمهمات الزاحفة والظلمة المروعة
التي تملأ هوة الكون المسحقة

(ويليام شكسبير)

مسرحية "هنرى الخامس" - الفصل الرابع - المشهد الأول

أدى اكتشاف المادة المظلمة إلى إمالة اللثام عن أننا لا نرى معظم مادة الكون.
ومن البديهي فقط أن نسال عن تأثير ذلك على مشكلة شرح البنية الرخبة للكون. وربما
يبدو غريباً أن يعلق علماء الكون آمالهم وتطلعاتهم حول فهم طبيعة الكون، على مثل
هذه المادة الغامضة، وأعنى بها المادة المظلمة، بيد أن هذا هو ما يحدث تماماً في
الوقت الحاضر.

وليس ذلك - ببساطة - حالة تعلق بآمال واهية، حيث ننتهز فرصة جهلنا بطبيعة
المادة المظلمة، لنعزى لها، كل الخصائص التي نحتاجها لحل المشاكل التي نواجهها،
وفي الحقيقة، سوف نرى أننا في واقع الأمر، لسنا في حاجة لمعرفة تفاصيل كيفية
سلوك المادة، لكي نتعرف على الطريقة التي سوف نتمكن بها من إيجاد حل لمشكلة

تكوين المجرة. ومع الاعتراف بوجود المادة المظلمة فى الكون، يبدو أننا حصلنا على آخر قطعة كنا نحتاجها لنتمم بها أحجية الصور المقطوعة ونستكمل صورة الطريقة التى تطور بها الكون، ليصبح على وضعه الحالى.

والفكرة الرئيسية لدور المادة المظلمة فى الكون، من السهل إدراكها، كما رأينا، فإن الصعوبة الجوهرية فى تصور كيفية تطور الكون، لابد أن تكون لها علاقة ما، بالحقائق التى مفادها أنه إذا كان الكون بأسره مكوناً من مادة عادية، لما أمكن للمجرة أن تبدأ التشكل إلا فى وقت متأخر إلى حد كبير، وذلك بعد أن برد الكون إلى الدرجة التى أمكن فيها للذرات أن توجد، وتسمح للإشعاع بفك الاقتران. وقتئذ، كان تمدد الكون قد أدى إلى نشر المادة على نحو رقيق للغاية، إلى الحد أن الجاذبية بمفردها لن تكون قوية بما يكفى لجذب كتل من المادة معاً، قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة. وفى الفصل الرابع كونا صورة ذهنية. وناقشنا كل الطرق التى قد نفكر فيها، لنعطى العملية "دفعة البداية"، ولكن يبدو أنها تتناقض مع بعض الحقائق والأرصاء التى ثبتت صحتها.

وإذا قبلنا فكرة أن معظم الكون ليس فى صورة مادة مألوفة، فإن هذه الصعوبة المذكورة آنفاً، سوف تفقد بعضاً من قوتها، وعلى الرغم من أن ضغط الإشعاع الذى يتفاعل مع البروتونات والإلكترونات فى بلازما الكون الأولى، ربما يمنع تكثف المادة العادية، إلى ما بعد تكون الذرات، وليس ثم سبب على الإطلاق، يحول دون حدوث مثل هذا، للمادة المظلمة. افترض - لمجرد المناقشة - أن لدينا مرشحاً للمادة المظلمة، توقف عن التفاعل مع الإشعاع فى وقت مبكر للغاية، من حدوث الانفجار الأعظم، ونقل مثلاً فى اللحظة الأولى، ويمكن أن يظهر هذا الموقف إلى الوجود، إذا كان التفاعل بين جسيمات المادة المظلمة مع الإشعاعات، اعتمد على الطاقة التى تنبعث عن الاصطدامات بينهما، ومن ثم تتضايل قوتها، عندما تنخفض درجة الحرارة، عن مستوى معين. وفى مثل هذه الحالة، يمكن للمادة المظلمة أن تبدأ التجمع فى شكل كتل، تحت تأثير الجاذبية، قبل زمن طويل، من تكوين الذرات، وإن يمنع ضغط الإشعاع هذا النوع من التكتل، ذلك أن فرضنا مفاده أن الإشعاع لا يمكنه أن يمارس ضغطاً على المادة المظلمة، كما يفعل مع المادة العادية.

ولو حدث هذا، عندئذ عندما تتكون الذرات وتصبح المادة العادية حرة فى أن تبدأ التكتل، ستجد نفسها فى كون فيه تركيزات مروعة من الكتل، موجودة بالفعل، وسوف تكون أجزاء من المادة العادية منجذبة بقوة إلى الأماكن، التى تكدست فيها من قبل المادة المظلمة، ولتو سوف تتحرك بسرعة إلى هذه المواقع. وتشبه هذه العملية، صب ماء على سطح يمتلئ بالحفر العميقة، إذ سرعان ما يندفع الماء إلى هذه الحفر، وسرعة فيضان الماء لن يكون له - تقريباً - أى علاقة بما تؤثر فيه أى كمية صغيرة من الماء على كمية أخرى، وهكذا تستمر المجادلة، فما إن تتحرر المادة العادية، من التقييدات التى فرضها عليها ضغط الإشعاع، فإنها سوف تسقط فى "الحفر" التى أوجدتها بالفعل المادة المظلمة، ومن ثم، فإن المجرات والبنى الكونية الأخرى، سوف تتشكل - بسرعة هائلة - بعد فك اقتران الإشعاع، وكل المجادلات حول "المدى الزمنى" الذى سبب لنا مشاكل وصعوبات عدة فى الفصل الرابع، سوف تصبح غير ذى علاقة بالموضوع.

وتكمن روعة هذه الفكرة فى أنها تأخذ مشكلتين - عدم كفاية المدى الزمنى لتشكيل المجرات ووجود المادة المظلمة - وتضعهما معاً، لتصل إلى حل للمشكلة المركزية العويصة التى تتعلق ببنية الكون.

ووفق افتراضنا، فإن المادة المظلمة لها مدى زمنى أطول من المادة العادية، لأنها فكّت اقترانها فى وقت أبكر بعد الانفجار الأعظم. كما كان لديها وقت طويل للغاية، لكى تتكتل معاً، قبل أن تتحرر المادة العادية، وتعمل نفس الشيء. والحقيقة بأن المادة العادية - عندئذ - تسقط فى حفرة تجاذبية - كانت قد تكونت بهذه الطريقة، تساعدنا فى تفسير لماذا نجد المجرات محاطة بهذه الهالة من المادة المظلمة. إن هذا الافتراض يقتل عصفوريين بحجر واحد.

بيد أننا لابد أن نأخذ فى اعتبارنا، بأنه عند هذه النقطة، لا نملك إلا فكرة ربما تحقق شيئاً ما، ولكنها لا ترقى إلى مرتبة النظرية الراسخة البنيان.

لكي نعبر الفجوة ما بين الفكرة والنظرية، علينا أن نجيب عن سؤالين مهمين ولكنهما معقدان (١) كيف يمكن للمادة المظلمة أن تسبر غور بنية الكون (٢) ما المادة المظلمة؟

المادة المظلمة الساخنة والباردة

يمكننا أن نبدأ بتفحص هذين السؤالين، بالتفكير ملياً حول الطريقة، التي باستطاعة المادة المظلمة أن تنفصل بها عن السحابة الساخنة المتمددة، من المادة التي شكلت الكون المبكر، وبالمثل مع مناقشة فك اقتران المادة العادية، بعد تكون الذرات كما أوضحنا في الفصل الثالث، سوف نطلق على فصل المادة المظلمة "فك الاقتران" أيضاً، وتحويل مثل هذا، الذي يؤدي إلى تكوين الذرات، لا يحتاج إلى حدوث فك الاقتران كل ما يجب حدوثه، هو أن قوة التفاعل بين الجسيمات، التي تشكل المادة المظلمة، تنخفض تحت نقطة معينة، بحيث يكون بقية الكون قادراً على ممارسة ضغط معقول عليها. بعد هذا، سوف تستمر المادة المظلمة في طريقها، غير مكترثة لأى شيء آخر، يحدث حولها. ويتضح أنه من وجهة نظر، خلق بنية الكون الذي رصدت بشكل علمي ومنظم، فإن أكثر الصفات المميزة أهمية، لعملية فك التقارن للمادة المظلمة، هو سرعة الجسيمات، عندما يتم تحريرها من كل قيودها، وإذا كان فك التقارن قد حدث في وقت مبكر للغاية بعد الانفجار الأعظم، لجاءت المادة المظلمة بجسيماتها التي تتحرك بسرعة مذهلة، تقترب من سرعة الضوء. وإذا كان هذا ما حدث، نقول بأن المادة المظلمة ساخنة، أما إذا حدث فك التقارن، عندما كانت الجسيمات تتحرك ببطء - وتحديدًا أقل من سرعة الضوء - نقول بأن المادة المظلمة باردة^(١).

(١) لاحظ أن التعبيرين "ساخن" و"بارد" يعزوان إلى سرعة الجسيمات، عندما يفك اقترانها، وليس لدرجة حرارة الكون في ذلك الوقت، ومن حيث المبدأ، يمكن لجسيم خفيف أن يكون (ساخنًا)، حتى لو جاء متأخرًا بعد الانفجار الأعظم، بينما قد يكون الجسيم الثقيل (بارداً) حتى لو جاء مبكرًا بعد الانفجار الأعظم. (المؤلف)

من بين أنواع المادة المظلمة التي يضعها علماء الكون في اعتبارهم، "النيوترينوات" (انظر الفصل العاشر)، التي تعد أفضل مثال للمادة المظلمة، وكل الجسيمات التي سوف نناقشها في الفصل التاسع، باردة، ونوع من المادة المظلمة - الأوتار الكونية التي سوف تتم مناقشتها في الفصل الثاني عشر - لا ينطبق على هذا النظام من التصنيف، لأنها لا تتكون من جسيمات على الإطلاق. وفي بقية هذا الفصل سوف نبحث في كيفية عمل المادة المظلمة الساخنة والباردة، في كون يتمدد، على أن نرجى التساؤل عن ماهية المادة المظلمة إلى ما بعد.

واتضح أن المادة المظلمة الساخنة، إذا كانت تعمل بمفردها، فهي بالتأكيد لا يمكنها تفسير ما نلاحظه في الكون، وأنه لا بد من تعديل على نطاق واسع لسيناريو المادة المظلمة الباردة، إذا ما أريد أن يبقى كمرشح للنظرية النهائية، إنها تلك الظروف والعوامل غير الكافية ولا المقبولة، التي سادت في وقت معين، بالإضافة إلى الرية في نوع الجسيمات، سوف تكون المادة المظلمة الباردة، والتي أدت - في نهاية الأمر - إلى دفع العلماء النظريين إلى التفكير ملياً في الأوتار الكونية.

التدفق الحر وانقضاء المادة المظلمة الساخنة

عندما يتحدث علماء الكون عن المادة المظلمة الساخنة، يكون ما يشغل بالهم (كما رأينا توأ) جسيم يسمى "النيوترينو". وسوف تشغلنا صفاته المميزة بشكل أكثر تفصيلاً، كلما تقدمنا في البحث. وللحظة الزائلة سوف نلاحظ ببساطة أن "النيوترينو" جسيم ينبعث أثناء التفاعلات النووية، وبالتالي، يمكن رؤيته في مختبراتنا حالياً. وكتلة النيوترينو، إما أن تكون صفراً أو ضئيلة للغاية، وعادة تنطلق النيوترينوات بسرعة الضوء أو قريباً منها.

والفكر السائد في الوقت الحاضر بهذا الصدد، أنه عندما كان عمر الكون ثانية واحدة، لم تكن جسيمات النيوترينوات تتفاعل - بدرجة كافية - مع المادة العادية،

بحيث تتأثر بضغط الإشعاع. ومن ذلك الحين، زادت كمية النيوتريونات وبردت ذاتياً، مكونة صورة مرئية لإشعاع الموجات الدقيقة الكوني.

وإحدى طرق التفكير حول العملية التي أدت إلى فك تقارن النيوتريونات، مفادها أنها تحدث عندما يندفع النيوتريونو خلال المادة، دون التفاعل معها. وثمة عاملان يؤثران على هذا الاحتمال المرجح: كثافة المادة (الذي يخبرنا عن عدد المرات التي تقترب فيها النيوتريونات من الجسيمات الأخرى)، ومدى احتمالية اقتراب نيوتريونو من جسيم آخر، والتفاعل معه. وبعد أن أصبح عمر الكون ثانية واحدة، كانت هذه الاحتمالية الموحدة، منخفضة إلى الحد، أننا نقول إن النيوتريونات. قد فك تقارنها.

وإنفترض جدلاً أن نفس هذه العملية قد حدثت لأى نوع من المادة المظلمة الساخنة.

ولنكمل القصة، بينما كانت سحابة النيوتريونو تتمدد، تحركت خلال مناطق من الكثافة العادية، دون وقوع الكثير من التفاعلات. بيد أنها لو صادفت منطقة من الكثافة العالية - التي أطلقت عليها من قبل تركيز كتلة - فإنها سوف تتفاعل وتمزق التركيز إرباً. سوف يحدث هذا، لأن الاحتمالية الأولى التي ذكرت آنفاً، والتي تتعلق بمصادفة جسيم آخر، سوف تكون أكبر في حالة تركيز الكتلة، من أى مكان غير ذلك. وعلى حد قول الفلكي (جاك بيرنز) من ولاية أريزونا، أن هذا سوف يؤدي إلى تفكك تركيزات الكتلة مثل قذيفة مدفع، منطلقة بسرعة عالية، ويكون بمقدورها تدمير جدار غير محكم البناء، دون أن يبطل هذا التصادم من سرعتها بدرجة كافية. وسوف تستمر هذه العملية إلى أن يبرد التمدد سحابة النيوتريونات إلى الحد الذي تتحرك فيه النيوتريونات بسرعات منخفضة، تصل - مثلاً - إلى أقل من عُشر سرعة الضوء. وعند هذا المستوى من الطاقة لا تعد النيوتريونات قادرة على ممارسة ضغط، حتى على التركيزات بالغة الكثافة، وسوف تتوقف عن تأدية أى دور فى الانهيار التجاذبى. وما بين الوقت من فك التقارن وخفض السرعة، يقال إن النيوتريونات فى حالة "تدفق حر".

عندئذ، يمكن للنيوتريونات الثقيلة أن تفكك تركيزات الكتلة، لوقت ما بعد فك التقارن، وبينما يحدث هذا، لا تستطيع النيوتريونات أن ترتحل أكثر من مسافة محدودة، هي بالتأكيد لا تزيد على سرعة الضوء في نفس المدى الزمنى. وبمعنى آخر، إذا بدأ النيوترينو مساره في تركيز مادة ضخم للغاية، فإنه لن يستطيع أن يتخلله بالكامل في الوقت المتاح. بيد أنه إذا بدأ في تركيز صغير، سيتمكن من اختراقه تماماً، ويؤدى دوراً مثل قذيفة المدفع في الجدار غير محكم البناء. وتكون النتيجة أن التدفق الحر للنيوتريونات سوف يفكك التركيزات الكتلية الصغيرة، بيد أنه سوف يترك التركيزات الضخمة - إلى حد ما - لا تمس.

ومثل هذا التقويض الانتقائى لتركيزات معينة في الكون المبكر، الذى حدث قبل زمن طويل من فك تقارن الإشعاع وبدء الانهيار التجاذبى بشكل عظيم الشأن، كان يعنى بالتأكيد أن النيوتريونات قد دمرت كل نواة محيطة بها، وهى التى يمكن أن تتكثف لتشكل مجرات حجمها أقل من حد معين. وبمقدورنا تقدير هذا الحجم. إذ يمكن التوصل إليه بحساب المسافة التى ارتحلتها النيوتريونات خلال تدفقها الحر. واتضح أنها ذات كميات مروعة، تقريباً فى حجم العناقيد المجرية الفائقة. ومن ثم، فعندما بدأ الانهيار التجاذبى، كانت مراكز لكتلة - الأصغر والأسرع نمواً - فى حجم العناقيد المجرية الفائقة.

عندئذ، فإن وجود التدفق الحر للنيوتريونات، يخبرنا أن نظريات المادة المظلمة الساخنة، يجب أن تتنبأ بتتابع هذه الأحداث التالية:

أولاً، أن المادة المظلمة الساخنة عليها أن تجمع المادة العادية فى كتل فى حجم العناقيد المجرية الفائقة، وحينئذ، فإن هذه الكتل الهائلة تتفكك إلى كتل فى حجم العناقيد المجرية، ثم تتفكك تلك الكتل بالتالى إلى كتل أصغر فى حجم المجرات. وهذا النظام من التركيب المنظم لأجزاء مترابطة، يطلق عليه عادة سيناريو من أعلى إلى أسفل، لتشكيل بنية فى الكون وليس ثمة غموض فى إمكان حدوث تفكيك للعناقيد المجرية الفائقة إلى مجرات: وكما رأينا فى الفصل الرابع، فإن التأثيرات العادية

للجانبية، كافية لتفكيك أى نسق من المادة المنتشرة فى أرجاء الكون، وتحويلها إلى كتل صغيرة خفيفة لا شكل لها، وتكمن المشكلة فى المدى الزمنى التى تجرى فيه هذه الأحداث، فالمادة المظلمة الساخنة تتنبأ بكون، تكون فيه عناقيد المجرات قديمة العهد، إلا أن المجرات ذاتها تكون فى بداية مراحل التطور والنمو. وهذا عكس ما نلاحظه تماماً. وعلى سبيل المثال، فإن مجرتنا "الطريق اللبنى" تحتوى على نجوم عمرها أربعة عشر بليون سنة على الأقل، أى بالتقريب مثل عمر الكون. وبمعنى آخر، ثمة نجوم فى مجرة "الطريق اللبنى"، تشكلت فى وقت سابق على نماذج المادة المظلمة الساخنة، التى تقترح كيفية تشكيل مجرة "الطريق اللبنى" ذاتها^(١).

وثمة صعوبات أخرى تواجهنا إذا اعتبرنا أن النيوتريونو الثقيل، أحد المرشحين كمصدر للمادة المظلمة، وسوف نناقش البعض من هذه الصعوبات فى الفصل التاسع، أما فى الوقت الراهن، فسوف نتفحص بشكل دقيق، الحقيقة بأن المادة المظلمة تتضمن مثل هذه المسافات الطويلة من التدفق الحر (وبالتالى تلك البنى الأولية الهائلة فى الكون)، والتى تخلى عنها معظم علماء الكون.

المادة المظلمة الباردة والتحيز

تتفادى المادة المظلمة الباردة هذه الصعوبة: بأن تتحرك الجسيمات بغاية البطء، عندما يفك اقترانها، حتى إنه لا يمكنها أن ترتحل بعيداً خلال مرحلة التدفق الحر، وبناء على هذا، حتى تركيزات المادة الصغيرة، يمكنها أن تبقى على قيد الحياة، ومن ثم، يكون لدينا موقف مفاده أن المجموعات الصغيرة من المادة، تتجمع معاً فى بادئ الأمر، وهذه المتكسبات الصغيرة، تتجمع لتشكّل ما نلاحظه من بنية كونية على مستوى هائل، وهذا ما يطلق عليه تصور "من أسفل إلى أعلى" لتشكيل الكون.

(١) لمناقشة كيفية تحديد أعمار أجرام فضائية كالنجوم والاكوان، ارجع إلى كتابى "تأملات على ارتفاع عشرة آلاف قدم" Meditations at 10,000 Feet. (لؤلؤ)

والى جانب ذلك، فإن نتائج الإحصائيات والحسابات والتقديرات التى تمت على نماذج المادة المظلمة الباردة، أظهرت أن كل نموذج يقدم عدداً من النجاحات الأخرى، إنه يتنبأ - على سبيل المثال - أن المجرات تتشكل على مستوى كئلى مقيد إلى حد ما، وأوضحت هذه الإحصائيات والحسابات والتقديرات، أن المادة المظلمة يجب أن تنشئ مجرات يبلغ حجمها من نحو واحد على ألف إلى حوالى واحد على عشرة آلاف مرة، من حجم مجرة "الطريق اللبنى"، لا أكبر، ولا أصغر، وفى الواقع، فإن معظم المجرات المعروفة لها كتل فى حدود هذا المدى تقريباً، وقد سبب هذا التنظيم - دائماً - حيرة كئداء للفلكيين. لأن تلك الحقيقة (بالتناغم مع تفاصيل عديدة أخرى من منظومة تصنيف المجرات) يمكن تفسيره بسهولة، بافتراض المادة المظلمة الباردة. مما يعد انتصاراً باهراً فى علم الكون.

ولكن لسوء الحظ، فإن نتائج مسح الإزاحة نحو الأحمر، واكتشاف الفراغات والفنائل، شكلت اعتراضات خطيرة للمادة المظلمة الباردة، باعتبارها المكون الرئيسى لبنية الكون، حتى إن (مارك ديفيز) من جامعة كاليفورنيا فى بيركلى، وهو واحد من أشد المؤيدين لنظرية المادة المظلمة الباردة، كتب فى أحد مصنفاته "لا يمكن قبول نموذج المادة المظلمة الباردة الآن، لأنها لا يمكن أن تنتج فراغات هائلة مثل تلك التى اكتشفت فى كوكبة (العواء)، وتكمن المشكلة فى أن المسافة الصغيرة لتدفق المادة المظلمة الباردة، تعنى أن الكون لابد أن يكون قد تشكل من أجرام فضائية صغيرة فى حجم المجرة، ومن الصعوبة رؤية كيف أن التجمعات العشوائية للأجرام الفضائية الصغيرة، يمكن أن تشتمل على فراغات هائلة، من النوع الذى وجده المراقبون.

بيد أن الأفكار الباردة لا تفنى بسهولة، بدأ (ديفيز) ومعاونوه فى بيركلى، فى التفكير بعمق، حول العلاقة بين المادة المظلمة والمضيئة. وأدركوا أنه عندما فك التقارن، أصبحت المادة المضيئة تميل إلى الانجذاب إلى أكبر تركيزات المادة المظلمة المحيطة بها، أى إن المادة المضيئة لن تنتشت على نسق واحد فى الفضاء، بل تميل إلى التجمع حيث كانت كميات مروعة من المادة المظلمة، قد وجدت بالفعل. وإذا تطلعنا إلى الكون، فلن نشاهد المناطق التى توجد فيها كل المادة المظلمة، ولكن فقط تلك المواقع التى

جذبت فيها كمية كافية من المادة المضيئة، لتشكل مجرة أو عنقوداً مجرياً، وبلغت العصر، فإن نظرتنا إلى الكون بالضرورة تكون "منحازة"، ذلك أننا نرى المادة المضيئة لا غير. وجادلت مجموعة بيركلي، أنه من الممكن واقعاً، أن تكون المادة المظلمة منتشرة بشكل أكثر اتساقاً، من المادة المضيئة، ومن ثم، فإن الفراغات الهائلة التي نراها، ربما تحتوى بالفعل على مادة مظلمة داخلها.

ولعلنا بعقد مقارنة مبنية على التشابه الجزئي، سوف يساعدنا على إيضاح وجهة النظر هذه المتحيزة عن الكون، والتي تستلزم وجود المادة المظلمة الباردة، كأساس لها، تعلم أن قاع المحيط يزخر بالتلال الصغيرة والجبال. هب أن تلك التضاريس من المرتفعات، تنتشر باتجاهات مختلفة، أكثر أو أقل اتساقاً على قاع المحيط، وأن قاع المحيط يتميز بوجود تموجات من الارتفاعات والانخفاضات الرقيقة والمنتظمة، كما يظهر في (الشكل ٧-١).



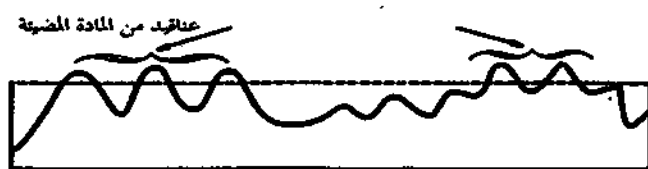
الشكل 7.1

وإذا كان بمقدورك رؤية قاع المحيط بالكامل، فسوف تقول إن المادة فيه موزعة - بشكل أو آخر - عشوائياً، ولن تكون هناك إشارات من ذلك الشيء الذي أطلقنا عليه البنى ذات المدى الواسع، ومع هذا، فلنفترض جديلاً، بأنك لا تستطيع سوى رؤية الأرض التي تقع أعلى مستوى المحيط، ومن ثم، كما هو موضح، سوف ترى مياه المحيط "تتفكك" بواسطة سلسلة من الجزر، بيد أن هذه الجزر، سوف تميل إلى التجمع على شكل عنقود في المواقع التي توجد فيها الأجزاء العالية من تموجات المرتفعات والانخفاضات الرقيقة المنتظمة^(١) وإذا نظرت إلى الجزر فحسب، يمكنك الاستنتاج بأن

(١) في الواقع أن هذه هي الطريقة التي تشكلت بها جزر هاواي، من براكين أعماق المياه. (المؤلف)

التلال تحت سطح المحيط، توجد فى عناقيد، وأن بنية القاع عبارة عن مناطق تركيز شديد من التلال التى تتوزع مع فراغات ضخمة. وتلك الفراغات يمكن رؤيتها كامتدادات هائلة من المياه المنبسطة، نون أى جزر.

وينفس هذه الطريقة تماماً - كما يجادل الباحثون - لا تتبع الفراغات والفتائل التى نراها فى السماء، ذلك التوزيع الحقيقى للمادة فى الكون، وإنما فقط القمم والنقاط العالية. وأعملوا هذه الفكرة لى تصاغ بالطريقة التالية. قاموا أولاً بحساب التوزيع الذى توقعوا أن توجد به المادة المظلمة الباردة، وحصلوا على نموذج قريب مما هو موضح فى (الشكل ٧-٢). ثم أخذوا فقط قمم ذلك التوزيع - إنها تلك الأجزاء التى تعلو الخط المنقط - وقالوا بأن هذه هى المواقع التى نرى فيها المادة المضيئة التى تجمعت فى شكل مجرات.



الشكل 7.2

واستخدم (ديفيد) وزملاؤه نفس هذه الفكرة، لوضع مخطط بياني لتوزيعات المجرات، يشبه إلى حد كبير، ما يرصد بالفعل فى السماء، وسواء كان ذلك قد قيل عنه إنه وجد حلاً لمشكلة بنية الكون، فهذا أمر آخر. وهذا النموذج الذى استند على فكرة التحيز، مازال يتعرض للانتقادات، حيث لم يفسر وجود فراغات هائلة ذات جواف حادة. على الرغم من أن اكتشاف مجرات صغيرة فى فراغ كوكبة (العواء)، كان هبة من السماء للباحثين، ذلك أنه أعفاهم من الحاجة إلى إخراج "كل" المادة المضيئة من الفراغات التى اكتشفوها، والرأى عندى أنه - فى الوقت الحاضر - لا يمكن استبعاد المادة المظلمة الباردة بما تتضمنه من تحيز، كتفسير لمشكلة بنية الكون.

وما زال المؤيدون لها، يبذلون الجهد والكثير من الوقت، لتفادى الانتقادات الحادة، وهم يقومون بمحاولة "ترقيع" التصدعات في النظرية، وسوف تتناوبى الدهشة، إذا كانت سوف تعطينا القول الفصل لمشاكلنا، وعلق (مارك ديفيد) بنفسه، في اجتماع عقد مؤخراً. بقوله "أعتقد أن هذا ليس حلاً نهائياً". ومع هذا، تظل أحد أفضل البراهين، لتفسير ما اكتشفناه في السماء.

وماذا الآن؟

يبدو إذن، أن المادة المظلمة تؤدي دوراً مهماً، في تشكيل بنية على مستوى هائل في الكون، ذلك أنه يمكنها أن تفك اقترانها في وقت مبكر، وتكون تركيزات كتلية، تقوم المادة المضيفة بالانجذاب إليها لاحقاً. إذا صح ذلك، عندئذ سوف تثار بعض التساؤلات الواضحة. أولها - الذي سوف نعالجه في الفصل التالي - هو كم من المادة المظلمة يربض في الكون. والثاني، وقد أشرنا إليه آنفاً، هو التساؤل عن طبيعة المادة المظلمة.

ويبدو واضحاً أن كل ما نحتاج إليه. لنتجت كوناً ببنية ذات مستوى مروع - وجود مادة مكونة من جسيمات ثقيلة (حتى تتمكن من ممارسة قوة تجاذبية)، تتحرك ببطء، عندما يفك اقترانها، ويغض النظر عن هذه المتطلبات "المتواضعة"، فإن علم الكون لا يضع قيوداً، على الشكل الذي يمكن أن تتخذه جسيمات المادة المظلمة. وهذا شيء جيد، لأنه يعني أننا لم نقيّد أفكارنا الكونية بإحكام إلى مرشح معين، ليكون جسيماً للمادة المظلمة. وفي نفس الوقت، يحد ذلك الافتقار لتعيين مواصفات المرشح، قدرتنا لتحديد طبيعة المادة المظلمة، وفي الواقع، سوف نرى أن أفضل ما نستطيع عمله، القول بأننا لا نعرف ما الذي يشكل ما يصل إلى تسعين بالمائة من بنية الكون، بيد أننا نرد بالتأكيد، أنها ليست شيئاً رأيناه - أبداً - من قبل.

الفصل الثامن

المادة المظلمة والكتلة المفقودة: ماذا يجب أن يكون مقدارها؟

هو ذا الزارع قد خرج ليزرع..

وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطريق،

فجاءت الطيور واكلته:

وسقط آخر على الأماكن المَحَجَرَة،

حيث لم تكن له تربة كثيرة..

وسقط آخر على الشوك

فطلع الشوك وخنقه:

وسقط آخر على الأرض الجيدة

فلعطى ثمرًا..

(إنجيل متى - الإصحاح ١٣ : عدد ٩-٣)

(الكتاب المقدس)

ربما تفكر، وفق ما يتراعى لك ظاهرياً، أن اكتشاف شيء ما كالمادة المظلمة، سوف يقلب المجتمع الفلكي رأساً على عقب، ويسبب أشكالاً عدة من الشكوك والمجادلات بين "الأثراك الشباب"^(١) الحريصين على تطوير علم جديد والمحافظين القدامى^(٢) الذين يحاولون الدفاع عن وجهات النظر التقليدية، وفي الحقيقة، لم يثر قط مثل هذا الجدل، وبالبطبع، فإن اكتشاف المادة المظلمة يبدو واحداً من أكثر أسرار العلم الحديث، المحتفظ بها في طي الكتمان. وعدم الاكتراث الذي استقبل به أول التصريحات عن هذا الاكتشاف، تعزى إلى حقيقة أن معظم علماء الفلك، قد اعتقدوا لفترة زمنية طويلة، أن مثل هذه المادة يجب أن توجد في مكان ما، من الكون. إنهم حتى أطلقوا اسماً على تلك المادة - "الكتلة المفقودة" - وذلك قبل التوصل إلى إمطة الثامن عن أي جزء منفرد من دليل، ينبئ عن وجود المادة المظلمة.

إن الصورة الذهنية المألوفة للعلماء، أنهم مجموعة من متصلبي الرأي لدرجة كبيرة، أفراد لا يصدقون إلا بالمشاهدة الفعلية، والذين لا يتقبلون أي أمر كحقيقة أو واقع. إلا بعد أن تثبت صحته، بما لا يقبل الشك، في المختبر. والحاصل فعلاً، أن الاعتبار "الرقيقة" مثل الجمال والرونق والبساطة، تؤدي دوراً أكبر بكثير - في الطريقة التي يفكر بها العلماء - مما يعتقد الناس. وإذا لم تكن الفكرة جذابة - متألقة ومقبولة في أعماق الوجدان عندما يتم تفسيرها - فإنه قد يقع على عيب المؤيدين لها التوصل إلى دليل مقنع للغاية، قبل أن يتقبلها المجتمع العلمي السائد.

وبالفعل، طورت اختباراً سهلاً لتحديد ذلك الوقت الصعب الذي سوف يعاني منه المتحدث، إذا ما شعر في ترويج أفكاره - أو أفكارها - للمجتمع العلمي على نطاق واسع. وعندما تقترح فكرة معينة، مثلاً خلال محاضرة، فإنني أنظر إلى جمهور الحاضرين. فإذا ما رأيت أنهم يبتسمون ويؤمنون برؤوسهم، وهم يتابعون المحاضرة، عندئذ أدرك أن هناك إحراز تقدم في فهمهم دون أي صعوبة. وإلا، فلتحذر، إذ إن قبول فكرة المادة المظلمة من الاتجاه العلمي السائد، يتبع تماماً هذا النموذج.

(١) اتحاد لمجموعات عديدة لإصلاح الإدارة في الإمبراطورية العشمانية. (المترجم)

(٢) عناصر النخبة من المخضرمين في الحرس الإمبراطوري لنبليون. (المترجم)

وإذا قبلت هذه الفكرة بسهولة، فإن هذا يعنى - غالباً - أن الناس يريدون تقبلها، وأنها فكرة مهد لها الطريق. والكون المتمدد الذى اكتشفه (هابل) يؤدى بارتياح - كما سوف نرى فى التو - إلى الشعور بأن كوناً معظمه من مادة غير مرئية، أكثر إمتاعاً وطبيعيّاً، من كون كل شىء فيه مضيئاً ومرئياً. ومن ثم، عندما اكتشفت المادة المظلمة، بدأت الإيماءات والابتسامات، وقال الجميع بالطبع، إذ كيف يمكن أن تكون غير ذلك؟ وكان يبدو طبيعياً للغاية، أن أحداً لم يزعج نفسه بإطلاع الصحفيين عليه.

رمح (أرخيئاس) فى كون متمدد

أتذكر مجادلة (أرخيئاس) - التى تمت مناقشتها فى مقدمة هذا الكتاب - عن الكون اللانهائى؟ حسناً، كانت المشكلة الوحيدة فى استدلالاته، أنه أخطأ فى تحديد اتجاه الرمح. لقد أراد أن يسير حامل رمحهِ إلى حافة الكون، ويقذف برمحهِ أفقياً. وماذا كان ينور بذهنه (وما الذى نعتقده عندما نقرأ مجادلاته) هو شىء ما، يشبه الوضع الموضح إلى اليسار فى (الشكل ٨-١)، فقد ألقى بالرمح بطريقة تجعل قوة الجاذبية تعمل فى اتجاه متعامد مع اتجاه الرمية.



للشكل 8.1

وفى كون هابل - على الرغم من ذلك - فإن حامل الرمح سوف يواجه موقفاً يماثل ما هو موضح إلى اليمين فى (الشكل ١-٨). سيلقى بالرمح إلى الخارج، وستعمل قوة الجاذبية فى نفس اتجاه الرمية، أى إنها سوف تعمل بطريقة معينة، تؤدى إلى إبطاء سرعة الرمح، وقد تجذبه إلى الوراء، حيث الكون المعروف، وإذا عاش (أرخيتاس) إلى يومنا هذا، فإنه - دون شك - سوف يدرك أن أفضل وسيلة لاختبار حجم الكون، تتضمن قذف الرمح رأسياً، تاركاً إياه يحاول الانطلاق بعيداً عن الأرض، بينما تعمل قوة الجاذبية جاهدة، على جذبه إلى الخلف من جديد.

ورمح (أرخيتاس) الذى يناسب عصرنا، هو "كوازر" مثل ذلك الذى يطلق عليه QSO1208 + 1011، ويعد - حتى الآن - أبعد جرم فضائى تم رصده فى الكون. لقد قذف حامل الرمح، برمحه بحيث يتحرك بعيداً عنا (وكذلك عن كتلة الكون المعروف) بسرعة تقترب من سرعة الضوء^(١). والسؤال الذى يثار حول QSO1208 + 1011 هو نفس التساؤل الذى أراد (أرخيتاس) أن يستوضحه عن رمحه. هل يواصل انطلاقه إلى أعلى، أم يتحول عن مساره إلى اتجاه معاكس ويعود إلى نقطة انطلاقه، فى وقت ما فى المستقبل؟

ولو تصورنا حامل الرمح يقف على سطح الأرض، بدلاً من حافة الكون، سوف تكون الإجابة عن السؤال أكثر بساطة. نعلم حجم المادة التى يشتمل عليها كوكب الأرض، ومن ثم، فإننا نعرف تماماً مدى شدة القوة التجاذبية التى سوف تبذلها على الرمح. وسواء استطاع الرمح أن يهرب إلى الفضاء أو أن يعود إلى الأرض، فإن هذا يعتمد على شيء واحد فقط، هو مدى سرعة انطلاق الرمح فى الفضاء، فإذا كانت أكثر من سبعة أميال^(٢) فى الثانية، سوف يتمكن الرمح من الهروب من جاذبية الأرض. وبخلاف ذلك، سوف يرتد من جديد، وهذا كل ما فى الأمر. وعلى الرغم من أن

(١) سرعة الضوء فى الفراغ ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية. (المترجم)

(٢) الميل يساوى ١,٦٠٩ كيلو متر. (المترجم)

(أرخيتاس) سيلاقى الأمرين فى تخيل رمح ينطلق بهذه السرعة، فإن "حامل الرمح" فى وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، لن يجد صعوبة على الإطلاق، وفى تحقيق تلك السرعة.

وفى الكوازرات النائية، فإن الصعوبة التى تواجهها هى العكس تماماً، من هروب الرمح من كوكب الأرض. ففى حالة الرمح، نعرف كتلة الأرض، وعليها أن نحسب السرعة المطلوبة للهروب. أما فى حالة الكواز، فإننا نعرف السرعة، ولكننا لا نعرف حجم الكتلة التى تجذبها إلى الوراء.

وبالتفكير ملياً فى مصير الكواز الذى يبعد عنا بمسافة مروعة، فإن المرء سوف يدرك - تَوّاً - أن القوة الوحيدة التى يمكنها ممارسة ضغطاً لتبطئ من سرعته، هى القوة التجاذبية، لبقية الكتلة فى الكون، وتعمل كل كتلة من كتل الكون المتوازية مع الكتلة الكلية للأرض - على الرمح المنطلق من سطح كوكب الأرض. وتحدد كلتا الكتلتين، مقدار سرعة الهروب التى يجب أن تتوفر لأى شىء. ومن ثم، عندما نتسائل عما إذا كان الكواز سوف يتحول - فى أى وقت - عن مساره إلى الاتجاه المعاكس، فإننا فى حقيقة الأمر، نسأل عن ماهية الكتلة الكلية للكون، أو بالأحرى، نسأل: ما وزن الكون؟

ولما كانت المادة المظلمة - مثل مثيلتها المادة المضيئة - يمكنها أن تبذل قوة تجاذبية، فهى أيضاً سوف تبذل قوة على ذلك الكواز الثانى.

وهذه النقطة البالغة الوضوح والمدركة بسهولة، يجب أن تطرح للمناقشة، لأننا عندما نقوم بوزن الكون، فإن علينا أن نضع كلاً من المادة المظلمة، والمادة المضيئة فى كفتى ميزان، إذا ما أردنا الحصول على إجابة جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد عليها.

وتبعث القوة المبذولة على كواز قصوى، بواحد من أهم الأسئلة، التى يمكننا طرحها عن كون هابل: هل يستمر التمدد إلى الأبد، أم أنه سوف يتوقف فى زمن غير محدد فى المستقبل، ويعكس اتجاهه؟ وهذا السؤال يفرض نفسه بقوة ويسترعى الانتباه بشدة، بمجرد رسوخ حقيقة الكون المتمدد.

وهناك فقط ثلاث إجابات محتملة لهذا السؤال، يتعلق كل منها بنوع مختلف من الكون:

(١) ربما لا توجد شمة مادة كافية في الكون، لتعكس اتجاه التمدد. في هذه الحالة، فإن الكوازرات التى تتجه إلى الخارج وكذلك المجرات، سوف تبطئ بمرور الوقت، ولكنها لن تتوقف أبداً. وعندئذ نقول بأن الكون "مفتوح".

(٢) ربما تكون هناك كتلة كافية لتبطئ وتتوقف ثم تعكس اتجاه حركة الأجرام الفضائية الأكثر بعداً في الكون. وأن التمدد الكونى الذى نلاحظه فى الوقت الحاضر، سوف يتحول إلى تقلص كونى، الذى يشير إليه بعض علماء الفلك (وكانهم يتندرون) بالانكماش الأعظم. وفى هذه الحالة، فإننا نقول بأن الكون "مغلق".

(٣) ربما تكون كتلة الكون مروعة، بحيث تكون القوة التجاذبية، كافية بالكاد، لتبطئ وتتوقف هذه الأجرام الفضائية الأكثر بعداً في الكون، بعد مرور زمن غير محدد.

عندئذ، سوف يبطئ تمدد الكون إلى الأبد، ويتوقف عند زمن لا متناه، بيد أنه لن يعكس اتجاهه أبداً. ويقال عن مثل هذا الكون "مسطح". وكما سوف نرى، فإنه من بين هذه الاحتمالات الثلاثة، فإن الكون المسطح هو الأكثر بعداً للاهتمام. وإلى هنا، قد ناقشنا تمدد الكون، وعلاقته بالقوى التجاذبية، التى تبطئ من سرعة المجرات القصية. وهذا أسلوب فى التعبير يسهل علينا فهمه، لأنه مشابه للخبرة التى نكتسبها فى حياتنا اليومية. ولكنها ليست اللغة التى يمكن لعالم الفيزياء الفلكية استخدامها. وفى الأدب العلمى، عادة ما تستخدم مفردات اللغة التى وردت مصطلحاتها فى النظرية النسبية العامة لأينشتين. وبمعنى آخر، فإننا - حتى هذه النقطة - قد استخدمنا لغة نيوتن، لأنها مألوفة أكثر. والآن، أريد أن أستطرد بإيجاز لأعرفك بلغة أينشتين، إذ إنها مشوقة ومثيرة للاهتمام فى حد ذاتها، كما أنها تجعل بعض الموضوعات الفلكية، أكثر سهولة فى فهمها.

الكون المفتوح والمغلق فى النظرية النسبية العامة لأينشتين

إن أول شيء يجب أن نعرفه عن النظرية النسبية العامة لأينشتين، هو أنها - على مستوى المفاهيم - لا تتطلب مجهوداً خارقاً لاستيعابها. إن الفكرة الشائعة عن النظرية النسبية أنها شيء يتم به بأسلوب غامض، ثلة من العلماء الملتحين. وهم الذين يمكنهم التعامل معها، وهذه مجرد خرافة لا ترقى إلى مستوى الحقيقة، كما أنه ليس صحيحاً أن مجموعة من نحو اثنى عشر شخصاً فقط فى العالم كله، يمكنهم فهم هذه النظرية. لعل هذه الانطباعات كانت مقبولة ظاهرياً فى العشرينيات من القرن العشرين، أما اليوم، فإنها تعد مجرد أفكار ساذجة. إن المفاهيم الأساسية للنسبية، تدرس بشكل تقليدى لطلاب العلوم والفنون فى المناهج التمهيدية للفلك والفيزياء، ولا يمكن لأى طالب أن يسجل فى مقرر الفيزياء المتقدم فى إحدى الكليات الجامعية، دون أن يكون متمكناً تماماً من مبادئها. وحتى النواحي الرياضية البحتة فى النظرية النسبية العامة، يتم تدريسها - فى كل عام - لمئات الحاصلين على شهادات جامعية، وأتمنى أنه فى نهاية هذا الاستطراء، سوف يكون واضحاً أن فهم النظرية النسبية، فى مقدور أى شخص يرغب فى إعمال فكرة - أو فكرها - فى مفاهيمها الأساسية.

وَدَعُونَا نبدأ بأحد أكثر المفاهيم المروعة، وهى التى تتعلق بالزمكان، رياضى الأبعاد. مثل الرجل الذى انتابته الدهشة عندما اكتشف أنه يتحدث نثراً طوال حياته، إن معظم الناس يفاجأون بأنهم كانوا يستخدمون هذا المفهوم طوال الوقت.

حاول أن تتذكر آخر مرة، قلت فيها شيئاً ما مثل "سكون فى شيكاغو يوم الثلاثاء القادم"، إن هذه العبارة تتضمن فى ثناياها، معلومات يمكن تصنيفها تحت عنوانين رئيسيين، "متى" و"أين".

كم عدد الأرقام التى تحتاجها لتحديد هذه الـ "متى" و"أين"؟ أولاً، يجب عليك أن تحدد موقع مدينة شيكاغو. وهذا يتطلب توفر ثلاثة أرقام. إذ يمكنك - على سبيل المثال - استخدام خط العرض وخط الطول والارتفاع لتحديد نقطة فى الفضاء، نطلق عليها

(شيكاغو). وعموماً، فانت في حاجة إلى ثلاثة أرقام، لكي تذكر على وجه التحديد أي نقطة في فضاءنا العادي ثلاثي الأبعاد، أنت أيضاً في حاجة إلى رقم واحد لتعين بالضبط الوقت الذي تتضمنه عبارتك، ربما يكون ذلك الرقم هو الوقت في يوم الثلاثاء، الذي سوف تهبط فيه طائرتك. ومن ثم، لتتمكن من إعطاء معنى العبارة على نحو صحيح، ثمة أربعة أرقام تحتاجها. ثلاثة منها تتعلق بالموقع المكاني وواحد زمني. ويجمعهم معاً، فإن هذه الأرقام الأربعة، تشكل وصفاً رباعي الأبعاد.

وفي حياتنا اليومية، عادة لا نفكر في الزمن، كبعد رابع، ذلك أننا نفترض أن نهر الزمن هو نفسه في "نيروبي"^(١) أو في النجم "ألfa قنطورس"^(٢)، كما هو في مدينة (شيكاغو). ولأغراض ممارسة الحياة اليومية، فهذا الافتراض حقيقياً إلى حد ما، وبالتأكيد هو حقيقى ضمن الحدود التي نستخدم فيها الزمن خلال حياتنا اليومية. لا تبين الساعات توقيتاً مختلفاً، عندما نرتحل من مكان إلى آخر، كما أنها لا تتغير عندما نركب طائرة أو سيارة^(٣).

بيد أننا عندما نتحرك بسرعة تقترب من سرعة الضوء، أو عندما نكون قريبين من كتل بالغة الضخامة، فإن توقعاتنا اليومية عن استقلال الزمان والمكان، لا تعد تصف الكون بدقة. وفي هذه البيئات غير المعتادة، فإن البعد الرابع - الزمان - يصبح معقداً ومتشابكاً مع الأبعاد الثلاثة الأخرى. تماماً كما لو أنك لا تستطيع السفر من (شيكاغو) إلى (نيويورك)، بمجرد تغيير خط العرض وخط الطول فقط (بل يجب عليك أيضاً أن تغير الارتفاع)، ومن ثم، فعندما تقارن الحركة بين مركبتين فضائيتين صاروخيتين تنطلقان بسرعة هائلة، سوف تجد تغيراً ليس فقط في الأبعاد المكانية، بل أيضاً في البعد الرابع وهو الزمن.

(١) عاصمة كينيا بأفريقيا. (المترجم)

(٢) نجم في كوكبة "قنطورس" يبعد عن الأرض بحوالى ٤,٢ سنة ضوئية. (المترجم)

(٣) إن التغيرات التي تتعلق بالنطاقات الزمنية، مجرد اتفاقيات دولية قام بها البشر، وهي لا تدخل في إطار ما تناقشه هنا. (المؤلف)

وسوف تتحرك الساعات فى مركبتى الفضاء بمعدلات متباينة^(١)، ويشرح هذا الترابط لماذا نتحدث فى الفيزياء النيوتونية عن "الزمان والمكان"، ولكن فى الفيزياء النسبية الحديثة نقول "الزمكان".

نحن الآن مستعدون لمناقشة مفهوم آخر للنسبية، ذلك الذى يتعلق بمصطلح "طى الزمكان". وهذه هى أكثر الأفكار أهمية والتي يجب إدراكها، لكى نتفهم بنية الكون ذات الامتداد المروع. ولكن بادئ ذي بدء، أرجو أن تلاحظ أن هناك نظريتين منفصلتين للنسبية: الخاصة والعامة. وكلاهما مستمد من مبدأ أساسى واحد، ألا وهو مبدأ النسبية. ومفاده أن "قوانين الطبيعة كما يدركها أى مراقب، متماثلة".

وإذا كان المراقبون يتحركون بسرعات ثابتة، فإن اتباع النتائج الرياضية لمبدأ النسبية، يقودنا إلى النظرية الخاصة للنسبية. وهذه النظرية - التى نشرها أينشتين فى العام ١٩٠٥ - تشتمل على معظم التأثيرات المألوفة وغير المتوقعة للنسبية، وأغنى بها الساعات سريعة الحركة التى تبطئ فى توقيتها، والأشياء التى يزداد ثقلها عندما يرتفع معدل تسارعها، وهلم جرا.

وقد تم اختبار هذه النظرية جيداً بطرق عدة. وفى الواقع، فإن معجلات الجسيمات العملاقة تسرع البروتونات إلى ما يقرب من سرعة الضوء، هى أمثلة عملية لأجهزة صممت وفقاً لمبادئ نظرية النسبية الخاصة. واستمرار تشغيل معجلات الجسيمات بكفاءة، يقدم تأكيداً يومياً على صحة النظرية.

وإذا عمقنا تعريفنا للمراقب. ليتضمن حتى هؤلاء المراقبين الذين يتحركون بتسارع، عندئذ يودى بنا المبدأ إلى النظرية النسبية العامة، وهى نظرية تكتنفها الكثير من الصعوبات الكداء، من وجهة النظر الرياضية. وكان أينشتين قد نشرها فى العام ١٩١٥. وتعد نظرية النسبية العامة، هى أفضل نظرية حالياً عن الجاذبية، وكذلك فإنها تنشئ

(١) لكى نكون أكثر دقة، سوف تتغير الساعات، عندما تنطلق مركبتا الفضاء بأى سرعة، ولكن عندما تقتربان من سرعة الضوء، فإن التغير فى معدلات الساعات، سيصبح مهماً. تجد مناقشة كاملة أكثر عن النظرية النسبية العامة فى كتابى "الأفق غير المتوقع" "The unexpected Vista". (المؤلف)

مفهوم طى الزمكان. وإذا تفاضينا عن الرياضيات، فإننى سأحاول الآن أن أوضح لك كيف أن التعجيل يرتبط بالجاذبية، من خلال مبدأ النسبية، وبعدها سوف أقترح طريقة بسيطة، لتكون صورة ذهنية للكون، كما تراعى لعينى أينشتين.

ربما مررت بتجربة الولوج إلى مصعد يقف فى الدور الأرضى لمبنى مرتفع، وعندما يتحرك إلى أعلى، تشعر بنفسك وأنت تدفع من أسفل حتى تصل إلى الطابق المطلوب. وثمة احتمالات، بأنك قد اجتزت عكس هذه التجربة، عندما تهبط بالمصعد من أعلى طابق، إذ سوف تشعر بنفسك وأنت على وشك الطفو، عندما يبدأ المصعد فى الهبوط من أعلى، وهذه المشاعر ليست مجرد وهم. وإذا كنت تقف على ميزان صغير داخل المصعد، فسوف ترى "وزنك" - بالفعل - يزداد فى رحلة الصعود وينخفض عند الهبوط.

وهذا التغير الظاهرى فى وزنك داخل المصعد المتحرك، يرتبط مع تسارع وتباطؤ حجرة المصعد. (وتعرف أن ذلك حقيقى لأنك تشعر بالتغير فقط عندما يتحرك المصعد أو يتوقف). وهذا - باختصار - هو السبب فى أن النظرية النسبية العامة هى نظرية عن الجاذبية. ويخبرنا مبدأ النسبية، أن كل مراقب يتحرك بتسارع أم لا، لابد أن يرى نفس قوانين الفيزياء، تعمل فى إطاره - أو إطارها - المرجعى^(١). ولو فكرت فى تجربتك فى الوقوف على كفة الميزان الصغير ومراقبة قراءة الأرقام فى المقياس، ويخبرك المبدأ بأنه ليس ثمة طريقة لتحديد عما إذا كانت قراءة الميزان، ترجع إلى الحقيقة بأنك تقف على جسم يخضع لقوة الجاذبية، مثل الأرض، أو أنك فوق جسم يتسارع فى أعماق الفضاء بين النجوم. وفى كلا الموقفين، سوف يظهر الميزان الثقل (وحدة قياس قوة الجاذبية). وباختصار، فإن المبدأ يوضح بأنه ليس ثمة تجربة يمكن القيام بها، بحيث نخبرنا عما إذا كنا فى مركبة فضائية متسارعة، أو فوق سطح أحد الكواكب.

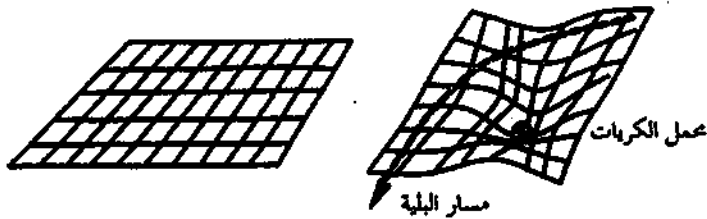
وهذه العلاقة بين التسارع وأثار الجاذبية، هى حجر الزاوية لنظرية النسبية العامة. ولا شك أن الجوانب الرياضية لهذه النظرية بالغة الصعوبة، بيد أن النتائج

(١) وإذا أردت إجراء هذه التجربة، فإننى أقترح أن تختار الوقت الذى يكون حولك عدد قليل من الناس، لقد قمت بالتجربة فى نهاية "برج سيزر" فى شيكاغو، وهى من أعلى المباني فى العالم، وحصلت على نظرات غريبة من الذين كانوا معى فى حجرة المصعد. (المؤلف)

المحققة عندما نبدأ من هذه العلاقة ونتابعها إلى ختامها المنطقي، فمن السهل تصورها ذهنياً، خاصة مع الاستعانة بضرب الأمثلة المبنية على التشابه الجزئي.

تخيل لوحة من المطاط المرن، مرسومة على هيئة شبكة قضبان متصالبة^(١)، كما هو موضح إلى اليسار، في (الشكل ٨-٢). ثم تصور إلقاء محمل كبير للكريات الصلبة، فوق لوحة المطاط المرن. سوف تكون النتيجة تشويهاً لها، كما هو موضح على اليمين في (الشكل ٨-٢). وإذا دحرجت بلية زجاجية عبر هذه اللوحة المشوهة، ستجد أن مسارها، سوف ينحرف عندما ترتطم بالوهدة^(٢) كما هو مبين في نفس الشكل. وكما هي الحال في المصعد، ليس ثمة طريقة، تعرف بها عما إذا كانت البلية الزجاجية قد انحرفت وغيرت مسارها، لأن لوحة المطاط شوهت أو أن قوة تجاذبية، تعمل بين البلية الزجاجية ومحمل الكريات. وبمعنى آخر لن يكون هناك فرق ما دام الأمر يتعلق بحركة البلية الزجاجية، بين كون تُحرَف فيه قوة الجاذبية - بين الأجرام الفضائية - مسار البلية الزجاجية، وكون آخر يقوم فيه محمل الكريات بتشويه اللوح المطاطي، وأن هذا التشويه - بدوره - يحرف البلية الزجاجية. والاختلاف بين هاتين الطريقتين في النظر إلى حركة البلية الزجاجية - في الأساس - هو الفرق بين نيوتن وأينشتين.

Dark Matter and Missing Mass: How Much Should There Be?



الشكل 8.2

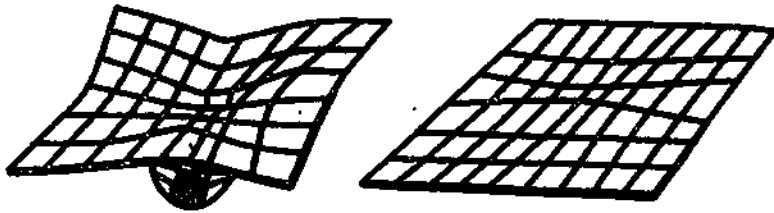
(١) مجموعة من المحاور للإحداثيات يمكن عن طريقها تحديد الموقع والحركة. (المترجم)

(٢) جزء منخفض مما حوله. (المترجم)

فى كون أينشتين لا تعمل القوى. وما يحدث هو أن وجود المادة يطوى بنية الزمكان، كما أن محمل الكريات شوّذه اللوح المطاطى. ونعزو الحركات التى اعتدنا أن تكون ملازمة لتأثير القوى، إلى تشوهات فى بنية الزمكان، أحدثها وجود المادة. وليس كون أينشتين ذلك الذى يناقض كون نيوتن، بل على الأصح، أن نفس الحقائق الملاحظة، قد تم تفسيرها بشكل مختلف.

وعلى سبيل المثال، يمكننا إعادة صياغة السؤال عن الكون المفتوح والكون المغلق، الذى تمت مناقشته آنفاً فى إطار لغة ومصطلحات نشاط النسبية العامة، تخيل تعاظم كتلة محمل الكريات، فى مثالنا، وفى نهاية الأمر، سوف نجد أمامنا موقفاً، يزداد فيه عمق التشويه أكثر وأكثر، بتأثير ثقل محمل الكريات. إلى أن يصل إلى مرحلة ينفلق فيها على نفسه.

والآن، تخيل ما الذى يمكن أن يحدث للبلية الزجاجية، فى داخل تلك الوحدة الكروية الشكل، المستقلة والكاملة بذاتها، والتى أحدثتها الكتلة الضخمة لمحمل الكريات. وربما تستطيع أن تدفع البلية الزجاجية إلى خارج القاع، مزوداً إيها بقليل من السرعة، وفى هذه الحالة، سوف تتدحرج لدرجة معينة، إلا أعلى جدران الفقاعة ثم سرعان ما تسقط إلى أسفل (انظر الشكل ٢-٨ إلى اليسار).



الشكل 8.3

ومن ناحية أخرى، تخيل أنك تدفع بقوة البلية من القاع، بسرعة كبيرة للغاية. وفي هذه الحالة ربما تنطلق على طول الطريق حول الفتحة المتكونة والملتفة حول نفسها. ولكن بصرف النظر عن مدى سرعة البلية، فإنه عاجلاً أو آجلاً، سوف ترتد إلى أسفل من جديد، إلى حيث بدأ انطلاقها، ويمثل هذا التشبيه، ما أطلقنا عليه "الكون المفلق"، وبمعنى آخر، إذا كانت الكتلة كبيرة بقدر كاف، يمكنك أن تتبنى وجهة النظر النيوتينية، وتقول بأنها تمارس قوة تجاذبية كافية، لجذب البلية إلى أسفل أو قد تأخذ وجهة نظر أينشتاين، وتقول بأن الكتلة كبيرة بقدر كاف، بحيث تطوى الفضاء على نفسه (أي "تغلغه"). وفي كلتا الحالتين، سوف تصل في النهاية إلى نفس النتيجة.

وإذا كانت كتلة محمل الكريات كبيرة بقدر كاف، سوف ينتج ما الذي أطلقنا عليه "كون مسطح". وبعبارة أخرى، سوف تسترجع شبكة القضبان المتصالبة - إلى حد ما - شكله العادي غير المشوه. وكما في (الشكل ٢-٨) إلى اليمين، سوف تكون شبكة القضبان المتصالبة، سطحاً مستوياً ومنبسطاً، يمكن أن تتدحرج عليه البلية الزجاجية (وهذا هو أصل الاصطلاح "الكون المسطح"). وإذا كانت الكتلة أقل من المقدار المطلوب، لإنتاج هذا "التسطيح"، يكون الكون في هذه الحالة، مفتوحاً. ولا يمكن التعبير عن هذا بالرسم على ورقة ذات بعدين اثنين (إذ إننا - برغم كل شيء - نتعامل مع أربعة أبعاد). إنني أفكر في الكون المفتوح على أنه يشابه تقريباً، سطح سرج^(١)، وما إن يبدأ محمل الكريات في التدحرج حتى يستمر، ولن يعود أبداً إلى الخلف.

وكما ترى، فإن التشابهات عديدة بين الطرق التقليدية والنسبية للنظر إلى الحركة، وهذا الأمر لا يثير الدهشة، إذ إن كليهما يصف نفس القوة التجاذبية. وإذا توخيت الدقة، فليس هناك سوى أمثلة قليلة يمكن بها بالفعل قياس الاختلافات بين طريقتي النظر إلى الجاذبية، وعموماً، تنطبق النسبية على مستويات المسافات المروعة وعلى الكتل البالغة الضخامة، ولكن تعطى نفس النتائج كما في الجاذبية النيوتينية، تقريباً

(١) يستخدم لوضع حمل على حيوان (غالبا حصان). (المترجم)

لكل المواقف، حيث يمكن بالفعل إجراء القياسات (وبمعنى آخر، لكل الظواهر التي تتضمن في ثناياها مسافات كونية أقل من عدة ملايين سنة ضوئية).

وتقوينا هذه الحقيقة إلى أحد أكثر المواقف إثارة للدهشة، في تاريخ العلم. إن النظرية النسبية العامة، على خلاف النظرية النسبية الخاصة، قد اختبرت بشكل بالغ الدقة في موقفين لا غير^(١). وعلى الرغم من الحقيقة، بأن نظرية النسبية العامة، من أكثر النظريات - على الإطلاق - ثورية، وقد قبلها العلماء على أسس تكاد تكون جمالية فنية. وتم قبولها بسرور، لأنها تتضمن مقداراً من الجمال والذوق الرفيع، ومن ثم، يجب أن تكون صحيحة. وهذا القبول من العلماء، دليل مقنع ورائع، إذ إن الرأي عندى، أن النتائج العلمية عادة يتم التوصل إليها بعمليات أكثر تعقيداً، من مجرد تقييم بسيط للحقائق التجريبية.

وعلى أية حال، فمن الواضح أنه أيما كانت اللغة التي نستخدمها لوصف التساؤل عن الكون المفتوح والكون المغلق، وتعتمد الإجابة على كمية واحدة: الكتلة الكلية للكون. وعن هذه الكمية يمكننا أن نوجه سؤالين متباينين: ما مقدار الكتلة هناك، وكم يجب أن يكون مقدار هذه الكتلة؟ دعنا نتفحص هذين السؤالين باختصار.

ما مقدار المادة التي نراها؟

إجمالي كتلة المادة في الكون، عادة يعطى في شكل مصطلح هو "الكثافة الخرجة للكون"^(٢) ويرمز لها بالحرفين ΩC . وتلك هي كثافة المادة التي تلزم لتشكيل كون

(١) كان اختباري النظرية النسبية العامة، عبارة عن انحناء الضوء والموجات الراديوية، عندما يدوران حول الشمس، وكذلك بعض التأثيرات الطفيفة المحددة في مدار كوكب عطارد، وشمة اختبار ثالث، يتضمن قياس الانزياح نحو الأحمر للضوء، عندما يتصاعد من بشر الجانبية لكوكب الأرض، بيد أن هذا الاختبار يتحقق من مبدأ النسبية، أكثر من تفاصيل النظرية النسبية العامة. (المؤلف)

(٢) القيمة التي يكون فيها الكون في حالة توازن ومتوقفاً عن تمدده. (المترجم)

مسطح. والكثافة الفعلية التي يتم رصدها، إما تكون - إذن - أقل أو أكبر من هذه القيمة. وفي الحالة الأسبق يكون الكون مفتوحاً أما في الحالة الأخيرة، يكون الكون مغلقاً. وقيمة الكثافة الحركية ليست كبيرة للغاية، إذ تعادل نحو بروتون واحد في كل متر مكعب من الفضاء. وقد لا يبدو ذلك مقداراً وافراً، إذا زودت بالرقم الهائل لعدد الذرات في متر مكعب من تربة الأرض، بيد أن عليك أن تتذكر بأن هناك قدرأ مروعاً من الفضاء الخالي، بعيداً في الكون، بين المجرات.

إن تقدير كمية المادة المضيئة في الكون، أمر بالغ السهولة. إننا نعرف مدى لمعان النجم المتوسط، ومن ثم، يمكننا الحصول على تقدير لأعداد النجوم في مجرة نائية. وحينئذ نستطيع أن نحصى عدد المجرات، في حجم معين من الفضاء ثم نضيف الكتل التي وجدناها. ويقسم الكتل على حجم الفضاء، نحصل على متوسط كثافة المادة في ذلك الحجم. وعندما نقوم بتنفيذ هذه العملية، سوف نجد أن كثافة المادة المضيئة هي تقريباً واحد إلى اثنين بالمائة من الكثافة الحرجة، وهي أقل بكثير مما نحتاجه لكي "نغلق" الكون. ومن ناحية أخرى، فإنها قريبة إلى حد كبير من القيمة الحرجة، مما يجعلك تتوقف عن البحث وتنتابك الشكوك وتمعن التفكير في الأمر. وعلى أية حال، فيمكن لهذا الكسر - من حيث المبدأ - أن يكون واحداً على بليون أو واحداً على تريليون^(١)، ويمكن أيضاً أن يكون قد حدث، إن كانت هناك مادة مضيئة يبلغ مقدارها مليون مرة قدر ما يتم الاحتياج إليه، لخلق الكون. ولكن ما السبب، في أنه من بين كل الكتل التي يمكن للكون تشكيلها، تكون تلك الكتل المقاسة من المادة المضيئة، قريبة إلى هذا الحد من القيمة الحرجة؟

يمكن للمرء أن يجادل دائماً، بأن هذه حادثة كونية، وهذه الأشياء تقع بمحض المصادفة، ثم تتطور لتصبح كما هي عليه الآن. ولكن من الصعوبة قبول ذلك التفسير، وأظن أن آخرين لهم نفس الرأي. ويدفعنا هذا إلى القول، بأن الكون بالفعل، له كتلة

(١) البليون = ألف مليون، والتريليون = مليون مليون. (المترجم)

حرجة، بيد أننا - بطريقة ما - نفشل فى أن نراها كلها. وكنتيجة لهذا الافتراض، بدأ الفلكيون يتحدثون عن "الكتلة المفقودة"، ويعنون بها تلك المادة التى تؤدى إلى التباين بين ما تم رصده، والكثافات الحرجة، ولم يستهونى قط هذا المصطلح، ذلك أنه يحمل بين طياته إشارة دينية، فعندما نقول بأن شيئاً ما "مفقود" ففى ذلك تلميح ضمنى، بأن هذا الشيء من المفترض أن يكون هناك. وليس لدينا أى دليل بأن أى كتلة "مفقودة"، ولكن مجرد شعور حدسى قوى، بأنه ربما تكون ثمة المزيد من المادة مختفية بعيداً هناك. وهنا النزوع إلى الإيمان فى كون أكبر حجماً مما توضحه المادة المضيئة، هو ما كنت أتحدث عنه آنفاً، عندما قلت بأن المسرح قد أعد لوجود المادة المظلمة، بذلك الإيمان الشائع بالكتلة المفقودة. ولعظيم رضائى (ولا بد أن أعترف، دهشتى)، فإن مصطلح "الكتلة المفقودة" قد أزيل - فى السنوات الأخيرة - من المعجم الفلكى. وتم استبدال به المصطلح الأكثر دقة وحيادية "المادة المظلمة".

ولنستطرد مع القصة، إن وجود الهالات المجرية ذات الكتل التى تزيد بعشر مرات عن المادة المضيئة فى مجرة ما، تدفع بتقدير الكثافة إلى مدى من عشر إلى عشرين بالمائة من القيمة الحرجة. ولو جال بخاطرنا، أننا قد اقتربنا إلى حد كبير من المادة المضيئة فقط، فإننا بالتأكيد أكثر قرباً الآن.

والمادة المظلمة فى العناقيد المجرية والعناقيد المجرية الفائقة، قد اكتشفت حديثاً جداً، لتحديث إجماعاً فى الآراء يعم بين الفلكيين، بالنسبة لمساهمتها فى الكتلة الكلية للكون. (وثمة مجادلة مفعمة بالحيوية عن هذا الموضوع، مازالت مستمرة حتى الآن). ويبدو أن النقطة الجوهرية، هى أنه عند تضمين المادة المظلمة، فإن الكثافة الكلية لكتلة الكون، مازالت لا تزيد عن ثلاثين بالمائة، من القيمة الحرجة.

واستمرار قيمة هذه الكتلة فى الارتفاع لتصل إلى القيمة الحرجة مع مرور الوقت، سوف تتم مناقشتها فى الفصل الثالث عشر. أما الآن، فسوف أقتبس، ببساطة، ملاحظة أبداها عالم الفيزياء الفلكية (ستيفن هوكينج). فقد سأل أحد زملائه عن مقدار

المادة المظلمة التي رصدت. أجاب (هوكنج) "منذ عشرين عاماً كان لديك اثنان بالمائة. واليوم لديك ثلاثون بالمائة. فلماذا لا تخرج وتنتظر من جديد؟".

كم يجب أن تكون عليه كتلة الكون؟

دور التضخم

ظهرت إلى الوجود فكرة الكتلة المفقودة، لأن كثافة المادة التي تم رصدها في الكون قريبة من قيمتها الحرجة. وعلى الرغم من ذلك، فحتى أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، لم يكن هناك سبب نظري ثابت، للافتراض بأن الكون - بالفعل - له كتلة حرجة، وفي العام ١٩٨١، نشر (آلان جوث) - كان وقتئذ في جامعة (ستانفورد)، أما الآن فهو في MIT معهد (ماساتشوستس) للتقنية^(١) - أول بحث يتضمن وجهة نظره التي صاغها في شكل نظرية، عرفت فيما بعد باسم "الكون المتضخم". ومنذ ذلك الوقت، أجرى على النظرية عدد من التعديلات التقنية، بيد أن النقاط الرئيسية، لم تتغير. ولأجل بحثنا في هذا الكتاب، فإن الملمح الأساسي للكون المتضخم، أنه أرسى للمرة الأولى ثمة افتراض نظري قوى، بأن كتلة الكون، لابد أن لها بالتأكيد قيمتها الحرجة. واشتق هذا التنبؤ من النظريات التي تصف تجميد القوة الشديد بعد الانفجار الأعظم ب ٣٥-١٠ ثوان. ومن بين العمليات الأخرى التي حدثت في ذلك الوقت، كانت عملية تمدد سريع للكون، الذي أطلق عليه فيما بعد "التضخم"، ويقودنا وجود ذلك التضخم إلى التنبؤ بأن الكون لابد أن يكون مسطحاً.

والعملية التي تؤدي إلى تجمد القوة الشديدة، ما هي إلا مثال على "تغير الطور"^(٢)، إذ إنها تتشابه في كثير من النواحي مع عملية تجمد الماء. إذ عندما يتجمد

(١) Massachusetts Institute of Technology. (المترجم)

(٢) الطور، جزء متجانس من مادة ما، يوجد في منظومة فيزيائية غير متجانسة ويمكن فصله عن هذه المنظومة أياً. (المترجم)

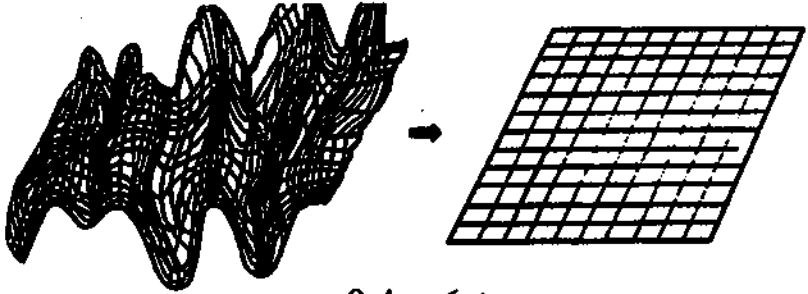
الماء إلى ثلج، يحدث له تمدد، وسوف تنتهشم زجاجة الحليب، إذا تركت في الخارج ليلة واحدة خلال فصل الشتاء - وعندما نقول بأن الكون يتمدد بنفس الطريقة، عندما يغير الطور، فإن هذا يجب ألا يثير الدهشة البالغة.

وما هو مدهش بحق، هو ذلك المدى المروع لضخامة التمدد الكوني. فلقد ازداد حجم الكون بعامل لا يقل عن 10^{50} ! وهذا الرقم عظيم القدر، إلى الحد أنه يكون بلا معنى للغالبية العظمى من الناس، ومنهم مؤلف هذا الكتاب. ودعني أصيغ لك هذا الأمر بالطريقة التالية: لو أن طولك ازداد فجأة بعامل في ضخامة ذلك الرقم، فإنك سوف تمتد من أول الكون إلى آخره دون وجود أي فراغ، وحتى لو زادت أبعاد بروتون واحد داخل ذرة مفردة في جسمك، بمقدار 10^{50} ، فإنه سوف يصبح أضخم من الكون بأسره. وعند 10^{-20} ثوانٍ، تحول حجم الكون من شيء نصف قطر تقوسه^(١) أصغر كثيراً من أصغر جسيم أولي، إلى شيء في حجم ثمرة كريب فروت^(٢) لا عجب إذن أن تعبير "التضخم" مرتبط بهذه العملية الكونية. وعندما قرأت للمرة الأولى عن الكون المتضخم، وجدت صعوبة في تصور معدل ذلك التضخم. وتساءلت: أليس مثل هذا النمو السريع في الكون، يناقض انتقادات أينشتاين للسفر أسرع من الضوء؟ ولو أن جسماً مادياً ارتحل من جانب ثمرة الكريب فروت إلى الأخرى في مدة 10^{-20} ثوانٍ، فإن سرعتها سوف تتجاوز سرعة الضوء بمقدار كبير. والإجابة عن هذا التعارض، يمكن أن توجد في مثال عجيب الخبز بالفصل الثالث.

وخلال فترة التضخم فإن الفضاء نفسه الذي يتمدد، مثل عجينة الخبز. ولا يتحرك أي جسم مادي - ولا حتى حبات الزبيب - بسرعة عالية في داخل الفضاء. ومن ثم فإن القيود ضد السفر أسرع من الضوء، تنطبق فقط على الحركة داخل الفضاء، وليس حركة الفضاء نفسه. وبناء على ذلك، ليس ثمة تعارض هنا، حتى لو بدأ هذا للوهلة الأولى. ويمكن وصف نتائج التمدد السريع للكون - بشكل أفضل - بالرجوع إلى رأى أينشتاين عن الجاذبية. قبل أن يبلغ عمر الكون 10^{-20} ثوانٍ، يفترض أنه كان ثمة شكل

(١) دائرة نصف قطرها من انحناء (رياضيات). (المترجم)

ما من توزيع المادة (وسوف نرى في التوابع بنيتها الدقيقة لا تحدث فرقاً). وبسبب هذه المادة، فإن الزمكان، يجب أن يكون له شكل مميز. ولأجل المجادلة، افترض ذلك السطح المتماوج في يسار (الشكل ٨-٤)، والذي يمثل هيئة الكون كشكل محدد، قبل أن يبدأ حدوث التضخم.



الشكل 8.4

ويمكنك أن تتخيل التضخم كامتداد مستمر من اللوحة، إلى أن يتجاوز حجمه الكون بأسره. ناهيك عن مدى التفاف السطح الأصلي، إذ عندما يتمدد إلى هذا الحد البعيد، فإن أى جزء من السطح سوف يماثل ذلك السطح المرسوم إلى يمين (الشكل ٨-٤)، وبمعنى آخر، فإنه بعد حدوث التضخم سوف يكون الكون مسطحاً، بغض النظر عن كيفية بدئه. وهذا التسطيع ليس مجرد حادثة عابرة، ولكنه نتيجة ضرورية لفيزياء التجمد، التي حدثت بعد 10^{-35} ثوانٍ من ميلاد الكون بالانفجار الأعظم.

وعندما صدم (جث) الأوساط العلمية بهذه النظرية، أكد لك بأنه كان هناك العديد من الابتسامات والإيماءات! وهذا الحل لمشكلة المادة المفقودة (أو باستخدام مصطلح علماء الكون "مشكلة التسطيع")، مثال كامل للأناقة والجمال، اللتين ذكرتهما آنفاً. إن الكون مسطح، لأنه لا يمكن أن يكون غير ذلك. إن تسطيع الكون، هو الحالة الوحيدة التي تتناغم مع القوانين الأساسية، التي تتحكم في التفاعلات بين الجسيمات الأولية. وبصرف النظر عن كيفية بداية الكون، سوف ينتهي به الأمر أن يكون مسطحاً. وهذه بحق فكرة رائعة.

والشيء المدهش الوحيد في التضخم، هو إلى أى مدى - على وجه الدقة - يريده من الكون أن يكون مسطحاً. إن كتلة الكون التي تم رصدها، يجب أن تعادل الكتلة الحرجة بدقة تبلغ جزءاً من 10^{-50} وهذا يعنى أن معدل التجاوز الذى تسمح به النظرية لخطأ ما فى الإحصاء لا يتعدى بروتوناً واحداً لكل سنة ضوئية مكعبة، أى ما يعادل تقريباً أميبا واحدة بالنسبة لجرة كاملة تحتوى على ملايين النجوم، ولا ريب أن مثل هذه الدقة المتناهية من المرجح أن تظل خارج نطاق القدرة الإنسانية لتحقيقها، بيد أنها - من جانب آخر - تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن التنبؤ قطعى لا لبس فيه.

ومن ثم، فمع قدوم الكون المتضخم، أصبح لدينا - للمرة الأولى - اعتقاد نظرى قوى، داعم ومؤيد للكون المسطح. وفى الواقع، فإن بعض الباحثين فى هذا المجال يتحدثون بالفعل عن مدى "الحاجة" للتسطيح. وحقيقة أننا توصلنا حتى الآن إلى ثلاثين بالمائة من الكتلة الحرجة للكون، وتوقعنا أن نصل إلى مائة بالمائة باستخدام أحد مقاييس الثقة^(١)، يجعل مشكلة اكتشاف الهوية الذاتية للمادة المظلمة، ذات أهمية بالغة. سوف أناقش فى التو بعض الأفكار التى تبحث فى هذا اللغز الكونى.

(١) مؤشر لمعرفة مدى الثقة فى شيء ما بوضع أهداف يمكن تحقيقها. (المترجم)

الفصل التاسع

مكونات مرشحة للمادة المظلمة

(اجمع الشكوك المعتادة).

سطر مشهور من الفيلم السينمائي (كازابلانكا)

من الواضح أن المادة المظلمة تؤدي دوراً بالغ الأهمية في كل من تطور الكون وبنيته، ولكن ما طبيعة مكوناتها؟ هل يمكن أن نفتنع بالفعل، بأننا نفهم الكون المحيط بنا، مع العلم بأن أكثر مكوناته انتشاراً - أي المادة المظلمة - غير معروفة لنا؟ حسن، إنه من الأسهل إذن التصريح بالمكونات التي لا توجد في المادة المظلمة، بدلاً من الإدلاء بالمكونات التي توجد فيها بالفعل. إن طريقة استبعاد السلبيات، على الرغم من أنها لم تكن قط عملاً براقاً، فإنها عادة تكون جد مفيدة. وبالتالي، سوف نبدأ اعتباراتنا عن هوية المادة المظلمة، باستبعاد أكثر المكونات المرشحة وضوحاً. وفي نهاية الأمر، سوف نقرر بانه أيًا كانت طبيعة المادة المظلمة، فإنها شيء - على الأرجح - لم تتم مشاهدته قط على كوكب الأرض.

المادة الباريونية^(١)

إن نوى الذرات التي تشكل كل المواد التي نصادفها في حياتنا اليومية، مكونة أساساً من بروتونات ونيوترونات. وهذه الجسيمات دون الذرية، أعضاء في فئة يطلق

(١) تنتمي إلى عائلة الجسيمات المركبة المحتوية على ثلاثة كواركات مثل البروتونات والنيوترونات. (المترجم)

عليها الفيزيائيون "الباريونات" (الجسيمات الثقيلة). وبالتالي، فإنك تسمع الفيزيائيين دائماً يشيرون إلى "المادة الباريونية" وما يقصدونه هو مادة من نوع معتاد، تكون نوى ذراتها مكونة من البروتونات والنيوترونات. ما دامت أن المادة الباريونية هي مادة عادية وتحيط بنا من كل جانب، فإنه من الطبيعي أن نجرى عليها أبحاثاً بادئ ذي بدء، في مناقشتنا حول المادة المظلمة. وهي الأكثر اعتياداً، من بين كل "الشكوك المعتادة"، وليس ثمة وسيلة نستطيع بها أن نستبعد - تماماً - إمكانية أن المادة المظلمة باريونية، على الرغم من أنه لأسباب سوف نشرحها توطاً، فإن هذا ليس مرجحاً.

إن المادة المظلمة الباريونية، يمكن أن تتخذ أشكالاً متعددة، إذ يمكن أن تكون غازاً مكوناً في معظمه من ذرات وجزيئات هيدروجين، وقد تكون جمع من أجرام فضائية في حجم كوكب المشتري^(١) تتخذ لها مداراً في الهالة المجرية. وقد تكون أقزام بنية (أي نجوم صغيرة التي لا يكاد يصدر عنها أي إشعاع) أو حتى ثقوب سوداء، وكثيراً من هذه الأجرام الفضائية يمكن أن توجد بسهولة في مجرة الطريق اللبنى، دون أن تتمكن من رصدها وتتبعها. ويمكن لهذه الأجرام الفضائية أن تكون بالتأكيد الإجابة الأدنى أهمية للسؤال عن هوية المادة المظلمة.

إن أقوى دليل ضد الشكل الباريوني للمادة المظلمة، يقع في المعوقات التي واجهت الكون، بتشكيل النوى الخفيفة بعد ثلاث دقائق من الانفجار الأعظم (انظر الفصل الثالث). سوف نتذكر أنه في ذلك الوقت، كانت درجة الحرارة منخفضة إلى الحد، أنه إذا اتحد بروتون ونيوترون معاً لتكوين نواة، فإن الاصطدامات اللاحقة لن تكون قوية بما يكفي لتمزيقها إرباً، وكمية النوى الخفيفة - مثل الهيليوم -^(٢) والديوتريوم^(٣) - في الكون في الوقت الحاضر، توظف كواحدة من الأدلة الرئيسية، التي تؤكد عن طريق البرهان، صحة نظرية الانفجار الأعظم كبداية للكون.

(١) يبلغ قطره حوالي ١٤٢.٨٠٠ كيلو متر عند خط استوائه. (المترجم)

(٢) أحد نظائر الهليوم وتتكون نواته من بروتونين ونيوترونين. (المترجم)

(٣) نظير الهيدروجين له بروتون واحد ونيوترون واحد في النواة. (المترجم)

ويعتمد معدل إنتاج النوى الخفيفة عند حد الثلاث دقائق بعد الانفجار الأعظم، على عاملين: درجة حرارة وكثافة المادة. وإذا تحدد درجة الحرارة مدى سرعة تحرك الجسيمات عندما تتصادم، ومن ثم ما إذا كانت النوى حديثة التكوين، ستظل متماسكة. كما سوف نخبرنا أيضاً هل سيتحرك البروتون بسرعة كافية، عندما يقترب من إحدى النوى، ليتغلب على قوة التنافر الكهربى، التى تنشأ بين جسيمين لهما شحنتان موجبتان. إذا تمكن البروتون من هذا، فالاصطدام بينه وبين النواة الخفيفة، سوف ينتج عنه نواة أكبر. أما إذا فشل البروتون، فإنه سوف يدفع بعيداً، ولن يحدث أى تغيير فى النواة الخفيفة. وتكون درجة الحرارة بمثابة الدليل لما يحدث عندما يقع الاصطدام.

وتحدد كثافة المادة مدى تكرار حدوث هذه الاصطدامات. ولو تكسبت المادة للغاية، عند حد الثلاث دقائق بعد الانفجار الأعظم، فسوف تستمر الاصطدامات طوال الوقت، ومن ناحية أخرى، إذا كانت الجسيمات متناثرة نسبياً، سوف تقع الاصطدامات بمعدل أكثر ندرة، فى الحالة الأولى، ستنتج نوى كثيرة، أما فى الحالة الثانية فسيكون عددها أقل. وبناء على ذلك، فإن كثافة الجسيمات التى يمكنها أن تنتج نوى عند الاصطدام - وهذا ما أطلقنا عليه "المادة الباريونية" - ولا شك أنها أدت دوراً مهماً فى تحديد كمية النوى الخفيفة التى كانت موجودة، بعد أن أصبح عمر الكون ثلاث دقائق.

ورأينا فى الفصل الثالث، أن الوفرة التى لوحظت فى كمية النوى الخفيفة، كانت جد قريبة مما تنبأت به نظريات الانفجار الأعظم. ولا ريب أن هذا يمثل دليلاً على صحة النظرية، بيد أنه يظهر أيضاً أن هناك تفاوتاً مسموحاً صغيراً، لتغير الأشياء. وإذا قمنا بزيادة الكثافة، بإضافة كمية هائلة من المادة المظلمة فى شكل باريونات، سوف ينتج عن ذلك ارتفاع معدل إنتاج النوى، وسوف تزيد القيم المتوقعة لمدى وفرة الهيليوم، لتتجاوز كل الحدود، التى تم تحديدها بالرصد. ولو أن الكون يتشكل من أجرام فضائية فى حجم كوكب المشترى تتخذ لها مداراً فى الهالات المجرية، فلا شك أن تكون النوى التى كونت هذه الأجرام الفضائية، قد آتت من مكان ما، وأن فترة تخليق النوى، فى الثلاث دقائق الأولى من عمر الكون هى المصدر الوحيد.

واتضح أن نواة الديوتريوم (بروتون واحد ونيوترون واحد) تقدم لنا مؤشراً رائعاً عن كثافات المادة، في المراحل الأولى بعد الانفجار الأعظم. إن الديوتريوم صورة ثقيلة لنواة الهيدروجين المعتاد، وأحد مكونات ما يطلق عليه "الماء الثقيل". وبالنسبة لنطاق هذا الكتاب، فإن أكثر صفات الديوتريوم المميزة، هي أنه لم ينتج في النجوم، على الرغم من أنه يمكن أن يحترق في الأفران النجمية النووية، منذ أن تخلق أثناء الانفجار الأعظم^(١). وهذا يعني أننا إذا وجدنا نواة ديوتريوم، فإننا نستطيع أن نتأكد، أنها جاءت إلينا مباشرة، من المراحل المبكرة من الانفجار الأعظم.

وليس الديوتريوم في حاجة لأن ينتشر بين النجوم، إذ إن مياه المحيط أيضاً مصدر جيد له، وهذا التوفر من الديوتريوم يتيح الفرصة لظهور ما أطلق عليه (أرنو بنزياس) - الحائز على جائزة نوبل - "دراسة الفلك باستخدام مجرفة". إنك تتطلع إلى المواد في كوكب الأرض، وتحدد مقدار الديوتريوم الموجود فيها، ثم تقدر استدلالاً هذه الأعداد للكون بأسره.

وعندما يتم تنفيذ هذه العملية، سوف نجد أن هناك - تقريباً - نواة ديوتريوم واحدة بالنسبة لكل عشرة آلاف نواة من الهيدروجين العادي، في الكون. وهذا يعني أنه بعد انتهاء تخليق النوى عند الثلاث دقائق من عمر الكون، لم يكن من الممكن وجود كمية أقل من هذه النوى. وبالتالي، فإن ذلك يضع تحديداً لكمية المادة الباريونية في الكون. وعند الانتهاء من إجراء الإحصاءات والحسابات بالكامل، نجد أن الوفرة - التي تم رصدها - للديوتريوم، تتطلب أن تكون المادة الباريونية في الكون، أقل من عشرين إلى ثلاثين بالمائة، من كثافة المادة الحرجة، التي قمنا بتعريفها في الفصل الثامن. ونفس هذه التحديدات يمكن استنتاجها من دراسة النوى الأخرى. ولأسباب فنية، يظهر أن أفضل (أي أقل) التحديدات للمادة، يمكن التوصل إليها، بالنظر إلى الكميات

(١) حتى أكون أكثر دقة، فإن الديوتريوم تخلق في النجوم. ولكن ما إن تتكون نواته حتى تصطبغ في الحال تقريباً، بجسيم آخر وتحول إلى نواة أثقل. (المؤلف)

الوافرة من "الليثيوم-٧"^(١)، الذى اتضح أنه الأصعب قياساً، ومن ثم، يكون الأقل فى التعرف عليه. إن القياسات على ليثيوم-٧، والتى اقترحناها توأ، سوف تظهر أن الحد قد يكون أقرب إلى عشرين بالمائة منه إلى ثلاثين بالمائة.

وهذه النتيجة بالغة الأهمية ومؤكدة، بمعنى أنه يمكننا أن نبحت فى إنتاج الديوتريوم من واقع اصطدامات البروتونات والنيوترونات فى مختبراتنا، ومن ثم، هناك ارتياب قليل عما حدث فيما يتعلق بالجانب الفيزيائى النووى من المشكلة. الشيء الوحيد الذى مازال موضع شك، هو كثافة المادة الباريونية، ومن أجل ذلك لدينا رقم تجربى واحد - وفرة الديوتريوم والليثيوم التى تم رصدها - لربط الأشياء معاً. وبالتالي، فالنتيجة تكون ثابتة ومستقرة، مثل النتائج الأخرى التى نحصل عليها فى علم الكون.

عندئذ، يمكننا القول - بشئ من الثقة - إن الكمية الكلية للمادة الباريونية فى أرجاء الكون، لا يمكن أن تتجاوز نحو ثلاثين بالمائة من الكتلة الحرجة. وسوف نتذكر أنني أوضحت، فى الفصل الثامن، أنها تعادل - تقريباً - كمية المادة المظلمة التى تم دعمها بالأدلة، والوثائق، حتى هذه اللحظة. وبناء على ذلك، فثمة احتمال ضئيل للغاية، أن تكون كل المادة المظلمة باريونية. ومع هذا، فيجب أن أقول هنا إننى أعتقد بأن وجهة النظر هذه، ليست نهاية المطاف.

خلال العقدين الأخيرين، كانت كمية المادة المظلمة التى أمكن توثيقها مستندياً، قد ازدادت بثبات، وفى نفس الوقت، انخفضت برتبة تلك التحديدات التى فرضت على الكتلة الباريونية، من واقع الدراسات عن النوى الخفيفة، وقتئذ، كانت القيمتان تقريباً متساويتين، بيد أن الأمر لا يحتاج إلا دفعة واحدة، من أحد الجانبين حتى يصبحا مغايرين من حيث القوة والتأثير، عن بعضهما.

(١) أحد نظائر الليثيوم وتحتوى ذرته على ثلاثة بروتونات وأربعة نيوترونات وثلاثة إلكترونات لذلك فهو "بوزون" واللف المغزلى له عدد صحيح. (المترجم)

وما إن تزيد كمية المادة المظلمة عن التحديدات الموضوعية على المادة الباريونية، نكون مجبرين على التفكير فى الأشكال الأخرى التى يمكن للمادة المظلمة أن تتخذها. ولو أردنا أن نتناول الأمر بحذر، فإن شيئاً من الفطنة البسيطة، تفرض علينا أنه ربما حان الوقت، لنبحث بإمعان، فيما وراء المادة الباريونية، عن "مرشح" أكثر ملاءمة وترجيحاً دعنا نكون ميالين قليلاً إلى خوض المخاطر والمجازفات، ونتذكر كيف أن الكون المتضخم قدم لنا العون فى ترسيخ افتراض - لأول مرة - فى صالح تسطيع الكون. وفى الوقت الحاضر، هناك سبب نظرى بالإضافة إلى آخر جمالى وفنى، للاعتقاد بأن الكون - على نحو صحيح ودقيق - له كتلة حرجية، وإذا كان هذا حقيقياً، عندئذ فإن على الأقل سبعين بالمائة من هذه الكتلة، يجب ألا تكون باريونية. وشعورى الشخصى بأنه من المرجح للغاية أن تكون للكون كتلة حرجية، وأن معظم أو كل المادة المظلمة ليست باريونية، بيد أن هذا لا يعدو أن يكون رأياً شخصياً، وربما تختار أن تختلف معى، ولكن أخذاً فى الحسبان، سوء التقدير الذى ينشأ عن المجادلات على كل جوانب المشكلة، فإننى لن أناقشك.

وثمة سبب ثان، للقول بأن المادة المظلمة ليست باريونية، قد ذكرت فى الفصل الرابع. وكما تذكر، فإن الكون الذى يتشكل بالكامل من المادة الباريونية، والذى يوجد فيه بنى هائلة الحجم وعلى نطاق واسع، سيكون إشعاعه الخلفى من الموجات الدقيقة متغيراً. ما دام الإشعاع الخلفى لكوننا، متسق إلى حد كبير، وبالتالي، فإن بعض المادة المظلمة يجب أن تكون غير باريونية.

وأخيراً، يمكنك أن تجادل ضد المادة المظلمة الباريونية، فإذا كانت الهالات المجرية من المادة الباريونية، فأى أشكال يمكن أن تتخذها المادة؟ يمكن أن تكون غازاً، أو ربما تكون شيئاً قد تماسك معاً كيميائياً، مثل "كرات الثلج" من الهيدروجين المجمد، أو حبيبات غبار تتراوح فى الحجم، من الجهرى إلى حجم كوكب. وختاماً، لعلها نوع من الأجرام الفضائية تتماسك معاً بالجاذبية، مثل الأشياء التى فى حجم كوكب المشترى

(أى "كواكب" مكونة أساساً من الهيدروجين والهيليوم) أو نجوم ميتة ("أرمدة خامدة" احترقت منذ زمن موغل فى القدم، وتوقفت عن إشعاع أى ضوء).

ومرشح آخر راسخ الجذور منذ زمن طويل، هو الثقوب السوداء، التى تتكون فى نهاية حياة النجم، ويمكن تصنيفها أيضاً كرماد.

وإذا كانت هالة المادة المظلمة المجرية عبارة عن غاز، فيجب أن تكون حرارتها مروعة لقوى الضغط لكى تتمكن من مقاومة قوى الشد إلى الداخل، بفعل الجاذبية. وفى مثل درجات الحرارة هذه، سوف يطلق الغاز الأشعة السينية، التى يمكن اكتشافها بسهولة، بمنظومات الأقمار الصناعية الحديثة. وما دامت الأشعة السينية غير مرئية، فالهالة المجرية إذن لا يمكن أن تكون غازاً.

ولن تستمر كرات الثلج المجمدة فى الفضاء: إذ لابد أن تجتاز عملية فيزيائية يطلق عليها "التسامى"، أى التحول المباشر من الحالة الصلبة للمادة إلى الحالة الغازية دون المرور بالحالة السائلة. والتسامى هو ما يحدث طوال الوقت للجليد الجاف^(١)، إن السحب المتلاطمة والموجات العارمة، التى يعشق ظهورها المخرجون سواء فى السينما أو المسرح، غالباً تنتج عن طريق السماح لأكوام من الجليد الجاف بالتحول إلى غاز ثانى أكسيد الكربون، وتسامى جليد المياه، هو الذى يجفف الملابس المعلقة على الحبل، عندما تكون الحرارة، تحت درجة التجمد. ما دام هناك إمكانية لحدوث التسامى، فلا يمكن أن تكون الهالة المجرية عبارة عن كرات ثلجية، كما أنها ليست مكونة من حبيبات الغبار أو الصخور، لأنه إذا كانت هناك مادة ثقيلة كافية موجودة، لتشكيل مثل هذه الأجرام الفضائية عندما تكونت المجرات، فإن نفس هذه المادة يجب أن تكون مندمجة فى النجوم البالغة القدم. ويبلغ عمر هذه النجوم (التى يطلق عليها الفلكيون "الجمهرة الثانية") ما بين أربعة عشر وثمانية عشر بليون عام، وهى فقيرة للغاية فى العناصر

(١) ثانى أكسيد الكربون الصلب ويستخدم مادة مبردة. (المترجم)

الثقيلة. وتتساءل كيف يمكن أن تكون هناك عناصر ثقيلة في الهالات المجرية، على شكل حبيبات غبار وصخور، ولا شيء من هذه العناصر الثقيلة في النجوم؟

أما الأجرام الفضائية التي في حجم كوكب المشتري، فثمة صعوبة أكبر إلى حد ما، في استبعادها كأحد المرشحين للمادة المظلمة. لقد تكون كوكب المشتري بعملية كونية مشابهة لتلك التي شكلت الشمس، تكاثف لسحابة غاز تحت تأثير الجاذبية. والعقبة التي تواجه تكون الهالة المجرية من تلك الأجرام الفضائية، هو شرح كيف كان ممكناً، لبلايين الأجرام الفضائية التي في حجم كوكب المشتري أن تتشكل، ولكن - في الحقيقة - دون تكون أى نجوم صغيرة. والفكرة الأساسية هي أن كوكب المشتري يقترب كثيراً من أن يكون نجماً. ولو كان قد أضاف إلى كتلته مادة قليلة أكثر لاشتعلت النيران النووية في داخله، ولأصبح نجماً حتى لو كان صغير الحجم. وتتساءل: لماذا لا نرى أى آثار للنجوم الخافتة، التي تكون أكبر - بنسبة بسيطة - من الكواكب الضخمة؟ وماذا يمكن أن يكون السبب في ذلك التباين الحاد في حجم الأجرام الفضائية بالهالة المجرية؟ ونقص تلك الآلية، هي بمثابة مجادلة قوية ضد هذا النوع المعين من المادة المظلمة. كما أنها تعمل أيضاً كنفقاس ضد فرضية الأقزام البنية. ما دامت الأقزام البنية في الجانب الآخر تماماً من كوكب المشتري، عند الخط الفاصل ما بين النجم والكوكب.

وأخيراً، فإن إمكانية "الأرمدة النجمية"، يمكن أن تستبعد بملاحظة أنه عندما يموت النجم، يصاحب موته - في معظم الأحيان - قذف كميات هائلة من المادة إلى الفضاء بين النجوم. وليس ثمة دليل على أن تلك المادة المقنوفة، موجودة في الهالة المجرية، ولهذا يمكن أن يتخذ هذا الأمر، دليلاً على أن الهالة ليست مكونة من رفات النجوم القديمة، إما كأرمدة خامدة أو ككقوب سوداء نجمية.

وكل هذه الجدالات، من تخليق النوى والبنى المروعة ذات الاتساعات الهائلة وصرف النظر عن الأشكال المتباينة من المادة الباريونية، تشترك كلها في خطأ شائع: لا أحد يمكن أن يستبعد تماماً احتمالية أن تكون كل المادة المظلمة في الكون باريونية. ومن ناحية

أخرى، أنها تجعل الأمر صعباً بالفعل، للهروب من المصائد الخفية، في كون كله من المواد البارونية، وقد ابتكر الباحثون المبدعون (وما أكثرهم في هذا المجال) مخططات معقدة يمكن بها تجنب كل المصائد الخفية التي يتم التوصل لها. وتحمل هذه المخططات أثراً ضئيلاً مثل نفحة هواء عابرة، من "أفلاك التدوير"^(١)، وهو جهاز استخدمه فلكيو العصور الوسطى، لتعديل نظرية بطليموس عن الكون، لتتوافق مع الأرصاد الفعلية. وربما استطاعوا تفادي كارثة لمدة معينة، إلا أنهم لم يقووا إلى علم جديد. وعادة، عندما تكون الفكرة صحيحة، توضع الأمور في نصابها، كما لو أنهم قاموا بذلك بأنفسهم، فليس ثمة حاجة إلى ابتكار مخططات، للتخلص من بيانات مركبة تعيق البحث.

وعلى سبيل المثال، ربما يتمكن أحد الباحثين من "تلفيق" مخطط، يضمه كل أشكال المادة المظلمة البارونية والتي ذكرناها أنفاً، وقد امتزجت كلها معاً، لتشكل الهالة المجرية. وربما يمكن للمرء أيضاً أن يعدل من النسب المتكافئة فيما بين الأنواع المتباينة منها، ليتجنب التضارب مع الأرصاد، ولكن ما الذي سوف تجده عندما تنتهي من بحثك؟ لا شيء يثير اهتمام أى شخص.

والسبب في هذا بسيط. وكما بينت في مناقشة النظرية النسبية العامة، بأن النظرية الناجحة في العلوم، يجب أن تتميز بروبقها وسحرها بالإضافة إلى قابليتها للتطبيق العملي. ونوع النظرية التي تخيلتها منذ برهة قصيرة لا تتناغم مع ذلك الاختبار المزيج. وربما يمكن العمل بها، بيد أنها بغیضة للغاية ومنتهكة للقانون الطبيعي. وكما قال الفيزيائي (إنريكو فيرمي)^(٢) "إنها لا تعد حتى الآن خاطئة". إن هذا النوع من الأشياء يلجأ إليه العلماء فقط كملاذ أخير، بعد أن يخفق في العمل، كل شيء آخر، أمكنهم التفكير فيه. إذن، فلن يكون الأمر مثيراً للدهشة، عندما نعلم بأن معظم الباحثين في الوقت الحاضر، هجروا فكرة أن المادة البارونية هي مقوم أساسي للكون، ووجهوا اهتمامهم إلى مكان آخر.

(١) في فلك بطليموس هو دائرة صغيرة يتحرك مركزها على محيط دائرة أكبر مركزها الأرض. (المترجم)

(٢) فيزيائي إيطالي أمريكي (١٩٠١ - ١٩٥٤) حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٣٨. (المترجم)

ماذا عن النيوتريونات ؟

وما إن تخلّيت عن فكرة المادة الباريونية، حتى تجد أن المرشح التالي للمادة المظلمة هو النيوترينو. ولا أقصد أن النيوترينو جسيم مألوف لنا، بمعنى أننا عرفناه من خلال تجربتنا الحياتية اليومية، بيد أنه جسيم عرفه الفيزيائيون منذ عقود من الزمن. وينتج النيوترينو في العديد من المفاعلات النووية، التي تتضمن تلك المتأججة في الشمس. والمشاركة في العمليات الكونية أثناء فترة تخليق النوى خلال الانفجار الأعظم.

ولإعطائك فكرة تقريبية عن عدد النيوتريونات في الكون، يمكننا استخدام قاعدة الحدس^(١)؛ لو أن نيوترينو واحد موجود في الوقت الحاضر، نتج عن كل تفاعل نووي حدث في أي وقت مضى. تظهر الإحصائيات أنه ربما كان ما يقرب من بليون نيوترينو أنتج أثناء الانفجار الأعظم لكل بروتون، ونيوترون أو إلكترون، وكل حجم في الفضاء بمقياس أبعاد جسمك، يحتوى على نحو عشرة ملايين من تلك النيوتريونات الغابرة، وهذا لا يدخل في حسابه، تلك النيوتريونات التي أنتجت مؤخراً في النجوم.

ومن الواضح أن أي جسيم منتشر بهذا الشكل، يكون له - من حيث المبدأ - تأثير جوهري على بنية الكون، إذا كانت له كتلة.

وقد افترض وجود النيوترينو في الثلاثينيات من القرن العشرين، وفي النظريات التقليدية، أن النيوترينو جسيم يتفاعل بضعف شديد، مع أنواع المادة الأخرى، ولأنه ليس له كتلة، فإنه يرتحل بسرعة الضوء. ولزيد من المعلومات عن النيوترينو لخدمة أغراضنا في هذا الكتاب، فإن معنى أن كتلته صفر، أنه لا يمارس أي قوة تجاذبية. وبالتالي، فإذا كانت النظرية التقليدية صحيحة، فليس ثمة أهمية لعدد النيوتريونات التي يمكن أن تحوم حولنا في الكون، إذ إنها لن تستطيع التأثير في الظواهر الكونية،

(١) قاعدة في الحكم على الأشياء، أو تقديرها، بالاستناد على ما يجول بالفكر وليس على أساس الفحص العلمي. (المترجم)

- مثل التقلص التجاذبي في المجرات أو البنى الأخرى، مما يوحي بأن النيوتريـنو - على الرغم من الانتقادات الشديدة في النظرية التقليدية - ربما تكون له كتلة ضئيلة للغاية غير صفـرية^(١).

في هذه الحالة إذن، فإن ضرب حتى كتلة ضئيلة بالعدد الهائل للنيوتريـنات في الكون، يمكن أن يكون حاصلها كتلة كلية للنيوتريـنو، تكون كبيرة إلى حد أنها تجلب كثافة الكتلة إلى قيمتها الحرجة. وسيناريو الكون الذي تسيطر عليه النيوتريـنات، يمكن أن يأخذ الشكل التالي: إن النيوتريـنو هو أحد الجسيمات الذي تضعف تفاعلاته مع المادة كلما انخفضت درجة الحرارة. وهذا يعني أن النيوتريـنات، سوف تتوقف عن ممارسة قوة (على المادة التي تم فك تقارنها) عن المادة العادية، قبل زمن طويل من قيام الإشعاع العادي بنفس هذا الدور. ووفق أفكارنا الحالية، فإن ذلك حدث بعد نحو ثانية واحدة من الانفجار الأعظم. وبعد هذا، تمددت النيوتريـنات وبردت، وهكذا أنشأت نوعاً من صورة مرآة لإشعاع الموجات الدقيقة الخلفية للكون.

وأحدى الطرق التي يمكن بها تفسير عملية فك تقارن النيوتريـنو، القول بأنه يحدث عندما يرتحل النيوتريـنو، خلال المادة، حيث إنه من غير المحتمل أن يتفاعل مع تلك المادة. وثمة عاملان يؤثران على تلك الاحتمالية: كثافة المادة (التي تخبرنا كم مرة تقترب النيوتريـنات من الجسيمات الأخرى) وكذلك احتمالية أن يقترب النيوتريـنو من جسيم آخر، وحدث تفاعل بينهما. وعندما كان عمر الكون ثانية واحدة، كانت درجة الحرارة منخفضة إلى الحد أن سقطت هذه الاحتمالية الأخيرة، وشكلت النيوتريـنات سحابة ممتدة وباردة، لم تعد تتفاعل مع المادة العادية. ولو كانت للنيوتريـنات كتلة ضئيلة، عندئذ يمكن لها أن تتكثل بقوة معاً تحت تأثير الجاذبية بعد هذه الفترة الزمنية،

(١) تتطوّر على قيمة أخرى - مهما كانت ضئيلة - غير الصفر. (المترجم)

وتشكل تركيزات جاهزة مسبقاً في كل أرجاء الكون، حيث تتشكل عندها المجرات فيما بعد. وبناء على ذلك، سوف يبدو لنا أن النيوتريـنـو الثقيل^(١) - إذا كان موجوداً - مرشح مثالي كأحد مكونات المادة المظلمة.

ومع هذا، إذا كانت للنيوتريـنـوات كتلة ضئيلة، سوف ترتحل بسرعة قريبة من سرعة الضوء، عندما يفك تقارنها. وهذا يعنى أنها سوف تكون ذلك النوع من المادة المظلمة التى أطلقنا عليها صفة "ساخنة". ومن ثم سوف تقودنا إلى نظرية للكون يطلق عليها "من أعلى إلى أسفل"، وكل المجادلات التى ثارت ضد المادة المظلمة الساخنة فى الفصل السابع، يمكن أن تستدعى لتعترض عليها.

وبالإضافة إلى هذا، فثمة مجادلات أكثر تفصيلاً التى يمكن إثارتها ضد النيوتريـنـوات الثقيلة، كمرشحات للمادة المظلمة. وهذه المجادلات، وأخرى شبيهة بها، قد دفعت بمعظم علماء الكون، إلى الابتعاد عن فكرة اعتبار أن النيوتريـنـوات الثقيلة، مرشحات للمادة المظلمة. ويبدو هذا مقنعاً للغاية، ولكن ينتابهم الضعف إذا وجهوا بالسبب الأكثر أهمية، لرفض هذا الافتراض.

وإذا نظرنا إلى الأمر بأقصى بساطة ممكنة، نجد أنه ليس ثمة دليل جلى لا مجال للشك فيه، أن النيوتريـنـو ليست له أى كتلة أخرى، إلا الصفرية. وقد يبدو لك أن الأمر غريب، أن بعد كل هذا الجهد الذى بذل على فكرة لم يتم التحقق من صحتها أولاً فى المختبرات، بيد أن قصة النيوتريـنـو الثقيل، أكثر تعقيداً من هذا. وفى الواقع، يعد ذلك صورة إيضاحية جيدة والتى أمكننى الحصول عليها للطريقة التى تعمل بها آلية البحث العلمى، لاستبعاد النتائج غير الصائبة. إذن، قبل أن نستمر فى بحثنا، أود أن أستطرد قليلاً وأخبرك عما يحلولى أن أطلق عليه "طفرة النيوتريـنـو الثقيل".

(١) أى الذى له كتلة حتى لو كانت ضئيلة للغاية. (المترجم)

الفصل العاشر

طفرة النيوترينو الثقيل

(مهما حاولت أن تطلّي الفارذنج^(١) بالذهب، فإنه سوف يبقى فارذنجاً كما هو).

من مسرحية "هـمس بينافور أو الفتاة التي أحبت البحار" (١٨٧٨)

وضع موسيقى المسرحية سوليفان وجيلبرت

تقليدياً، يعقد اجتماع الربيع للجمعية الفيزيائية الأمريكية (جمعية الفيزيائيين الخبراء) في واشنطن دي.سى. ومع بعض التطورات غير المتوقعة للأرصاء الجوية، فإن هذا الاجتماع يقام دائماً بعد أسبوع من إزهار الكرز، حيث يحيل المدينة إلى مشهد رائع يصلح كصورة خلابة فوق بطاقة بريدية. وكان لاجتماع عام ١٩٨٠، أهمية خاصة بالنسبة لى، إذ إننى اصطلحت معى للاجتماع ابنى الأكبر - الذى أصبح فيما بعد مديراً لمدرسة ثانوية - لكى يطلع على عالم العلوم. كان فى ذلك الوقت مرتبطاً بإحدى الجامعات، ويفكر جدياً فى أن يصبح فيزيائياً، ومن ثم، كان أمراً منطقياً أن أجعله يحضر هذا الاجتماع. والآن أتعجب عما إذا ما رآه هناك، لم يؤثر على قراره فيصبح اقتصادياً بدلاً من فيزيائى! ويفكر الفيزيائيون فى هذا الاجتماع تحديداً، على أنه "اجتماع النيوترينو الثقيل". والحدث الكبير هو ذلك التصريح الذى أعلنته جماعة

(١) عملة معدنية قيمتها نحو ربع بنس يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادى وكانت من الفضة. (المترجم)

الباحثين التجريبيين من جامعة كاليفورنيا في إيرفين، أن لديهم قياسات تدل على أن النيوتريـنو - الجسيم الذى اعتقد معظم الفيزيائيين بأن كتلة صفر - بالفعل يزن شيئاً^(١) ما. كانت هذه الأنباء مثيرة لسببين: أولاً، أن الباحث الذى أعلن التصريح هو "فريدريك رينز"، الذى كان أحد مكتشفى جسيم النيوتريـنو فى عام ١٩٥٦. وثانياً، لو كان النيوتريـنو بالفعل بالثقل الذى أعلنته جماعة الباحثين التجريبيين، عندئذ يكون هو الجسيم الذى "يغلق" الكون؛ أى الكتلة المفقودة التى طالما جد العلماء فى البحث عنها طويلاً. وما أن اقترب موعد التصريح، حتى اتضح أن الإشاعات التى تسربت من الاجتماع، حققت نتائج. لقد كان مستحيلاً على أى فرد يريد أن يستمع لبحث (رينز) أن يجد مكاناً فى الحجرة المخصصة لهذا، ومن ثم كان هناك تأخير بسبب انتقال الجلسة لقاعة مخصصة للاحتفالات أكبر حجماً، وحيث إنه لم يتسع الوقت لإحضار آلة عرض الشرائح المنزلقة، فقد اضطر (رينز) لإبلاغ الصحفيين الحاضرين شفهيّاً بأسماء جماعته من الباحثين، وكان عليه أيضاً أن يشرح معادلاته الرياضية بالكلمات، ويكتبها فى الهواء بأصابعه. وكانت التجربة التى أجراها مسألة صعبة، وتعددت الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى فشلها. بيد أنها لو كانت صحيحة، فمعنى ذلك أن واحدة من "الحقائق" التى تم قبولها على نطاق واسع فى الفيزياء الحديثة، كانت خاطئة.

ولكى نفهم لماذا ازدهمت الكثرة الكبيرة من الفيزيائيين فى قاعة الاحتفالات تلك، ذات يوم ربيعى رائع فى واشنطن، عليك أن تعرف بعض المعلومات عن جسيم النيوتريـنو. لقد اقترح وجوده لأول مرة فى الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما كان الفيزيائيون يدرسون التفاعلات التى لاح فيها شيء ما ذو نقائص، فعلى سبيل المثال، كانت هناك - أحياناً - طاقة أكبر موجودة قبل التفاعل عما بعده. واقترح النيوتريـنو

(١) يمكن أن تجد القصة الكاملة لتاريخ النيوتريـنو والصفات المميزة له فى كتابى "من الذرات إلى الكواركات" (المؤلف). From Atoms To Quarks.

(ويعنى الجسيم المتعادل الصغير)، كوسيلة لرأب الصدع وترميم الأشياء. ولم يتمكن العلماء من اكتشاف هذا الجسيم الافتراضى بذاته، بيد أن نشاطه تضمن التخلص من الطاقة الزائدة وحملها بعيداً، وكذلك الأشياء الأخرى التى بدت أنها مفقودة فى التفاعل. وهذا الموقف يفترض أنه يشبه موقف حارس المنزل، عندما يسرق لص شيئاً ما من البيت، أثناء غياب مالكة. إنه يعرف بأن شخصاً ما كان فى البيت، لأن شيئاً ما فقد، بيد أن اللص لم يره أحد.

مرت عشرون عاماً قبل أن تصبح منظومات الكشف لدينا، حساسة بما يكفى، لتجد دليلاً مباشراً أن النيوتريـنو موجود (وكان هذا فى تجربة العام ١٩٥٦ التى ذكرت آنفاً). وفى الواقع، فإن النيوتريـنو جسيم مراوغ، ولو دخل أحدها اليوم فى قضيب من الرصاص الصلب، فيمكن بسهولة أن ييزغ من القضيب بعد أربع سنوات من الآن، فى النجم ألفا قنطورس دون أن يحدث اضطراباً واحداً فى أى ذرة، لترسم طريقاً لساره. وعلى الرغم من ذلك الإحجام عن التفاعل مع المادة، فإن النيوتريـنات تنتج ويتم قياسها بانتظام فى مختبرات المعجلات. وفى الإلكترونيات الحديثة، ليست هناك صعوبة فى اكتشافها، كما كان يعتقد من قبل. ومع ذلك، ثمة حقيقة مهمة عن النيوتريـنو، أن وجوده افترض، قبل أن يعثر عليه بالفعل.

وليس للنيوتريـنو شحنة كهربية، ولو كانت له شحنة لثم اكتشافه فى الثلاثينيات من القرن العشرين. ولا بد أنه خفيف للغاية، وإلا لظهرت دلالة على وجود كتلته، والتى يمكن رؤيتها فى سلوك الجسيمات التى يتركها خلفه. بيد أن جسيماً خفيفاً - له كتلة ضئيلة - ليس مثل جسيم آخر كتلته صفر. وحتى وقت قريب جداً، إذا سألت فيزيائياً لماذا يعتقد بأن النيوتريـنو كتلته صفر، ربما سوف تكون إجابته "ولم لا؟". وليس ثمة دليل يبرهن على أن كتلة النيوتريـنو قيمتها أكبر من صفر، والصفر رقم دائرى لطيف وجذاب، من السهل تذكره واستدعاؤه من الذهن. ولو كان كل شىء يعمل مع نيوتريـنو بلا كتلة، فلماذا تثار المتاعب غير محققة النتائج؟

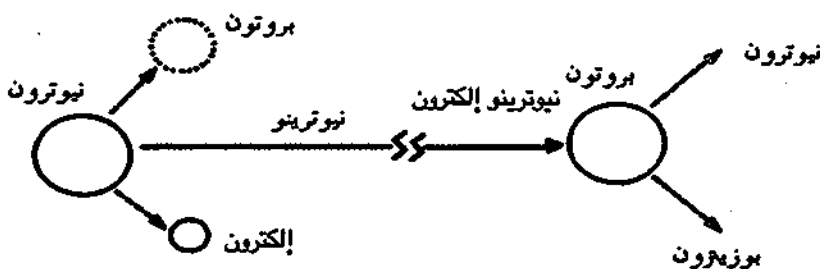
ولكن درب الفيزيائيون على أن يكونوا متفتحي الذهن للأفكار الجديدة. فإذا قدم أحد الأشخاص دليلاً يؤكد صحة شيء ما، سبق أن ساد الاعتقاد بأنه غير متسق مع الحقيقة والواقع، فعلى كل الفيزيائيين الآخرين تفحص هذا الدليل بعناية فائقة.

وهذا ما يحدث تماماً في حالات مثل النيوتريно الذي يفترض أن كتلته صفر، حيث لا يوجد - في حقيقة الأمر - مبرر راسخ للتمسك بالاعتقاد التقليدي السائد. وفي الواقع، ثمة وسائل متباينة تجريبية للتحقق مما لو كان للنيوتريно كتلة أم لا. إحدى هذه التجارب تلمح إلى المثال الذي أوريناه عن لص المنازل، إذ يمكن للشرطة أن تجد الكثير من الأدلة عن اللص، بالتفحص الدقيق لمسرح الجريمة. وينطبق هذا أيضاً على إيجاد دليل عن الكتلة الصغرية للنيوتريно، بالتفحص الدقيق للجسيمات التي تدخل في التفاعلات التي تشارك فيها النيوتريونات. سوف نلقى نظرة إلى بعض من هذه التفاعلات لاحقاً. وثمة وسيلة ثانية لإثبات كتلة النيوتريно تتضمن عملية فيزيائية يطلق عليها "الخلط". ولنفهم هذه العملية، عليك أن تعرف حقيقة واحدة أخرى عن النيوتريونات، وملح واحد لميكانيكا الكم^(١).

والحقيقة هي: هناك أكثر من نوع من النيوتريно. وقد تمكن الفيزيائيون من رؤية نوعين في المختبر، وتخبرنا النظرية أنه لا بد من وجود نوع ثالث أيضاً، ربما يكون أكثر ندرة. وتتمايز تلك النيوتريونات الثلاثة عن بعضها، بالتفاعلات التي أدت إلى تشكيلها، وكذلك بالتفاعلات التي تباشرها عندما تتفاعل مع المادة (على الرغم من أن هذا لا يحدث غالباً). وعلى سبيل المثال، فقد أظهرنا - في (الشكل ١-١٠) اضمحلال نيوترون. إن النيوترون - وقد ترك لشأنه - سوف يحول نفسه تلقائياً بلا سبب خارجي، إلى بروتون وإلكترون ونيوتريно. ولأنه أنتج بالارتباط مع إلكترون، فقد أطلق عليه "نيوتريно إلكترون"^(١) وإذا صادف النيوتريно إلكترون بروتوناً، فيمكن له أن يستهل

(١) نظرية فيزيائية رياضية للمادة والإشعاع الكهرومغناطيسي والتفاعل بينهما. (المترجم)

تفاعلاً، وفيه ينتج - كما هو واضح في الشكل - نيوترينو وإلكترون مضاد (أي بوزيترون). وبمعنى آخر، فإن هذا النيوترينو يرتبط دائماً بالإلكترون، سواء عند إنتاجه أو تدميره.



الشكل 10.1

وترتبط الأنواع المختلفة من النيوترينوات باللبتونات^(٢) الأخرى. ونحن نعلم أنه بالإضافة إلى الإلكترون (الذي يعد لبتونا هو الآخر)، ثمة نوعان آخران من اللبتونات يطلق عليهما 'ميون' و'تاو' الميزونات^(٣). ونعتقد بأن هناك ثلاثة أنواع من النيوترينوات في الكون، يرتبط كل واحد منها بأحد هذه اللبتونات.

في هذا الموقف، تقترح قوانين ميكانيكا الكم احتمالية مثيرة للاهتمام. فكر ملياً - بادئ ذي بدء - في هذه المقارنة المبنية على التشابه الجزئي: افترض جداً أن أمامك

(١) سوف يدرك القراء أن هذا الجسيم في الشكل هو في الواقع نيوترينو مضاد، والصيغة الفارقة بين النيوترينو والنيوترينو المضاد، ليست ذات أهمية لأغراضنا في هذا الكتاب. (المؤلف)

(٢) اللبتونات: جسيمات أولية ذات كتل صغيرة مثل الإلكترون. (المترجم)

(٣) الميون: جسيم أولي له شحنة سالبة وهو المثل الثقيل للإلكترون.

والتاو: جسيم يحمل شحنة سالبة يدخل في التفاعلات الكهرومغناطيسية والقوة الضعيفة.

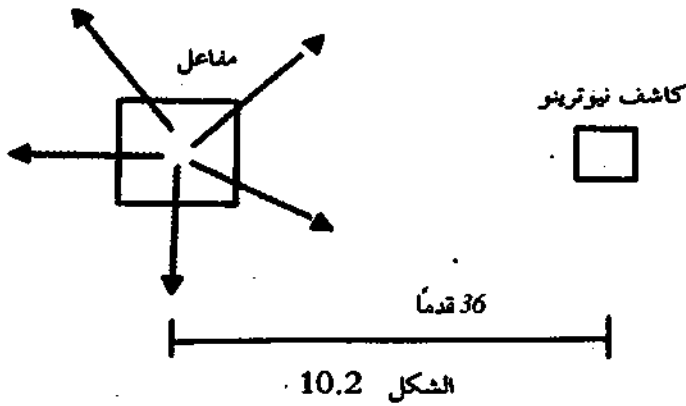
والميزونات: جسيم من الجسيمات الأساسية ذات كتل سكونية مختلفة، منها ما هو ذو شحنة كهربائية موجبة

ومنها ما هو ذو شحنة كهربائية سالبة وما هو في حالة تعادل. (المترجم)

امتداداً لثلاثة ممرات محددة فى طريق رئيسى عام، الذى يمكن أن تدخل إليه السيارات من خلال ممر محدد واحد. فإذا كنت تقف بالقرب من بداية هذا الطريق الرئيسى العام، سوف تقول بأن كل السيارات تشترك فى الصفة المميزة بأن تكون عند ممر الدخول، وبأنه لا يوجد إلا نوع واحد من السيارات. ومع هذا، عندما يمر الوقت، سوف تبدأ حركة المرور العادية، فى دفع السيارات إلى الممرين الخاليين. ستتحرك سيارة واحدة لتمر، وسوف تسرع أخرى لتتحرك فى الممر المحدد الخارجى، وهلم جرا. وفى نهاية الأمر، ستتوزع السيارات بالتساوى فى كل الممرات المحددة الثلاثة. وسوف يقول شخص ما، يقف على بعد عدة أميال من منحدر المدخل الذى يربط الممرات الثلاثة، بأنه كان يوجد هناك ثلاثة أنواع من السيارات، كل نوع يمر فى واحد من الممرات الثلاثة.

وتحت ظروف معينة، يمكن أن يسلك شعاع من النيوتريونات، بنفس طريقة خط السيارات المتحرك القادم. ومجموعة من النيوتريونات المضمحة بمقدورها أن تنشئ شعاعاً من نيوتريونات الإلكترون الخالصة. ومع تقدم هذا الشعاع عبر الفضاء، يمكن للنيوتريونات أن تبدأ فى التغير إلى الأنواع الأخرى منها، تماماً كما بدأت السيارات فى تغيير مواقعها فوق الممرات. وفى نهاية الأمر، سوف تتحصل على شعاع مكون من أعداد متساوية من الأنواع الثلاثة، تماماً كما أن السيارات تشغل - أخيراً - كل الممرات فى الطريق الرئيسى. ووفقاً لميكانيكا الكم، فهذا الخلط المعين بين أنواع النيوتريونات، يمكن أن يحدث فقط، إذا كانت كتل النيوتريونات متباينة، أى لو أن نيوتريو الإلكترون له كتلة مختلفة عن نيوتريو الميون، الذى - بدوره - تكون كتلته مختلفة عن نيوتريو التاو. ومع هذا، لو كانت الصورة التقليدية صحيحة، وكل النيوتريونات الثلاثة كتلتها صفر، عندئذ فلا مجال لحدوث الخلط، وسوف يكون لدينا طريق سريع به ثلاثة ممرات محددة، حيث لا يمكن لأى سيارة أن تغير الممر الذى تسير فيه. ومن ثم، فإن دليل الخلط بين أنواع النيوتريونات، هو أيضاً دليل على الكتلة اللاصفيرية للنيوتريو. وإذا حدث الخلط بالفعل، عندئذ - على أقصى تقدير - فإن

واحداً من أنواع النيوتريونات يمكن أن تكون له كتلة صفرية. ويجب أن يكون الأعضاء الآخرين في مجموعة الخلط، لها كتل أخرى غير الصفر. ويشرح ذلك الفكرة الأساسية للتجربة، التي تم الإعلان عنها في اجتماع واشنطن. وقد تم وضع مخطط التركيب والبنية الفيزيائية لها في الشكل (٢-١٠). والنيوتريونات التي خلقت بالتفاعلات النووية في مفاعل بحثي، تدفقت في كل الاتجاهات، ولم يستطع أى شيء إيقافها، وما عدا أقدام من الإسمنت مقارنة بسنة ضوئية من الرصاص؟. وبين فترة وأخرى متباعدة، يبدأ أحد النيوتريونات تفاعلاً في مكشاف^(١) يقع (في حالتنا هذه) على بعد نحو ستة وثلاثين قدماً^(٢) من مركز المفاعل. والجسيمات الناتجة عن هذا التفاعل يتم تتبعها ودراستها، ويستنتج منها وجود النيوترينو.



كل العمليات التي تجرى في المفاعل النووي، شبيهة باضمحلال النيوترون والتي أوضحناها من قبل في الشكل (١-١٠) إن تلك العمليات لا تنتج إلا نيوتريونات الإلكترون فقط. وبالمثل، فإن كل العمليات التي تجرى في المكشاف شبيهة بما هو

(١) عداد جسيمات أولية في مراكز الأبحاث خاصة معجلات الجسيمات دون الذرية. (المترجم)

(٢) القدم يساوي ٤٨ . ٣٠ سنتيمتراً. (المترجم)

موضح إلى اليمين في الشكل (١-١٠)، وهي لا تبدأ إلا بنيوترينوات الإلكترون فقط من المفاعل، ولا يمكن رؤية^(١) إلا نيوترينوات الإلكترون في المكشاف.

ولو كانت وجهة النظر هذه - المقبولة - صحيحة، وأن كل النيوترينوات بلا كتلة، عندئذ، لن تكون هناك أية صعوبات تواجهنا، إذ إن كل نيوترينو إلكترون ينتج في المفاعل، سوف يظل كما هو "نيوترينو إلكترون"، عندما يمر عبر المكشاف وتلوح له الفرصة لكي يبدأ تفاعلات. بيد أنه لو كان لبعض النيوترينوات كتلة ما، عندئذ سوف يحدث الخلط بين المفاعل والمكشاف، ولتحدث مجازياً، سوف تغير بعض النيوترينوات ممراتها المحددة. ويعنى هذا بالتالى، تناقص عدد الجسيمات التى يتم اكتشافها، لأنه على الرغم من أن العدد الكلى للنيوترينوات - التى تتدفق عبر المكشاف - لن تتغير، فإن العدد الذى يبدأ التفاعلات - أى عدد نيوترينوات الإلكترون التى تتم مراقبتها - سوف يتناقص. وفى مثالنا عن الطريق الرئيسى العام، فهذا مساوٍ فى المعنى للتصريح بأن عدد السيارات التى تسير فى الممر الأول، سوف يتناقص عندما يمتلئ الممران الآخران بالسيارات. وما وجدته مجموعة "إيرفن" فى تجربتهم، أن عدد النيوترينوات الناتجة، والتى أمكن تتبعها على بعد ستة وثلاثين قدماً من مركز المفاعل، كان أقل من العدد الذى أوضحته إحصائياتهم، عن النيوترينوات التى تغادر المفاعل. وقد فسروا هذا دليلاً لتلك الطريقة من الخلط بين أنواع النيوترينو، التى كنا نناقشها، وهذا ما يطلق عليه "تذبذب"^(١) النيوترينو، فى المصطلحات الفيزيائية. ما دامت التذبذبات من النيوترينو، فقد اتخذ هذا دليلاً على أن النيوترينوات ليست بلا كتلة، كما اعتقد من قبل.

لقد كان هذا اقتراحاً بالغ الأهمية. إننا نعرف أنه فى التاريخ المبكر للانفجار الأعظم، كان هناك العديد من التفاعلات النووية، وأنتج الكثرة الكبيرة منها جسيمات النيوترينوات، كمنتج فرعى، تماماً كما فعل اضمحلال النيوترون. ولهذا السبب، يفترض

(١) تغير دورى فى طاقة منظومة ألية أو كهربائية أو ذرية. (المترجم)

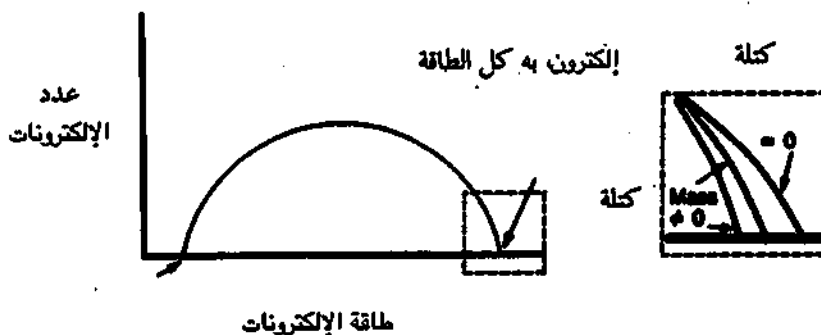
أن هناك أعداداً هائلة من النيوتريونات هناك، ربما يصل عددها إلى مائة مليون لكل جسيم عادى ثقيل. وإذا كان لكل نيوترينو كتلة - حتى لو كانت ضئيلة للغاية - فإنها سوف توفر مادة كافية لغلق الكون. وبناء على ذلك، ففى عصرنا الحديث، عندما يحذر الفيزيائيون المحافظون، من أن نتائج تجارب "إيرفن"، يجب أن يتعامل معها بارتياح، حتى يتم التأكد من صحتها ودقتها من المختبرات الأخرى، التى يبذل فيها علماء الكون، قصارى جهدهم، لتفسير مشكلة المجرات ووجود المادة المظلمة، عن طريق "كتلة" النيوتريونات التى تم التوصل إليها حديثاً. وكانت معظم المجادلات ضد النيوتريونات كمكون وحيد للمادة المظلمة (انظر الفصل التاسع) قد احتدم خلال ذلك الحماس والاندفاع الذى تلى اجتماع واشنطن.

ومن المهم أن نتذكر أنه على الرغم مما يوحى به اكتشاف التذبذبات فى حزمة النيوتريونات، بأن له كتلة، فإنه لا يخبرنا ما هى هذه الكتلة. وتنسب السرعة التى تغير بها النيوتريونات مساراتها فى الحزمة، إلى الاختلاف فى الكتلة بين النيوتريونات المتباينة. ويقدر تشابه هذا الاختلاف، ستكون التذبذبات متماثلة، بصرف النظر عما إذا كان للنيوتريونات كتلة تساوى جزءاً من مليون من الإلكترون، أو كتلة فيل!

ويخبرنا ذلك، لماذا كان لتصريح من معهد الفيزياء التجريبية والنظرية فى موسكو (روسيا الاتحادية) - الذى صدر بعد اجتماع واشنطن بعدة أشهر - مثل هذا الدور البالغ الأهمية فى قصة النيوتريونات. إذ ظلت جماعة من العلماء هناك تعمل بتأن لأكثر من عقد لتحديد كتلة النيوتريونات، مستخدمين مقاييس متناهية الدقة، للتعرف على ما أزعجه النيوتريونات من التفاعلات التى شارك فيها، وهذا ما أطلقت عليه آنفاً "تقنية لص المنازل".

وكان المخطط ما يلى: عندما يضمحل النيوترون، كما هو موضح فى الشكل (١-١٠)، فإن الطاقة تحملها بعيداً الثلاثة جسيمات الناتجة. وإذا أخذت الإلكترون فقط بعين الاعتبار، فيمكن أن يكون له المدى الكامل للطاقات، على طول الطريق من الصفر

(عندما يحمل البروتون والنيوترون كل الطاقة) إلى الطاقة القصوى الممكنة في العملية (عندما يحمل الإلكترون كل الطاقة)، عندئذ سوف يتم تصويره كمنحنى مثل ذلك الموجود إلى اليسار في الشكل (٢-١٠) وفي معظم الحالات، سوف تتقاسم - تقريباً - الجسيمات الثلاثة الطاقة. وأحياناً فقط يحمل الإلكترون معظم الطاقة، وذلك الجزء من المنحنى، حيث يحدث هذا الأمر، موضوعاً في إطار مربع داخل الشكل.



إلكترون
ليس به طاقة

الشكل 10.3

والآن. إذا تأملنا عن كذب في الموقع الذي به إطار المربع، يمكننا أن نتعلم شيئاً عن كتلة النيوترون، ذلك أن هذه الكتلة هي أحد الأشياء التي تحدد الطاقة القصوى التي يمكن للإلكترون أن يحملها. ويحدد الطاقة الكلية المتوفرة في التفاعل، الاختلاف في الكتلة بين النيوترون الأولي، وكتل الجسيمات الثلاثة النهائية. وهذا الاختلاف في الكتلة تبعاً للمعادلة ($E = mc^2$)^(١)، يخبرنا كم تبلغ كمية الطاقة التي يمكن للجسيمات حملها فيما بينها. وإذا كان النيوترون كتلة، فإن مقدار الطاقة المتاحة للجسيمات الأخرى، سوف تنخفض بما يعادل هذه الكتلة. وبالتالي، فإذا كانت للنيوترون كتلة، فإن عدد الإلكترونات في موقع الإطار المربع، سوف يتساقط أسرع مما

(١) الطاقة تساوي حاصل ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء. (المترجم)

لو لم تكن للنيوترينو كتلة، وهذا موضح إلى اليمين في الشكل (٣-١٠) وبملاحظة إلى أى مدى ينخفض عدد الإلكترونات، مع زيادة طاقة الإلكترون، يمكنك أن تعرف ليس فقط عما إذا كانت للنيوترينو كتلة غير صفرية، بل أيضاً تستطيع أن تحدد ماهية هذه الكتلة. وقبل أن أخبرك بما أعلنته المجموعة الروسية، يجب أن أتحدث عن الوحدات التي تقاس بها كتلة النيوترينو. الإلكترون فولت (رمزه eV) وحدة لقياس الطاقة، وهى كمية طاقة الحركة التي يكتسبها إلكترون وحيد غير مرتبط عند تسريعه، بواسطة جهد كهربائى ساكن قيمته فولت واحد فى الفراغ. وعلى سبيل المثال، عند تسريع إلكترون من أحد قطبي بطارية سيارتك إلى القطب الآخر، يتطلب اثني عشر إلكترون فولت من الطاقة، ما دامت الكتلة والطاقة متكافئتين، فمن الممكن قياس الكتل بالإلكترون فولت، وهو تطبيق بسيط لمعادلة الطاقة = الكتلة \times مربع سرعة الضوء.

وعلى سبيل المثال، فإن كتلة الإلكترون حوالى ٥٠٠,٠٠٠ إلكترون فولت، بينما أن كتلة البروتون ٩٣٩ مليون الكترون ولت (MeV) وتبلغ كتل النيوترينوات - التي نحن بصددما - فى حدود تتراوح ما بين صفر و ٥٠ إلكترون فولت، أى نحو ١٠٠,٠٠٠ مرة أخف من الإلكترون ذاته.

وما أعلنه الروس هو: وفقاً لبياناتهم، كتلة النيوترينو هى أقل من ٤٦ إلكترون فولت (eV)، ولكنها أكبر من ١٤ إلكترون فولت (eV) وكانت النقطة ذات الدلالة، أن هذه الكتلة لا يمكن أن تكون صفراً. ودعم دليل "إيرفين" عن التذبذبات، هذا التصريح الروسى المعلن بأن النيوترينوات ربما كانت هى المكون الرئيسى للمادة المظلمة. بيد أن الفيزيائيين مجموعة من المشاكسين المحبين للجدال. وعادة ما ينظرون إلى أى اكتشاف جديد مثل كتلة النيوترينو اللاصفريه كهدف يصوبون نحوه انتقاداتهم. وليس كتقدم علمى. وأول شيء يحتمل أن يسأل عنه التجريبيون هو "ما الذى يمكن أن يخدعك لتفكر أنك حققت إنجازاً ما، بينما أنك - فى واقع الأمر - لم تحقق شيئاً؟". وإننى على يقين، بأن أى مجموعة من العلماء، لن تأخذ هذا السؤال بجدية أكثر من الفيزيائيين

التجريبيين: ولن يعمل أى منهم بقوة وطاقة كبيرتين، ليدحض النتائج التى توصلوا إليها، ولا أحد سوف يخضع نتائج الآخرين إلى مثل هذا الهجوم المضاد، وبالطبع لا يتم هذا بشكل شخصى، فمعظم الفيزيائيين يتعاونون معاً، مثل أى مجموعة أخرى من المهنيين الخبراء. وينظر إلى الصراع - ببساطة - على أنه أكثر الطرق كفاءة لتقديم العلم. ولن يقبل شيء إلا إذا خضع لنقد جماعى مضمن. وإن يمكنك فهم الخطوة التالية فى قصة النيوتريـنو برمتها، إذا لم تحتفظ فى ذهنك بالخصائص المميزة للمجتمع الفيزيائى.

لقد أثارت التجريبتان اللتان، أعلن عنهما فى العامين ١٩٨٠ و ١٩٨١، الاهتمام البالغ بين العلماء، خاصة أنهما توصلتا إلى نفس النتائج من خلال وسيلتين متباينتين. وبالتأكيد أن كلاً منهما يتضمن بعض الارتياحات. ففى تجربة "إيرفن" على سبيل المثال اعتمدت النتائج على الإفادة بأن عدداً أقل من النيوتريـنات قد تم تتبعها، عما كان يتوقع المرء. وماذا لو حدث خطأ ما فى إحصاء عدد النيوتريـنات التى تترك المفاعل؟ وعلاوة على ذلك، إن النيوتريـنات ليست الجسيمات الوحيدة التى تأتى من الجزء المركزى من المفاعل، إذ ربما تختلط بها بعض النيوترونات، مما يفسد نقاء الشعاع. والنهج التقليدى للتعامل مع هذا النوع من المشاكل، هو استخدام المنظومات الإلكترونية لانتقاء الجسيمات التى تريدها، ولكن عند التعامل مع جسيم مرأوغ كالنيوتريـنو، فإنه ينتابك القلق عن مدى أرجحية أنك ضمنت أو استبعدت بطريقة منهجية، بعض الأحداث الخاطئة فى هذه العملية. والطريقة الوحيدة للتغلب على هذه الشكوك، هو إعادة إجراء التجربة (ويفضل أن يكون فى مفاعل مختلف)، فى موقع يكون فيه الكاشف قابلاً للتحرك، ومن ثم يمكن قياس الشعاع أولاً فى موضع معين، ثم فى موضع آخر، أبعد ولكن فى نفس الاتجاه. وبهذه الطريقة، سوف تمحى أى أخطاء من ذلك النوع الذى ذكرناه آنفاً، وهكذا يمكن قياس التذبذب، بين الموضعين بدقة بالغة.

أما فيما يتعلق بعدم قيام مجموعة "إيرفن" بإجراء التجربة بهذه الطريقة، فإن هذا لا يوجب توجيه النقد للعلماء الذين قاموا بها، إذ إنهم أنوا عملهم تبعاً للإجراءات المعترف بها، كما أنهم أوضحوا بأنفسهم الحاجة إلى القيام بتجربة قياس الموضعين، ولكن لكي تحرك كاشف نيوترينو، يزن العديد من الأطنان، من مكان إلى آخر داخل الجنبات المزحمة بالأجهزة فى مفاعل رئيسى، أمراً تكتنفه الصعوبات الكأداء. والواقع، فإن بعض الجماعات التى تقوم بهذا النوع من العمل، تجد أنه أكثر سهولة تشييد كاشفين ضخمين، بدلا من محاولة تحريك كاشف واحد. وعلى أية حال، فإن نتائج أبحاث "إيرفن" لا يمكن قبولها، إلا بعد إثبات صحتها بهذه الطريقة تحديدا.

وقياسات موسكو أيضاً تعاني من مشاكل متأصلة. ولقد تحدثت بطريقة خالية من الرسميات، عن قياس اضمحلال النيوترون، وثمة حقيقة واضحة فى هذا المجال، مفادها أنه لا توجد تجمعات ضخمة من النيوترونات الحرة فى الطبيعة.

ومن الناحية العملية، فإن التجربة الروسية قد أجريت، بقياس ذرة "التريتيوم" التى تشتمل نواتها على بروتون واحد ونيوترونين. والتريتيوم نظير للهيدروجين، ومن ثم يمكنه أن يشكل رابطة كيميائية مع أى مادة يوجد فيها الهيدروجين بطريقة طبيعية. وكان التريتيوم الذى تم قياسه مرتبطاً بجزء عضوى معقد يطلق عليه "فالين"^(١).

ولكن أظهر هذا المخطط نوعاً جديداً من المشاكل. إذ عندما يضمحل النيوترون داخل نواة التريتيوم داخل جزء ضخم، فإنه يمكن للطاقة الانتقال إلى الجزء - بالإضافة إلى الجسيمات التى تنطلق إلى الخارج. وبعد الاضمحلال - على سبيل المثال - قد يتذبذب الجزء، مثل الوتر المهتز. وهذا الانتقال للطاقة سوف يخفض من الطاقة القصوى التى يمكن للإلكترون اكتسابها، وهذا العجز فى مقدار الطاقة، يمكن أن يبدو - على غير الحقيقة - مثل كتلة للنيوترينو. والطريقة الوحيدة لتصحيح هذا الارتباك

(١) حمض أمينى يدخل فى تكوين البروتينات فى الجسم. (المترجم)

المحتمل (بدلاً من القيام بالحسابات النظرية) سوف يكون بإعادة التجربة بالتريتيوم ولكن فى بيئة متباينة، إما بمادة مختلفة أو بنفس التريتيوم.

وبالتالى، كان واضحاً فى مطلع العام ١٩٨٢، بأنه على الرغم من النتائج الإيجابية لهاتين التجريبتين، فإن الأمر يقتضى القيام بعمل شاق، قبل قبول النيوتريـنو الثقيل. وربما تتعجب لماذا - فى ضوء كل الشكوك - لم يتبن مجتمع العلماء النظريين، أسلوب الترقب حتى تتأكد النتائج، قبل البدء فى إجراء أبحاثهم على كون تؤدي فيه النيوتريـنات الثقيلة دور المادة المظلمة. ويجب أن تكون الإجابة متناغمة مع الطريقة التى تعمل بها مجتمعات العلماء النظريين فى الفيزياء والفيزياء الفلكية.

إن النظرية هى لعبة الشباب. وبالطبع هناك استثناءات جديرة بالملاحظة، ولكن لأن المستقبل الكبير المتسع للفيزيائى النظرى، يحدده ما يتمكن من إنجازه فى العقد الأول بعد تخرجه فى الجامعة، قل عندما يكون عمره بين خمس وعشرين وخمس وثلاثين سنة. وفى تلك الحقبة القصيرة من الزمن، فإن الفيزيائى الطموح يجب أن يقوم بعمل مثير يبهر الآخرين، حتى يشد اهتمام زملائه حول العالم، وأحد أفضل الطرق لتحقيق ذلك، أن يكون أول من يستثمر لأقصى استفادة ممكنة، ابتداءً تجريبى جديد. فإذا كتبت واحداً من أول البحوث التى تشرح فيها بإسهاب كيف يمكن حل مشكلة المجرات، بدلالة النيوتريـنات الثقيلة، فإنك سوف تحصل فى التو على درجات نجاح أكاديمى، بالإضافة إلى دعوات لزيارة الجامعات الأخرى، لتشرح ما قمت بإنجازه، وكذلك سوف تحصل على منح بحث ضخمة من جهات ممولة، وإذا كنت محظوظاً للغاية، فسوف تحصل على دعوة لكتابة مقال بمجلة "الأمريكى العلمى" تلخص فيه عملك، عن هذا المجال الجديد. بيد أنك لى تنال كل هذه المكافآت، لابد أن تسارع باتخاذ مكان فى ذلك المجال العلمى، ومعك قطعة بحث رئيسية. ويجب أن ينظر إليك الجميع باعتبارك رائداً.

ويفسر هذا الأمر ذلك الضغط المروع على الفيزيائيين النظريين - سواء كانوا شباباً يريدون ترسيخ سمعة أو كباراً راغبين فى إدامة مكانتهم العلمية - للتحرك

بسرعة، عندما يتجلى مجال جديد فى الأفق. وبالتالي، فبمجرد طفرة التوصل إلى النيوتريـنو الثقيل، شكل العلماء النظريون أكواناً جديدة كاملة، الواحد تلو الآخر، مستنديـن على بعض النتائج التجريبية الأولية للغاية. وبالتعرف على الطريقة التى تعمل بها جماعة العلماء النظريين، فإن هذا السلوك يعد مفهوماً ويمكن تبريره لحد بعيد: إنه أسلوب عقلانى للنظر إلى احتمالية حدوث شىء ما.

وإذا أجريت اختياراً دقيقاً على نتائج تجربة ما، ثم اتضح فيما بعد أنها ليست متسقة مع الحقيقة والواقع، فإنك لن تخسر شيئاً. والأبحاث التى نشرتها فى هذا المجال، سوف تجذب بعض الاهتمام العابر السريع الزوال، ولن يلومك أحد، أنك اعتمدت فى كتابتها على ابتداعات تجريبية خادعة وغير صحيحة. وعلى كل حال، فإن التجربة غير الصائبة ليست خطأك. ومن ناحية أخرى، إذا كانت نتائج التجربة صحيحة، فسوف تحظى بالحصول على كسب كبير.

والأمر الأكيد الوحيد، أنك لو انتظرت حتى تنشر نتائج التجربة على نطاق واسع، فإنك سوف تخسر بالتاكيد، إذ سيفامر الآخرون ويعلنون الاكتشافات الرئيسية، وكل ما عليهم عمله هو إضافة ملاحظات هامشية إلى أبحاثهم.

وتضمن تلك الطريقة فى العمل، أنه حتى مجرد إشاعة عن ابتداع تجريبى جديد، سوف يدفع - على الأرجح - الباحثين إلى جانب جديد من ذلك المجال العلمى.

- إن هذا يفسر القبول الواسع للأفكار الجديدة فى العلم، كما يشرح - فى نفس الوقت - لماذا الأفكار التى تروجها الصحافة وكأنها نهائية فى أحد الأعوام، سرعان ما تختفى فى العام التالى، ولا يسمع بها أحد من جديد، وهذا ما كان عليه مصير النيوتريـنو الثقيل.

وبينما انشغل علماء الكون فى بحث نتائج النيوتريـنويات ذات الكتل، قريباً من طاقة ثلاثين إلكترون فولت، فإن مجموعات من الباحثين فى المفاعلات حول العالم، لم يكونوا أقل انشغالاً لإثبات صحة النتائج التى توصل إليها علماء "إيرفن".

وجاءت التصريحات الجديدة الأولى نتيجة لاختبارات متعجلة لا يمكن الاعتماد عليها: وتوقف الاستمرار في إجراء التجارب وقتئذٍ، وعدل الباحثون بسرعة من معداتهم وتجهيزاتهم لتفحص تذبذبات النيوتريونات. وخلال تلك الفترة المبكرة، كان الموقف ضبابياً إلى حد ما. بدا أن بعض الباحثين يدعمون فكرة التذبذبات، بينما رفضها البعض الآخر. بيد أنه بمرور الوقت، صممت التجارب خصيصاً لهذه المهمة تحديداً، وأخذت في التقدم تحت مراقبة حاسوب مركزي، وبدأ ما كان يعد فشلاً في التحول إلى نجاح. وأخذت القيود على وجود التذبذبات في إشعاعات المفاعل، تتناقص رويداً. وأصبح واضحاً، أن النتائج الأصلية كانت ببساطة خاطئة (على الرغم من أنني لم أسمع أحداً على الإطلاق يشرح السبب في هذا)، وأنه إذا كانت تذبذبات النيوتريونات موجودة بالفعل في الطبيعة، فلن يمكن مشاهدتها إلا بتجربة دقيقة للغاية وبألغة الصعوبة، وفي العام ١٩٨٤، بنفس المكان الذي أعلنت فيه أول نتائج إيجابية. قدم (فيلكس بوهم) من كاليفورنيا^(١) تقريراً يتضمن مراجعات نقدية في هذا الصدد، أوجز فيه الموقف التجريبي، وقضى تماماً على فكرة تذبذبات النيوتريونات.

ووضع هذا التقرير علماء الكون، في موقف مرتبك ومضطرب، إذ على الرغم من أن تجربة التذبذب لم تعط قيمة لكثافة النيوتريينو فإنها منحت مصداقية لنتائج التجربة الروسية، التي أعطت بالفعل قيمة لهذه الكثافة. ومن ثم يجب على التوقعات عن الدور المحتمل للنيوتريونات الثقيلة في الكون، أن تركز على هذه النتائج وحدها، التي تمخضت عن تجربة وحيدة. وإلى جانب ذلك - وعلى الرغم من أنه عادة ما يعتبر من غير اللائق الإفصاح عن هذا الأمر بشكل علني - فإن علماء الغرب لا يولون أي ثقة في التجارب التي تجرى في الاتحاد السوفيتي^(٢)، خاصة عندما تتضمن هذه التجارب قياسات دقيقة، وتتطلب معدات إلكترونية متطورة. إذ إن الباحثين الروس ليست لديهم سجلات أداء للإنجازات الفعلية، لمثل هذه التجارب العلمية، ربما يرجع السبب - على خلاف زملائهم في الغرب - أنهم مجبرون على استخدام أي من المعدات الإلكترونية التي لا تحتاجها القوات المسلحة.

(١) معهد كاليفورنيا للتقنية California Institute of Technology. (المترجم)

(٢) روسيا الاتحادية حالياً. (المترجم)

وخلال منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، أخذ الاهتمام بالنيوتريونات الثقيلة يتضاؤل رويداً بين علماء الكون. أما العلماء النظريون الذين كانوا يجنون في البحث عن إنجاز كبير مفاجئ، فقد تحولوا إلى المادة المظلمة الباردة (انظر الفصل السابع) ثم إلى الأوتار الكونية (الفصل الثامن عشر). ومن وقت لآخر، كان ثمة ولاء كلامي كاذب يتضمن تملقاً ومداهنة للنتائج الروسية، ولكن من الآن فصاعداً، لم يأخذ النيوتريونات الثقيلة مأخذ الجد، إلا عدد قليل من الباحثين. وفي الوقت نفسه، قام العديد من المختبرات حول العالم، بإجراء عمليات مضنية، لتشديد معدات لتكرار قياسات الإلكترونات التي تنجم عن اضمحلال النيوترونات في "التريتيوم". وفي زيوريخ، أدمج التريتيوم في مادة خاصة أساسها كربوني، ولكن لم يجمد في جزئ، كما حدث في التجربة الروسية، وفي "لوس ألاموس"^(١) قام الباحثون بقياساتهم على غاز التريتيوم.

وتميزت تقنية زيوريخ بمقدرتها على إجراء العديد من القياسات لاضمحلالات التريتيوم، وكان على الباحثين القلق على تأثيرات المادة الكربونية. أما مجموعة "لوس ألاموس"، فقد كانوا يجرون تجاربهم على تريتيوم "نقي"، وكان عليهم أن يكونوا قانعين برؤية عدد أقل من الاضمحلالات، لأن التريتيوم في حالة غازية وليست صلبة.

وفي صيف العام ١٩٨٦، أعلنت النتائج التي تمخضت عنها تلك التجارب، بينما كانت الجماعات في "زيوريخ" و"لوس ألاموس" مازالت تتجادل حول أيهما يستخدم أفضل الوسائل في تجاربهما، واتفقا على أمرين: أولهما مفاده أن احتمالية أن تكون كتلة النيوتريينو صفرية (أو بالغة الضالة)، تتناغم مع البيانات التي أمكن الحصول عليها، وثانيهما أن كتلة النيوتريينو يجب أن تكون - على أية حال - أقل من حوالي ثمانية عشر إلكترون فولت (ثمانية وعشرين إلكترون فولت بالنسبة لتجربة "لوس ألاموس").

ويعني آخر، فموجة التجارب الثانية، تتناقض مع نتائج التجارب الروسية، وادعائها بأن كتلة النيوتريينو يجب أن تكون أكبر من أربعة عشر إلكترون فولت. ويتوقع

(١) مختبر لوس ألاموس القومي - في نيومكسيكو Los Alamos National Laboratory. (المترجم)

معظم الفيزيائيين، أن القيود المحددة لكتلة النيوتريينو سوف تندفع للانخفاض أكثر، مع القيام بتجارب إضافية. وعندما تصل هذه القيود إلى أقل من أربعة عشر بعدد قليل من الإلكترون فولت، فإنها سوف تتوقف على أن تدخل في دائرة "الاهتمام الكوني"، إذ إنه لو كانت كتل النيوتريينوات بهذا القدر من الضالة، فإنها لن تتمكن من غلق الكون. والرأى عندي أنه لو أجرى اقتراحاً بين الفيزيائيين اليوم، فإن معظمهم سوف يرى أن هذه المحصلة هي العاقبة الأكثر ترجيحاً، لطفرة النيوتريينو الثقيل.

ما الذي نستخلصه من كل هذا؟ إن الاهتمام الذي تعاضم فجأة، وبدأ في ذلك الربيع الجميل من بعد ظهر أحد أيام العام ١٩٨٠، قد تبدد. ويمرور عقد من الزمن لن يتذكر أحد، إلا المؤرخون، أن علماء الكون - لفترة زمنية قصيرة - انشغلوا بفكرة النيوتريينو الثقيل، كمكون رئيسي للمادة المظلمة.

إن ذلك الافتراض سريع الزوال، قد أسهم إلى حد ما في فهمنا للكون، ولكنه يجب أن يسهم بشكل كبير في فهمنا للطريقة التي يعمل بها العلم.

واعتماداً على حالتك المزاجية، فإنك سوف "تنتظر بحذر" أو سوف "تشير بفخر". وفي الحالة الأولى، ستفكر في كل الجهود الضائعة وتسارع العمليات العملية، على الرغم من أن النتائج الأولية التجريبية، مازالت تصنف تبعاً لنوعها، وهكذا استنفدت كل المواهب من أجل لا شيء. أما إذا اتخذت الحالة الأخيرة كראى لك، فإنك سوف تبتهج لأنه خلال عدة سنوات قصيرة، أمكن توضيح موقف بالغ التعقيد، وذلك بجهود مشتركة للمجتمع الفيزيائي الدولي. وظهر أن كتلة النيوتريينو بالغة الضالة وتكاد أن تكون صفراً، ووضعت الطرق لاكتساب المزيد من المعرفة عن هذا الأمر، الذي يعد أحد الثوابت الأساسية للطبيعة. وسوف يكون من حقه المجادلة، أن بعض السنوات من الارتباك والتشوش، كانت ثمناً زهيداً دفع للحصول على هذه النتيجة.

وأياً كان الموقف الذي تتخذه، فإنه يبدو واضحاً - بصرف النظر عما سيكون عليه الحل لمشكلة المادة المظلمة - أن هذا الحل لن يتضمن النيوتريينوات الثقيلة فقط، بل ربما لن يشتمل على النيوتريينوات على الإطلاق. لا بد إذن أن نسعى إلى البحث عن احتمالات أخرى، أكثر إثارة للاهتمام.

الفصل الحادى عشر

هل تتحكم الجسيمات الكتلية ضعيفة التفاعل فى الكون؟
تلك المرشحات الغريبة، مكونات للمادة المظلمة

(الحصان احادى القرن، حيوان أسطورى).

(جيمس ثارير)

"الحصان أحادي القرن في الحقيقة"

إن مجموعة العوامل والظروف الحالية التى تتعلق بالمادة المظلمة، تتلخص فى أننا نعرف بوجود كمية هائلة منها فى الكون، واستطعنا استبعاد كل نوع عادى من الجسيمات المرشحة التى نعرفها، ويمكن إنتاجها فى مختبراتنا. وفى مثل هذه الظروف، لا يمكننا أن نصل إلى أية نتيجة، ورغم ذلك فالمادة المظلمة يجب أن تكون موجودة بشكل ما. لم نشاهده بعد وأننا غير مدركين لخصائصها على الإطلاق. وربما تشعر بمتعة، إذا ذكرت بأنه من الطبيعى، أن يسبب هذا الموقف العصيب حيرة بين الباحثين المتخصصين، الذين كانوا يتناقشون بجدية فى اجتماعات مغلقة، ثم يتصافحون بوقار، ويحزنون بأسى على فشل أبحاثهم فى التوصل إلى المكونات الأساسية للكون. وكنت أريد أن أقرر هذا الأمر، وأحقق توقعاتك، ولكننى لا أستطيع، لأن الحقيقة هى أن علماء الكون، وجدوا أنفسهم فى طريق مسدود، ومن ثم، تصرفوا كطفل وجد نفسه أمام كومة، من اللعب الجديدة فى عيد الميلاد. وأكثر ما يفضلها العلماء

النظريون، موقفاً يطلقون فيه العنان لخيالهم دون الخوف من أى شىء - مثل تجربة أو ملاحظة هوجاء - لتنتهى لعبتهم. وعلى أية حال، استطاعوا تقديم اقتراحات فريدة، عما قد تكون عليه المادة المظلمة للكون.

والطريق الذى اتخذوه لتحقيق ذلك هو كما يلى: إنهم اعتنقوا نظرية حديثة مسيطرة للعصر، عن التفاعلات بين المكونات الرئيسية للمادة، ولاحظوا أن هذه النظرية إما أنها تتطلب أو تسمح بوجود جسيم جديد من نوع ما. وقاموا بدراسة المتطلبات التى تتضمنها طبيعة هذا الجسيم غير المكتشف بعد، وعما إذا كان بمقدوره أن يؤدي دور المادة المظلمة الباردة، كما أوضحنا فى الفصل السابع، وأعلن فى عرض جماهيرى رائع، أن المكون الرئيسى للكون قد تم اكتشافه.

ويوضح أسلوب الأداء فى هذا البحث - مثل أى شىء آخر - الجمع بين فيزياء الجسيمات وعلم الكون، ووجود كل جسيم سوف نناقشه فى التو، كان قد اقترح فى الأصل لأسباب ليست لها أية علاقة، ببنية الكون. والبحث فى خصائصها كان مدفوعاً فقط، بالاحتياجات الداخلية للنظريات التى صيغت لتشرح التفاعلات بين الجسيمات الأساسية. وبعد استكمال هذه الخطوات فحسب، أدرك الباحثون أن تلك الجسيمات يمكنها أيضاً أن تؤدي دوراً كونياً. عندئذ، ها هى بعض الجسيمات التى افترض أنها تكون المادة المظلمة. ويشار إليها إجمالاً بـ WIMPs وهى لفظة أوائلية^(١) لتعبير: "Weakly Interacting Massive Particle". أى "الجسيم الثقيل ضعيف التفاعل". وإذا تفحصت أشهر الجسيمات التى تم اقتراحها كمكونات للمادة المظلمة، خلال السنوات القليلة الماضية، سوف أترك لك الخيار لكى تخمن أيها كان معيباً لا يصلح. ولكن قبل البدء فى ذلك التمرين فى الخيال، أود أنؤكد على نقطة واحدة من الناحية العملية:

(١) كلمة مؤلفة من الأحرف الأولى لكلمات أخرى. (المترجم)

ليس أى من أشكال المادة التى سوف نذكرها - ولا واحدة منها - قد تم ملاحظته فى المختبر. ربما تفكر أنها يجب أن توجد، ولعلك حتى تجادل، فى أننا إذا تعمقنا فى البحث بدرجة كافية، فإننا سوف نجدها، بيد أن عدداً من علماء العصور الوسطى، فكروا بنفس هذا المنطق، عن الحصان الأسطورى وحيد القرن.

وما دام وصف المزيد من الاحتمالات الغريبة، سوف تقودنا إلى بعض المجالات الدراسية الثانوية بعيدة عما نبحث عنه، ومن يرغب فى أن يتجنب مخاطر هذه المغامرة غير المحسوبة النتائج، فيمكنه أن يتقدم إلى الأمام، على الملخص فى صفحة ١٧٦، حيث قمت بوضع قائمة، سجلت فيها الجسيمات المرشحة - كمكونات للمادة المظلمة - وكذلك صفاتها المميزة.

التمائل الفائق

إلى هنا، يبرز العدد الأكبر من مرشحات المادة المظلمة، من مبدأ أساسى يعرف بالتمائل الفائق. والنظريات التى تفرض مقدماً التماثل الفائق، هى تلك التى تود كل القوى الأربعة، وهى النظريات الجوهرية التى تتحكم وتنظم اللحظة الأولى فى عمر الكون، وفى المصطلحات العلمية الجذلة لعلم الكون الحديث، يشار إليها أحياناً باللفظة الأوائلية TOE للعبارة "Theory of Everything" أى نظرية لكل شيء^(١).

ولكن ما هو التماثل الفائق؟ عندما تتحطم المادة إلى مكوناتها الأساسية، فإننا نتعرف على نوعين من الجسيمات الأولية. أولهما، الكواركات وجسيمات مثل الإلكترون (أى لبتونات)، هى التى تكون المادة الصلبة، وتصنف هذه الجسيمات كمجموعة تحت مصطلح "فرميونات"، نسبة إلى (إنريكو فيرمى) الفيزيائى الإيطالى - الأمريكى الذى تفحص بدقة - لأول مرة - صفاتها الخصوصية. وتتميز هذه الجسيمات بحقيقة أنها

(١) من المفترض أنها قادرة على تفسير جميع الظواهر الفيزيائية. (المترجم)

تلف^(١) حول محاور دورانها، بمعدلات تمثل كسوراً من العدد الصحيح للوحدة الأساسية للدوران. وبمعنى آخر، لها لف $\frac{1}{2}$ و $\frac{2}{2}$ و $\frac{3}{2}$ وهكذا، ولكنها لا تلف أبداً بمعدلات .. ١، ٢، ٣ .

وقد أطلق مصطلح (بوزونات) على فئة ثانية من الجسيمات - نسبة إلى الفيزيائي الهندي (س.ن.بوز)^(٢). وتلك الجسيمات لها معدل لف .. ٠، ١، ٢ . وهكذا.

وعلى غير الفرميونات، فهي ليست جزءاً من بنية المادة الصلبة. وبدلاً من ذلك، فإنها تمر بسرعة وخفة بين الجسيمات الأخرى، مما يؤدي إلى إنشاء القوى التي تربط المادة ببعضها (أو في أحوال معينة، تمرقها إرباً).

ويعد الفوتون أكثر البوزونات المألوفة، وهو الجسيم الذي يرتبط بالضوء العادي. وعندما يتم تبادل الفوتونات إلى الأمام والخلف بين جسيمين مشحونين (على سبيل المثال، الإلكترون والنواة التي يدور حولها)، فإن هذا يؤدي إلى إنشاء القوة الكهربائية المألوفة، وبناء على ذلك، يمكن اعتبار أن أجزاء الذرة تتماسك معاً بالفوتونات التي يتم تبادلها بين الإلكترونات والنواة.

ونرى في الذرة بوضوح كبير، الأنوار التي يؤديها نوعان من الجسيمات، إذ إن بنية الذرة - الهيكل الصلب الذي يكونها - يتشكل من إلكترونات وبروتونات ونيوترونات، وكل هذه الجسيمات تنتمي إلى الفرميونات. وكذلك الكواركات، التي تكون البروتونات والنيوترونات. بيد أن هذه الجسيمات تتماسك معاً في بنيتها، بالتبادل الدائم للبوزونات. تماماً مثل حفاظ الفوتونات على الإلكترونات في مدارها حول النواة، وثمة جسيمات مشابهة - يطلق عليها "جلونات"، تبقى على الجسيمات التي في نواة الذرة، متماسكة معاً^(٣).

(١) دوران الجسيم حول نفسه. (المترجم)

(٢) (ساتيندرا نات بوز) (١٨٩٤ - ١٩٧٤) عالم فيزيائي هندي متخصص في الفيزياء الرياضية. (المترجم)

(٣) المزيد من الوصف الكامل للطريقة التي يتم بها تبادل الجسيمات، مما يؤدي إلى إنشاء قوة، مشروحة في كتابي "from Atoms to Quarks" (من الذرات إلى الكواركات). (المؤلف)

إن النقطة الأساسية في موضوع البوزونات والفرميونات تلخص فيما يلي: إننا لم نشاهد قط في مختبراتنا تفاعلاً تتحول فيه أحد الجسيمات إلى جسيم آخر. ومعنى آخر، فإن الأمر يبدو وكأن ثمة "جدار" لا يخترق ينتصب بين النوعين من الجسيمات، إذ إنهما دائماً منقسمان حسب الوظيفة التي يؤديونها. وهذه الصفة الفارقة، لا بد وأنها كانت موجودة منذ أن انفصلت الجاذبية بعيداً عن القوى الأخرى، عندما كان عمر الكون ٤٣-١٠ ثوان. ونتج عن هذا - ولأسباب فنية متنوعة - أننا إذا أردنا صياغة نظرية التوحيد النهائية، حيث تعامل الجاذبية بنفس طريقة القوى الأخرى، لا بد لنا من تقديم تفاعلات فيها يمكن للفرميونات أن تتحول إلى بوزونات، وتستطيع البوزونات أن تتحول إلى فرميونات. وبالفعل فإن الصفة الفارقة بين الجسيمات كبنية والجسيمات ككقوة، لم تكن موجودة، عندما نشأ الكون، ولا بد أنها ظهرت بعد التجمد الأول، عندما انفصلت الجاذبية عن كل القوى الأخرى (يجب أن نلاحظ أنه عندما أمكن للجسيمات أن تتحول كل واحدة إلى الأخرى، في أى نوع من التفاعلات، فكر الفيزيائيون فيها على أنها الجسيمات ذاتها، ولم يحدث لها أى تغيير، وبالطريقة نفسها، فأنت الشخص عينه سواء ارتديت بدلة أنيقة أو ملابس خفيفة).

وفي ذلك العالم الذي لا توجد فيه الصفة الفارقة بين البوزونات والفرميونات، يطلق عليه "فائق التماثل". وسوف يكون هذا العالم متناهي البساطة، إذ سوف يكون هناك نوع واحد فقط من الجسيمات، يعتبر مسؤولاً عن كل من البنية والقوة. وأكثر الطرق الواعدة لتفهم أصول الكون، يبدو أنها تتضمن نظريات تسلم جداً أن كل شيء، بدأ في حالة من التماثل الفائق.

وهذه النظريات تنبأت أيضاً بأنه في البداية، عندما كان الكون في حالة تماثل فائق، كان له شركاء - يمكن القول إنها صور مرآتية - لكل الجسيمات الماكوفة. ونعلم أنه في عالمنا المعاصر، ثمة بوزون يطلق عليه الفوتون، الذي يولد القوة الكهربائية. وتنص نظريات التماثل الفائق، على أنه قبل أن تنفصل الجاذبية عن القوى الأخرى، كان هناك جسيم آخر، مطابق للفوتون في كل الوجوه، ما عدا أنه يلف بمعدل $\frac{1}{2}$ بدلاً

من ١ وكان هذا الجسيم الآخر - الذى أطلق عليه "الفوتينو" - من الفرميونات. وفى الكون المبكر، كان يمكن لذلك الجسيم أن يتحول إلى فوتون والعكس.

وعندما انفصلت الجاذبية عن القوى الأخرى، اختفى التماثل بين البوزونات والفرميونات، وفقدت البساطة المبكرة للكون. ومن وجهة نظر الجسيمات، فإن فقدان التماثل أظهر نفسه فى العملية التى أصبح فيها الفوتينو ثقيلًا للغاية. أكثر ثقلًا من البروتون. وتنبأت النظريات بأنه فى الكون المعاصر، ثمة نوع من العالم المراتى مكون من شركاء فائقى التماثل. لكل الجسيمات التى نشاهدها عادة. وعلى سبيل المثال، نعرف أن هناك جسيمًا يطلق عليه الإلكترون، ولكن تخبرنا النظريات أنه من الممكن أيضًا تخليق مشابه فائق التماثل للإلكترون له معدل لف ١ بدلاً من $1/2$ ، وأنه ثقيل للغاية. ويطلق على هذا الجسيم "السليكترون". ويفترض أيضًا وجود سكواركات (الشبيهة بالكواركات)، وكذلك "سنيوترينوات" (الشبيهة بالنيوترينوات)، وهكذا. وربما كان هناك أيضًا "سرجال" و"سنساء"، على الرغم من النظريات - على حد علمى - لم تتطرق إلى هذا الأمر بعد..

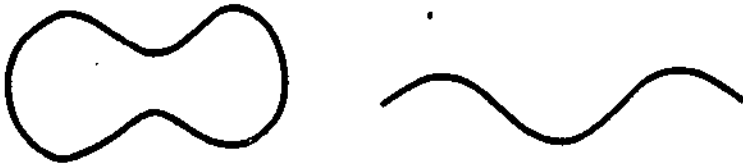
وفى الوقت الحاضر، لا تتطلب النظريات، أن تكون هذه الجسيمات فائقة التماثل تتجمع فى نفس الأماكن، مثل المادة العادية. كما لم تعطينا هذه النظريات أى فكرة راسخة، عن المقدار المفترض لكتلة جسيم مثل الفوتينو، على الرغم من أن التفكير السائد فى الوقت الحالى، أن الفوتينو ربما يكون - على الأقل - أثقل من البروتون أربعين مرة. وفى الوقت نفسه، فإن النظريات تقضى بأنه ما دام التماثل قد تحطم، فإن التفاعل بين العالم فائق التماثل وعالمنا، يجب أن يكون ضعيفًا للغاية. ويجب أن تكون كل "السجسيمات" أكثر مراوغة بكثير من النيوترينو، ومن المستحيل اكتشافها وتتبعها مباشرة، باستخدام تقنيتنا الحالية.

وبكل هذه الخواص، فإن الجسيمات فائقة التماثل، تكون مرشحات مثاليات كمكونات للمادة المظلمة. إن تلك الجسيمات ثقيلة، إذن يمكنها ممارسة قوة تجاذبية.

وكذلك فإنها ضعيفة التفاعل، ومن ثم، فلن تتدخل فى الأنشطة المحتدمة فى أشياء كالنجوم أو معجلات الطاقة العالية. ماذا يمكن للمرء أن يطلب أكثر من ذلك؟

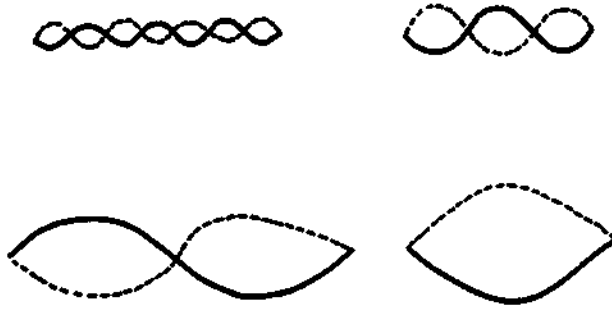
الأوتار الفائقة

إن الإدراك الحالى المسابر للعصر، عن فكرة التماثل الفائق، متضمن فيما يطلق عليه نظريات "الأوتار الفائقة"، وفى هذه النظريات تكون كل المكونات الأساسية لكل الجسيمات، عبارة عن أوتار ضئيلة للغاية من مادة شديدة الكثافة، مضمورة داخل سحابة ناعمة وخفية كالزغب، من المادة التى تكون الطبقات الخارجية للجسيمات المألوفة. إن الأوتار متناهية الصغر، لا يزيد طولها على ١٠-٣٢ سنتيمترا. ونوع الوتر الذى يفترض أنه يكون قلب المادة، يكون حجمه تقريباً - بالنسبة للبروتون - مثل العلاقة فى الحجم بينك وبين مجرة صغيرة، وفى أولى نظريات الأوتار التى تمت صياغتها، كانت الفرميونات عبارة عن أنشوطات، مثل تلك الموضحة إلى اليسار فى الشكل ١١.١، بينما تطابقت البوزونات مع الأوتار المفتوحة، كما هو موضح إلى اليمين فى نفس الشكل. وحتى الكواركات افترض أنها مكونة من أوتار، إذا تفحصتها عن قرب بما يكفى.



الشكل 11.1

ولو اعتقدنا بأن قلب المادة له نوع من البنية الوترية، إذن فهناك تشابه مفيد، تساعدنا على فهم كيف يجب أن تسلك المادة (خاصة المادة فائقة التماثل). عندما تنقر وتر جيتار، يمكنك أن تجعله يتذبذب، كما هو موضح في الرسم الأسفل إلى اليمين، بالشكل (٢-١١) ويطلق على هذا "الشّد الأساسي" في الموسيقى، وهي أكثر النغمات الموسيقية انخفاضاً، التي يمكن أن تصدر عن الوتر المهتز. ويمكنك أيضاً أن تجعل الوتر يتذبذب في أشكال أخرى، كما هو موضح في الثلاثة رسومات الأخرى وهذه الأشكال المتباينة تصدر توافق النغمات الموسيقية، والألحان والإيقاع، التي تعطي النغمات الموسيقية ثراها، ولآلة موسيقية معينة كيفية النغمة.



الشكل 11.2

لكي يتذبذب وتر الجيتار لابد له من طاقة، وتظهر هذه الطاقة نفسها، في طاقة اهتزاز الوتر عندما يتذبذب. وحيث إن الطاقة والكتلة متكافئتان (الطاقة = الكتلة \times مربع سرعة الضوء $E=mc^2$)، وهذا يعني أن كلاً من أشكال تذبذب وتر الجيتار الموضحة، يوجد بها ثمة اختلاف طفيف في الكتلة مصاحبة لها.

عندما "ينقر" الوتر الفائق، فإنه أيضاً يمكنه أن يتذبذب بنغمات متباينة. وبالنسبة لوتر الجيتار، فإن كلا من هذه التنظيمات الثابتة للنغمات، سوف تكون لها طاقة مختلفة وكتلة متباينة، عن الآخرين. وعندما نتفحص وترًا فائقًا متذبذبًا عندئذ، فإننا نرى شيئاً

ما له كتلة، وأن هذه الكتلة تختلف من وتر متذبذب، إلى آخر بيد أن هذا ما نراه بالضبط، عندما نتفحص الجسيمات المختلفة، إذ إنها أيضاً لها كتلة متباينة. وهذا الأمر يفسر القواعد الأساسية لنظرية الأوتار الفائقة. فكل شكل من الأشكال المحتملة واللانهائية لاهتزاز الوتر الفائق، يطابق جسيماً مختلفاً، ومن ثم، فإننا نتوقع وجود عدد غير محدود، من الجسيمات المحتملة في العالم.

وتقودنا هذه الفكرة أيضاً إلى الاعتقاد أنه عندما ننقر على وتر (على سبيل المثال، بإضافة طاقة في تصادم طاقة عالية) سوف تتلاشى في النهاية النغمات التوافقية المرتفعة، تاركة فقط الشد الأساسي للتذبذب. وهذه نقطة مهمة، لأن ذلك يعنى أننا عندما نبحث عن الجسيمات فائقة التماثل، فإننا سوف نجد - على الأرجح - تلك التي تتطابق مع الشد الأساسي للتذبذب، الذي يمكن تفسيره على أنه الأقل كتلة من بين الجسيمات فائقة التماثل. وحتى الآن، ربما تبدو هذه المجادلة مدعاة للترتياب وهمية، ولكن في الواقع ليست هناك أي غرابة فيها. والآن دعني أزيد الأمر إيضاحاً. في جميع نظريات الأوتار الفائقة التي يفكر فيها بتمعن العلماء النظريون، لا تتذبذب الأوتار في الثلاثة أبعاد المعتادة، ولا حتى في العالم الفيزيائي ذي الأبعاد الأربعة. ويبدو أن النظريات تريد إبلاغنا، أن الأوتار لا بد أنها تتذبذب إما في عشرة أو ستة وعشرين بعداً! (هل أنت على ثقة، بأنك لا تريد التقدم إلى الأمام رأساً إلى حيث الملخص في صفحة ١٧٦).

لا تحاول حتى أن تتصور ثلاثة أبعاد، لا يمكن فعل ذلك. والعلماء النظريون مدفوعون لأخذ مثل هذه الأفكار بعين الاعتبار، لأنه فقط في الأبعاد الأعلى، يمكن للنظريات التي يصوغونها أن تتجنب ما يطلق عليه الانحرافات. وعليك ألا تكثرث بالتعريف الفني لهذا المصطلح: إذ إن عالم الرياضيات يستجيب لأحد الانحرافات في معادلاته، تماماً كما تستجيب أنت عندما تتلقى إخطاراً من البنك بأنك قمت بالسحب على المكشوف من حسابك الجاري. والانحرافات أشياء سيئة ومربكة، ويجب تحاشيها مهما كانت التكلفة، حتى لو وصل الأمر إلى تكديس الأبعاد بكمية كبيرة.

ويبدون إثارة القلق بشدة غير مبررة عن تعدد الأبعاد، أود أن أوضح أنه ليس ثمة سبب يدعونا إلى توقع أن نتخلص من الانحرافات في أى بعد. وما وجده العلماء النظريون مشابهاً لما قد تجده إذا اكتشفت أنه باستطاعتك أن توازن كشف حسابك، لو استخدمت ورقة بها عشرة أسطر أو ستة وعشرين سطراً، ولكن ليس تحت أى ظروف أخرى. وربما سوف تفهم أخيراً لماذا احتاج حسابك الجارى لهذا، بيد أنك سوف تشعر دائماً بإحساس غامض فى العملية كلها. وبطريقة مماثلة، فإن العلماء النظريين يفهمون الآن لماذا عشرة وستة وعشرين بعداً للأوتار تعد مختلفة، ولكنها لن تجعل النتيجة أقل إثارة للدهشة.

وبالطبع، يؤدى تعدد أبعاد الأوتار المكونية، إلى مشكلة أخرى ومع ذلك، فإننا نعيش بالفعل فى عالم بأربعة أبعاد (ثلاثة مكانية "الطول والعرض والارتفاع" وواحد زمنى). وللالتفاف حول هذا التباين، تفترض نظريات الأوتار الفائقة، أنه عندما انفصلت الجاذبية، اجتازت الأبعاد الإضافية عملية يطلق عليها "الدمج". وكما يوحى به الاسم، تنتبأ تلك النظريات بأن الأبعاد الإضافية "التفت على بعضها"، بحيث يبدو العالم بأربعة أبعاد فقط، إلا إذا تفحصته بمقياس بالغ الدقة.

والتشابه القياسى الذى استخدم لتفسير الدمج، يتضمن خرطوم حديقة عادياً. فعندما ترى خرطوماً من مسافة بعيدة، فإنه يبدو مثل الوتر أى شيئاً ذا بعد واحد. وما إن تقترب منه، حتى تدرك أن هناك بعداً إضافياً - ألا وهو عرض الخرطوم - ملتف حول بعضه، ويكون مرئياً فقط عندما تتفحصه عن قرب. وهكذا هى حال الجسم العادى، الذى يبدو بأربعة أبعاد، إلا إذا اختبرته عن قرب كاف، لتتأكد بأن الوتر فى مركزه. وفى هذه الحالة سوف يظهر أنه ذو عشرة أبعاد.

ولكن ما الذى سوف نفعله بالأوتار الفائقة؟ فمن ناحية، توفر بحق نظرية لكل شىء، تتميز بالأناقة والمتعة، كما تقدم الأوتار الفائقة مخططاً، يشتمل على كل القوى

التي تظهر على قدم المساواة، وهي تمثل تحقيقاً لحلم أينشتين الجوهري. إنها فضلاً عن ذلك، تتميز بعض أشكالها بأن الجاذبية لا يمكن تجاهلها حتى بعد زمن (بلانك)^(١)، عندما توحدت الجاذبية مع كل القوى الأخرى، ومن ثم أمكن وصف القوى بطريقة موحدة، حتى في عالمنا المعاصر.

ومن ناحية أخرى، ليس هناك حالياً أى تنبؤ نظري، يمكن اختباره تجريبياً أو بملاحظته والوصول إلى نتائج. إن العلماء النظريين قاموا بتجارب عدة، ومن ثم، فإنهم لم يعوروا يبحثون عن توجيه وإرشاد الملاحظة، بل يجب أن يعتمدوا على حسهم الجمالي والفني. وهذه الطريقة في التعامل مع العلم لم يتم تجربتها قط من قبل، وسوف يكون من المثير للاهتمام أن نرقب ما الذي سوف تسفر عنه.

الكون الظل

وأحدى النتائج المثيرة لنظريات الأوتار الفائقة، أنها قد تتسبب في ظهور نوع آخر من المادة المظلمة، في وقت ما في المستقبل. وأوضح (روكي كولب) و(ديفيد سيكل) و(مايكل تيرنر) من جامعة شيكاغو ومختبر المعجل الوطني فيرمي، أن أحد أشكال نظرية الأوتار الفائقة، القادرة على جذب الانتباه تحديداً، من وجهة نظر الناحية الفنية والجمالية الرفيعة، تبدو فيها المعادلات الرياضية وكأنها توحى، بأنه في زمن (بلانك). انشطر الكون إلى جزأين منفصلين. أحدهما عالمنا الطبيعي، بكل ما فيه من أنواع متكاملة من الجسيمات وشركائها الفائقة التماثل وهناك أيضاً - بالإضافة إلى هذا - عالم ظل. والمادة في هذا العالم الظل، تتشابه مع عالمنا أنها أيضاً، لها جسيماتها و"سجسيماتها". وفي حدود كل عالم، تتفاعل الجسيمات مع بعضها، خلال تكامل

(١) وحدة قياس زمن، وهو الوقت الذي يستغرقه الفوتون لينتقل بسرعة الضوء، مسافة في الفراغ تعادل طول بلانك ١٠^{-٣٥} متراً تمت تسمية هذه الوحدة الزمنية على اسم العالم الألماني (ماكس بلانك) (١٨٥٨ - ١٩٤٧). (المترجم)

تام للقوى الأربعة^(١). ومع ذلك، فإن الجسيمات في أحد العالمين، يمكنها التفاعل مع الجسيمات في العالم الآخر، من خلال قوة الجاذبية^(٢). ويمكن أن يكون إلكترونًا وإلكترون ظل، بالقرب من بعضهما، ولكنهما لا يشعران بالقوة الكهربائية، على الرغم من أن كل منهما يحمل شحنة كهربائية خاصة به. والقوة الوحيدة بين الاثنين، هي قوة الجاذبية، الضعيفة نسبيًا.

ويمدنا التأمل في الكون الظل، بطريقة بسيطة للتفكير في المادة المظلمة. لقد انشطر الكون إلى مادة عادية ومادة ظل في زمن بلانك، وتطور كل منهما وفق قوانينه الذاتية. ومن المحتمل أن (هابل) الظل اكتشف أن كونه الظل كان يتمدد، ولنفترض أن بعض فلكيي الظل، فكروا فينا وكأننا مرشحوں كمكونات لمادتهم المظلمة. وحتى ربما كان هناك قرين ظل لك في مكان ما، يقرأ رؤية ظلية من هذا الكتاب.

الأكسيونات .. حصان أسود آخر^(٣)

وثمة جسيم كئلى ضعيف التفاعل WIMP مفصل آخر، يطلق عليه "الأكسيون". وهو مثل الفوتينو وشركائه، وقد اقترح الأكسيون، لاعتبارات خاصة بالتماثل. ومع هذا، بخلاف السجسيمات. أنها تأتي من نظريات التوحيد الكبرى، التي تصف الكون عندما كان عمره ٣٥-١٠ ثوانٍ، وليس من نظريات التوحيد الكاملة، التي تعمل في زمن بلانك. ومعروف منذ زمن طويل للفيزيائيين، أن كل تفاعل بين الجسيمات الأولية يخضع لتماثل نطلق عليه اختصاراً CPT، وهذا يعنى أننا إذا نظرنا إلى فيلم لأحد التفاعلات، ثم ننظر إلى نفس التفاعل عندما (١) نفحصه في مرآة. (٢) نستبدل بكل الجسيمات جسيمات مضادة و(٣) ندير الفيلم بطريقة عكسية، سوف تكون النتائج متطابقة. وفي

(١) القوة الشديدة والقوة الضعيفة والكهرمغنطيسية والجاذبية. (المترجم)

(٢) ويسبب هذه الخاصية يجب - على وجه التحديد - ألا تدخل المادة الظل، تحت الاسم الشامل WIMP

ما دام WIMP يمكنها التفاعل مع المادة العادية خلال القوى غير الجاذبية، ومع ذلك تبقى المادة الظل "مظلمة"، بالمعنى الذى نقصده ونستخدمه فى هذا الكتاب. (المترجم)

(٣) حصان يربيع شوط السباق دون أن يتوقع فوزه. (المترجم)

هذا المخطط فإن P يعبر عن التماثل Parity (المرآة)، و C تمثل اقتران الشحنة Charge Conjugation و T لتعاكس الزمن Time Reversal (إدارة الفيلم بطريقة عكسية). وثمة اعتقاد معتاد، أن الكون كان متماثلاً تحت مبدأ CPT لأنه - على الأقل - على مستوى الجسيمات الأولية، التي كانت متماثلة تحت C و P و T بطريقة مستقلة. واتضح أن هذه ليست هي الحالة. ذلك أن الكون الذي تراه في المرآة ينحرف قليلاً، عن الكون الذي نشاهده بشكل مباشر، كما يبدو الكون عندما ندير الفيلم بطريقة عكسية. وما يحدث هو أن الانحرافات بين الكون الحقيقي والمعكوس، في كل من هذه الحالات، تلغى بعضها بعضاً، عندما نتفحص الثلاثة انعكاسات مجتمعة.

وعلى الرغم من صحة هذا الأمر، فإنه حقيقي أيضاً أن الكون متماثل تقريباً تحت CP تعمل منفردة و T تعمل منفردة. ويعنى ذلك أن الكون تقريباً متماثل، إذا نظرنا إلى مرآة واستبدلنا بالجسيمات جسيمات مضادة أو نظرنا إليه بشكل مباشر. إن كلمة "تقريباً" هي التي تقلق الفيزيائيين. لماذا تكون الأشياء قريبة من الكمال، ولكنها تفشل في تحقيق الهدف؟

وفي العام ١٩٧٧، وجد كل من (روبرتو بيبشى) و(هيلين كوين)، وكلاهما في جامعة ستانفورد، طريقاً طبيعياً للإجابة عن هذا التساؤل في إطار نظريات التوحيد الكبرى، وهو طريق اتضح مؤخراً أنه يشتمل على وجود جسيم جديد، لم يكن قد اكتشف بعد. وكان الجسيم الذي اقترحوه، أطلق عليه اسم "الأكسيون". ويفترض أن هذا الأكسيون خفيف للغاية (أقل مليون مرة من كتلة الإلكترون). وأنه لا يتفاعل إلا بضعف بالغ مع المادة الأخرى. إن الكتلة الضئيلة والتفاعل الضعيف، هما اللذان يفسران كلمة "تقريباً" التي كانت تزعج العلماء النظريين.

وأظهرت إحصائيات وحسابات علماء الفلك، أنه في الكون المتمدد، يتوقع أن تشكل الأكسيونات مجال إشعاع خلفي، شئ مماثل لإشعاع الموجات الدقيقة الخلفية للكون الذي تبلغ درجة حرارته ٢ فوق الصفر المطلق أي -٢٧٠، ١٥ مئوية

(انظر الفصل الثالث). إن الشنوذيات (عدم الانتظام والاضطراب في الحركة) فى خلفية هذا الأكسيون، هى التى يمكن أن تؤدى دور المادة المظلمة.

الخلاصة

لقد سجلت بأسفل هذه الصفحة مرشحات المادة المظلمة، مع وصف مختصر لصفاتها المميزة وبيان قصير يشرح لماذا اعتقد الباحثون فى وجودها.

جسيمات التماثل الفائق .. الفوتينوات ، سكواركات ، ... إلخ .

تنبأت النظريات التى توحد كل قوى الطبيعة، بوجود هذه الجسيمات. إنها تشكل مصفوفة من نظائر الجسيمات المألوفة لنا، بيد أنها أثقل بكثير. وقد سميت قياساً لشركائها، فالسكوارك هو الشريك الفائق التماثل للكوارك، والفوتينو هو الشريك الفائق التماثل للفوتون وهلم جرا. ويمكن أن يكون أخف هذه الجسيمات، هى المادة المظلمة، وإذا كان الأمر كذلك، فإن كل جسيم ربما يزن - على الأقل - أربعين مرة قدر البروتون.

المادة الظل

فى بعض الرؤى، لما أطلق عليها نظريات الأوتار الفائقة، ثمة كون كامل من المادة الظل، يوجد موازياً لكوننا، ولقد افترق الكونان عندما انفصلت الجاذبية عن قوى الطبيعة الأخرى. وتتفاعل جسيمات الظل مع جسيماتنا العادية، من خلال قوة الجاذبية، التى تجعل جسيمات الظل مرشحات مثالية للمادة المظلمة.

الأكسيونات

الأكسيون خفيف للغاية (ولكن يفترض أنه جسيم شائع جداً). وهذا الجسيم - إذا كان موجوداً - سوف يحل مشكلة طويلة الأمد، فى نظرية الجسيمات الأولية.

ويفترض أن له كتلة أقل مليون مرة، من كتلة الإلكترون، كما يعتقد بأنه يتخلل الكون بطريقة مماثلة، لخلفية الموجات الدقيقة. وسوف يتكون من حشد من الأكسيونات فوق مستوى الخلفية الكلية.

هل توجد الجسيمات الكتلية ضعيفة التفاعل في الشمس؟

عبر كل هذا الفصل، أكدت حقيقة أن كل المرشحات كمكونات للمادة المظلمة، والتي ناقشناها، هي جسيمات افتراضية تماماً. وليس ثمة دليل بأن توجد واحدة منها - بالفعل - في الطبيعة. ومع هذا، سوف أكون مقصراً إذا لم أذكر مجادلة واحدة - مجرد وميض ضئيل من الأمل - التي تميل إلى دعم فكرة وجود الجسيمات الكتلية ضعيفة التفاعل، بشكل أو آخر. وهذه المجادلة لها علاقة ببعض المشاكل التي برزت في خضم مفهومنا لأنشطة وبنية الشمس.

إننا نعتقد أن طاقة الشمس، تنجم عن تفاعلات نووية تحدث عميقاً في مركز الشمس. عندئذ - لو كانت تلك هي الحالة - فإن النظرية تخبرنا بأن هذه التفاعلات يجب أن تنشأ عنها نيوتريونات، في الأساس يمكن اكتشافها وتتبعها فوق كوكب الأرض. ولو كنا نعرف درجة حرارة ومكونات مركز الشمس (كما نعتقد أننا نفعل) فإذن يمكننا التنبؤ بدقة بعدد النيوتريونات التي يجب اكتشافها وتتبعها، لأنه في العشرين سنة الأخيرة كانت ثمة تجربة تجرى في منجم الذهب في ولاية "جنوب داكوتا" (بالولايات المتحدة) لاكتشاف وتتبع تلك النيوتريونات تحديداً، ولكن للأسف، فإن النتائج محيرة؛ إذ إن العدد الذي تم اكتشافه وتتبعه مجرد نحو ثلث مما توقعه العلماء. وهذا ما يعرف بمعضلة النيوترينو الشمسي. والصفة المميزة الثانية للشمس، التي تتعلق بوجود جسيمات WIMPs، يطلق عليها التذبذبات الشمسية. عندما راقب الفلكيون سطح الشمس بعناية، وجدوها تهتز وترتج، وأن الشمس كاملة تنبض لمدد تبلغ عدة ساعات. وتشبه هذه التذبذبات موجات الزلازل، ومن ثم، يطلق الفلكيون على دراستهم "علم الزلازل الشمسي". وما دما اعتقدنا بأننا نعرف تكوين الشمس، يجب علينا إذن

أن يكون بمقدورنا التنبؤ بالخواص المميّزة لموجات الزلازل الشمسي هذه. ومع ذلك فهناك تباينات طويلة الأمد بين النظرية والملاحظة في هذا المجال.

وحديثاً، لاحظ الفلكيون أنه إذا كانت المجرة بالفعل مليئة بالمادة المظلمة، في شكل جسيمات WIMPs، إذن، فإن الشمس لابد أنها امتصت - على امتداد عمرها - عدداً ليس بالقليل من هذه الجسيمات. ومن ثم، فإن جسيمات WIMPs سوف تكون جزءاً من مكونات الشمس، وهذا الجزء لم يؤخذ في الاعتبار حتى الوقت الحاضر. وعندما يتم تضمين جسيمات WIMPs في الإحصائيات والحسابات، فإنه سوف يتبع هذا شيئين هما: أولاً، اتضح أن درجة حرارة مركز الشمس أقل مما كنا نعتقد، وبالتالي، فإن عدداً أقل من النيوتريونات قد انبعثت. وثانياً، أن الصفات المميّزة لكثافة الشمس، قد تغيرت بطريقة معينة، تزيد من مدى دقة التنبؤات بالتذبذبات الشمسية.

وهذه النتيجة مجرد بارقة أمل لما قد يحدث في المستقبل، فيما يتعلق بوجود الجسيمات الكتلية ضعيفة التفاعل، ولكن لا تضيف عليها أهمية بالغة. ويمكن تفسير كلا من معضلة النيوتريون والتذبذبات بشكل دقيق، بالتأثيرات التي ليس لها علاقة بالجسيمات الكتلية ضعيفة التفاعل. وعلى سبيل المثال، فإن نوع تذبذبات النيوتريون التي نوقشت في الفصل العاشر، يمكنها حل معضلة النيوتريون الشمسي، حتى لو كان للنيوتريون كثافة بالغة الضالة، كما يمكن للتغيرات العديدة في تفاصيل البنية الداخلية للشمس، أن تفسر التذبذبات. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه الظواهر الشمسية، التي تمثل الإشارة الوحيدة التي لدينا، أن واحداً من المرشحات الغريبة للمادة المظلمة، ربما يوجد بالفعل.

الديناميكيات والمادة المظلمة

كل هذا الحديث عن التماثل الفائق والنظريات الأساسية، يعطى للمجادلة عن طبيعة المادة المظلمة نمطاً متفرداً، لا يمت بأي صلة للطريقة التي تجري بها بالفعل المناقشات بين علماء الكون. وأكثر الأشياء التي أفضّلها عن هذا المجال، هو أن كل شخص فيه، يبدو أن بمقدوره حفظ روح المرح والأمل عن عمله أو عملها.

ومنذ فترة مضت، وفي حديث مع مجموعة من علماء الكون، عن انقراض الديناصورات، شرحت لهم، أن إحدى النظريات تنص على أن الشمس، أثناء بورائها حول مجرة الطريق اللبنى، تتحرك - على فترات منتظمة - أعلى مستوى المجرة، وعندما تقوم بهذا، فإن الغبار الموجود فى هذا المستوى، يتوقف عن حماية كوكب الأرض، ومن ثم، فإنه يغرق فى الإشعاعات الكونية المهلكة، التى قد تتخلل الكون، كما يعتقد مؤلفو هذه النظرية. ومن آخر القاعة التى كنت ألقى فيها المحاضرة، تسأل أحد خريجى الجامعة وهو ينتفض واقفاً هل تعنى أن الديناصورات انقرضت بتأثير إشعاع الفوتينو؟.

انفجرنا جميعاً فى الضحك. إذ إن التلاصق بين الحفريات المتحجرة^(١) الحقيقية الضخمة والموحشة - والتى لا سبيل إلى الشك فيها - والتى توجد فى المتاحف، كان ربطها بالفوتينو ذلك الجسيم الافتراضى والنظري، أمراً مضحكاً لشدة سخافته، وهذا الأسلوب الذى يتسم بالمرح، لأحد أهم الأسئلة الأساسية فى علم الكون الحديث - يسعدنى القول - تطابق الحالة الذهنية للعلماء الذين يعملون فى هذا المجال. إذ إنها تساعد فى أن تجعل هذا الموضوع الشديد التعقيد، ممتعاً للغاية.

(١) بقايا الحيوان والنبات المتحجرة فى الأرض والتى ترجع إلى عصور موغلة فى القدم. (المترجم)

الفصل الثانى عشر

الأوتار الكونية حل أم مخادعة؟

”اصمتوا يا أولاد، واغلقوا أفواهكم، سوف أحكى لكم جميعاً قصة مخيفة

اصمتوا يا أولاد، واغلقوا أفواهكم، سوف أحكى لكم من الدودة...!!“.

أغنية شعبية أيرلندية

ثمة شىء يجب أن يكون واضحاً منذ البداية. أن الأوتار الكونية، موضوع هذا الفصل، والأوتار الفائقة التى تحدثت عنها فى الفصل الحادى عشر، شيئان مختلفان تماماً. والعلاقة الوحيدة التى تربط بينهما هى اسماهما فحسب.

وتعد الأوتار الفائقة أصغر من أصغر جسيم أولى، بيد أن الأوتار الكونية ربما تمتد من جانب إلى آخر خلال أجزاء كبيرة من الكون. وفى بعض صيغ النظريات، فإنها - فى واقع الأمر - تجرى عبر الكون برمته، مثل وتر عقد اللؤلؤ. وأحياناً يجنح بى الخيال، فأحب أن أفكر فى الأوتار الكونية، وكأنها إعادة التناسخ للشعبان الأسطورى الذى يلتهم ذيله^(١). وكان هذا رمز مصرى قديم، يتكون من أفعى تاكل ذيلها. وفى علم الكون الإسكندنافى القديم ثمة أفعى تحيط بالكون، خفية إلى الأبد، بيد أنها تبذل إلى ما لا نهاية تأثيرها على المواد الأرضية. وأى فرد يود التعمق فى دراسة

(١) يكون هذا الرمز فى شكل دائرى، ويرمز إلى الطبيعة الدورية للكون، خلق من الدمار والحياة بعد الموت، وكان هذا يوحى بالخلود فى مصر القديمة. (المترجم)

بعض النقاط، سوف يكون قادراً على إدراك العلاقة بين الأساطير القديمة، والمفاهيم الجديدة في علم الكون.

ما الأوتار؟

كما يلمح إليه الاسم، فالأوتار الكونية كيانات طويلة للغاية، ذات بعد واحد، تمتد في الفضاء. وإذا كانت موجودة (و - كما سوف نرى - أن هذا أمر تكتنفه الريبة الشديدة) فإنها ستكون ضخمة بشكل مروع. وفوق سطح كوكب الأرض، فإن قطعة من الوتر الكونى طويلة بما يكفى لتمتد من ذرة إلى أخرى، سوف تزن مليون طن!

أما القطعة من الوتر الكونى التى تكون فى حجم حبة رمل، فإنها سوف تحتاج إلى أسطول من الشاحنات القلابة، تلتف ثمانى مرات حول خط الاستواء، لكى تتحمل وزنها، ويسبب كتلتها المروعة، فإن الوتر يمارس شداً تجاذبياً قوياً على المادة من حوله. وبالتالي، فإنها تكون مثالية لتؤدى دور المادة المظلمة، فى تشكيل البنية ذات المستوى الهائل فى الكون.

وتخبرنا الكتلة الجبارة، أنها لابد أن تكون قد خلقت فى وقت مبكر للغاية، من عمر الكون، عندما كانت الحرارة مروعة وكان هناك فيض غامر من الطاقة متوفر لتكوين أجرام فضائية غريبة. وبقينا، فليس ثمة عملية فى كوننا المعاصر - سواء بفعل الإنسان أو الطبيعة - يمكن أن تنتج الطاقات اللازمة لتكوين وترى كونى. وإذا وجدت هذه الأوتار الكونية، فإنها لابد وأن تكون بقايا من وقت أكثر قدماً فى الزمن.

وليست الأوتار أكثر ضخامة من أى شىء يمكن أن نخلقه فحسب، ولكنها إذا وجدت، فإنها ستكون من مادة ذات شكل جديد تماماً. والصورة المألوفة للجسيم مثل البروتون، عبارة عن كتلة غير محددة المعالم. إننا ندرك - بطريقة عقلانية - أن البروتون يمكن أن يعتبر أيضاً حزمة من الطاقة النقية (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء) بيد أنه أمر بالغ الصعوبة، أن نتخيل البروتون بهذا الشكل. وفى معظم

المواقف، لا يسبب ذلك التكافؤ بين الطاقة والكتلة، أية صعوبات. ومع هذا، فإنه بالنسبة للوتر الكونى، علينا أن نواجهه على مستوى جوهري، وذلك أمر ليس سهلاً على الإطلاق.

تكوين الأوتار الكونية

لكي نتفهم طبيعة الأوتار الكونية، علينا أن نعود إلى زمن موغل في القدم، عندما كان عمر الكون 10^{-30} ثوانٍ، بعد الانفجار الكبير، عندما تجمدت القوة الشديدة، وتضخم الكون، وقتئذ يمكن أن نعتبر الأوتار كمنتج ثانوى، لعملية التجميد ذاتها. وعندما يتجمد الماء، فإنه يتحول من حالة التماثل العالية إلى تماثل أقل. وما أعنيه هو ما يلي: لنفترض أنك في وسط بلورة ثلجية، ويمكنك أن تدير هذه البلورة ستين درجة وأن البيئات المحيطة بك متطابقة من حيث المظهر، مع ما بدأت به. وهذا ما نعنيه، عندما نقول بأن الكسفة الثلجية متماثلة. بيد أن ذلك نوع محدود من التماثل، فإذا أدت البلورة عشر درجات أو أربعة وثلاثين درجة، سوف تلاحظ على الفور تغير البيئة المحيطة بك. ومن ناحية أخرى، إذا كنت طافياً في الماء، فإن هذا التحديد لن يكون موجوداً. بغض النظر عن الطريقة التي تستدير بها، سوف ترى نفس البيئات تماماً، دون أى تغيير. وبالتالي، فإنه بالنسبة للفيزيائى، تكون نقطة الماء، التي تبدو رقيقة ومتوافقة، لها تماثل أعلى يفوق كسفة الثلج أو بلورة الجليد.

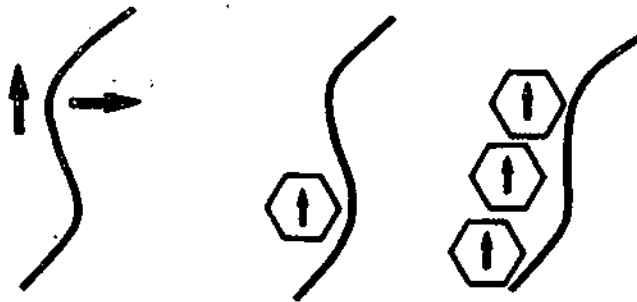
إننى أمعن التفكير في تلك النقطة تحديداً، لأن أسلوب الفيزيائى فى استخدام اصطلاح "التماثل" ليس ذلك المستخدم فى لغتنا الدارجة اليومية.

إن تجميد الماء يمكن التفكير فيه كانتقال من تماثل أعلى إلى تماثل أقل، وبالتالى، فإن تجميد نظرية التوحيد العظمى، يمكن أن نفكر فيها كانتقال من كون له تماثل أعلى (أى كون فيه قوتان فقط فى الطبيعة) إلى كون له تماثل أقل (أى كون فيه ثلاث قوى). وكما رأينا فى الفصل الحادى عشر، فإن النظريات الحديثة للتماثل الفائق تعتمد

بوضوح على هذا النمط من التفكير. إذن يمكننا التعرف على شيء ما عن تجميد نظرية التوحيد العظمى، بمراقبة تجميد الماء، على سطح بحيرة مفتوحة.

إذ لا يتحول سطح البحيرة فجأة إلى لوح من الثلج، عندما تنخفض درجة الحرارة عن الصفر المئوى. وبدلاً من ذلك ينمو الثلج إلى الخارج، من عدة بقع متعددة على الشاطئ، حيث يبرد الماء فى الأماكن الضحلة، بشكل أسرع. وداخل كل رقعة من الثلج، تصطف البلورات فى نفس الاتجاه، بيد أن البلورات فى إحدى الرقع، لا يلزم أن تكون فى نفس اتجاه البلورات فى رقعة أخرى. ولو حدث هذا، فسوف يكون الأمر لافتاً للنظر، لأن هذا يعنى أن رقعة الثلج التى تنمو فى أحد جوانب البحيرة، "تعرف" ما الذى تفعله رقعة على الجانب الآخر. وإلا، فكيف أنها تجعل بلوراتها تصطف بالطريقة الصحيحة؟

ومع استمرار انخفاض درجة الحرارة، تظل رقع الثلج فى النمو إلى أن تلتحم معاً وتغطى البحيرة بأكملها. وأنه لمن الممتع أن نفكر فيما يحدث، عندما تتقابل رقعة ثلج مع أخرى. وإذا حددنا اتجاهاً واحداً من محاور التماثل للبلورات، فى كل رقعة بعلامة سهم، كما هو واضح إلى اليسار فى شكل (١-١٢) (صفحة ١٦٢)، وعندئذ، ففى الموقع الذى تلتقى فيه رقتان، يكون هناك تغير غير مترابط، من اتجاه فى التماثل لآخر. ويمكنك غالباً رؤية تلك المواقع على سطح بحيرة ما، بقع يكون فيها الثلج أكثر سمكاً - إلى حد ما - وأكثر تكتلاً، عن أى مكان آخر. ويطلق على خط الالتحام "شائبة" فى الثلج المتبلور.



الشكل 12.1

والأمر الجدير بالملاحظة عن هذه الشوائب، أنها تتضمن طاقة، ولكي نتعرف على السبب في هذا، تخيل ما الذي قد يحدث لو أنك استطعت إحضار بلورة ثلج منفردة، إلى حافة رقعة ثلج واحدة، كما هو ممثل كخط موجي في مركز الشكل (١-١٢) وسوف تقوم القوة التي تبذلها الذرات في رقعة الثلج، بتحريك البلورة، بحيث إنها تعيد ترتيب وضعها وتنتظم على طول نفس محور رقعة الثلج، وهذه هي الكيفية التي ينمو بها الثلج عادة، بإضافة مادة جديدة تصطف مع رقعة الثلج الموجودة بالفعل.

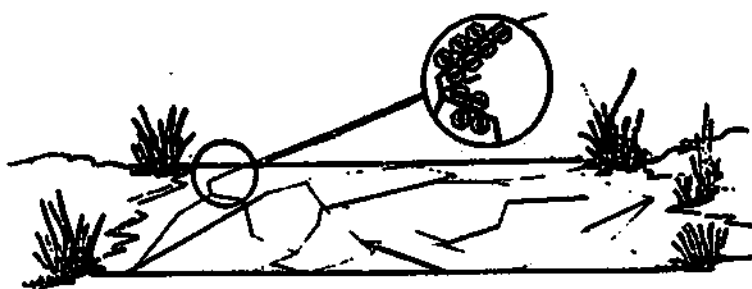
والآن انظر إلى الموقف بطريقة أخرى: فالترتيب البنيوي الذي يتضمن البلورة الجديدة المصطفة مع رقعة الثلج، يمثل أقل مستوى من الطاقة، يمكن للمنظومة أن تصل إليه. وإذا تركت هذه المنظومة حرة دون أي تأثير، فإنها سوف تهبط إلى ذلك المستوى طبيعياً، مثل كرة تركت على جانب تل، فإنها ستندرج إلى أسفل حتى القاع، والاحتفاظ بالبلورة في اصطفاك مختلف، كما لو كانت موجودة في رقعة ثلج، على الجانب الآخر من الشائبة، ويجب وضع الطاقة في تلك المنظومة.

وبالتالي، عندما تتشكل الشائبة، ويكون هناك عدد كبير من البلورات في غير اصطفاكها الطبيعي (كما هو موضح إلى اليمين في الشكل ١-١٢)، لابد أن هناك طاقة "محبوسة" في المنظومة. وإذا أمكن تغيير الاصطفاك، في هذه الحالة، يمكن استخلاص الطاقة من المنظومة.

ربما تكون قد تابعت المجادلة حتى هذه النقطة. والآن يأتي الجزء الذي نتوقف فيه فجأة، وترفض المتابعة. ذلك أن بالشائبة طاقة مخزونة، ومن ثم فإن هذه الرقعة الثلجية تزن أكثر من رقعة مجاورة لها. وهذا استنتاج منطقي لمعادلة: الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء. وهي نتيجة لا نفكر فيها عادة، ولكنها - في واقع الأمر - حقيقة على الرغم من ذلك. فالجسم الذي أضيفت إليه طاقة، تكون كتلته أكبر، ومن ثم يزن أكثر - مما كان عليه من قبل. إذ إن مصيدة الفئران المجهزة تزن أكثر من مصيدة فئران غير مجهزة. إننا لا نفكر في مثل هذه الأشياء في حياتنا اليومية، إذ ليس ثمة ميزان يمكنه أن يقيس هذا التغير بالغ الضالة، الذي يكون حتى أقل بكثير من كتلة أصغر جسيم

أولى. وأنه فقط عندما نتعامل مع الكتل الضخمة للغاية، والطاقات الهائلة، تحت الظروف المروعة التي كانت متوفرة في الكون المبكر، أننا نتذكر استدالات تكافؤ الكتلة والطاقة.

وإذا أمعنا النظر في سطح لوح ثلجي مكون حديثاً، لرأينا شيئاً يشبه ما هو موضح في الشكل (٢-١٢) مع وجود خلفية منتظمة إلى حد ما، تتوافق مع رقع الثلج التي تنمو مستقلة عن بعضها، وسوف تكون هناك سلسلة من تشكيلات تشبه العروق، ذات كتل أكبر قليلاً، أنتجت الشوائب التي تكونت على طول التحامات الرقع الثلجية.



الشكل 12.2

ويفترض أن نفس هذا الشيء قد حدث، عندما تجمد الكون في الوقت ٢٥-١٠ ثانية. ولم يتغير الكون إلى حالته الجديدة فجأة، وفي التوالى واللحظة. ومثل الثلج فوق سطح البحيرة، نمت الحالة الجديدة، من نقاط تكوين نوى متباينة. وتشكلت الشوائب كالتحامات لرقع الثلج، ويسبب تلك الطاقات المروعة التي توفرت في ذلك الوقت، اكتسبت كتل هائلة. والأوتار الكونية هي أحد أنواع الشوائب، التي يمكن أن تتشكل أثناء تجمد الكون.

والكثير - وليس الكل - من نظريات التوحيد العظمى والتماثل الفائت، تنبأت بتشكيل الأوتار الكونية في التجميد الذي حدث في الوقت ٣٥-١٠ ثوانٍ.

وعلى الرغم من أن نظريات متباينة لم تنبأ بأوتار كونية متطابقة تماماً، فقد تنبأت بالتأكيد، بأوتار لها نفس الخواص العامة.

وأحد الأمور الجديرة بالملاحظة - كما سبق أن ذكرنا - أن الأوتار ذات كتل بالغة الضخامة. كما أنها أيضاً رفيعة للغاية. فعلى سبيل المثال، فإن المسافة عبر الوتر، أقل بكثير من المسافة عبر البروتون^(١). ولا تحمل الأوتار أية شحنة كهربائية، ومن ثم، فإنها لا تتفاعل مع الإشعاع، كما تفعل الجسيمات العادية. وتتكون الأوتار بأشكال متعددة - خيوط طويلة متموجة، وأنشوطات مهتزة، وحلزونات ثلاثية أبعاد، وهلم جرا. وبكل وضوح، فإن الأوتار مرشحات مثالية لتكون مادة مظلمة، إذ إنها تبذل شدةً تجاذبياً، ولم يمكن تدميرها بواسطة ضغط الإشعاع في الكون المبكر.

الأوتار والمجرات

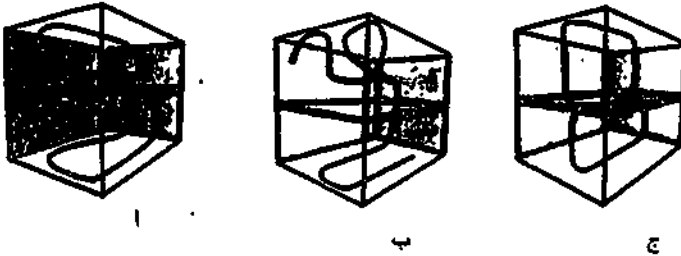
ما أن تتشكل الأوتار الثابتة، حتى تستقر لمدة طويلة، كما سوف نرى. ومنذ الوقت الذي تشكلت فيه عند 10^{-35} ثوانٍ، كونت تكتلاً هائلاً يعد الخلفية التي تطورت فيه الجسيمات والنوى والذرات، وحققت أهدافها في الكون.

وما دامت الأوتار لم تتأثر بضغط الإشعاع مثل البلازما، إذن يمكنها أن تعمل كنواة متكاثفة - بذوراً - لتشكيل المجرات، والعناقيد المجرية، والعناقيد المجرية الفائقة، شريطة أنه يمكنها البقاء فترة طويلة كافية لتحقيق ذلك. كان المتحدث الرئيسي لفكرة الأوتار الكونية، هو (نييل توروك) الفيزيائي النظرى الشاب، الذى يعمل أصلاً فى كلية إمبريال فى لندن. وقد قضى توروك زمناً طويلاً فى الولايات المتحدة الأمريكية، ويسعدنى القول، إن جولاته شملت قسمى القديم فى جامعة فيرجينيا. لقد جعل عمل حياته (بقدر ما يمكن أن ينطبق هذا القول على رجل لم يصل إلى الثلاثين بعد) إمالة اللثام عن سلوك الأوتار الكونية، وتفسير معادلات النظرية المعقدة للمجال الكمى، التى تصفها. وأسلوب توروك مثير للإعجاب لشموليته ودقته التى بلغت أوجها: وبدلاً من اتباع المسار العادى فى البحث، بنى تميظ اللثام عن سلوك الأوتار الكونية ثم تترك

(١) إن السُمك المقدر للوتر هو 10^{-30} سنتيمتراً، مقارنة بـ 10^{-13} للبروتون. (المترجم)

للآخرين إيجاد تأثير الأوتار، على مشكلة الجرات وكيفية تشكيلها، قرر (توروك) ومن معه من العلماء الشباب أن يتعلموا علم الكون. وليس من المعتاد أن الباحثين، وهم فى قمة حماسهم لاكتشاف فرع جديد من المعرفة، أن يتوقفوا عن أبحاثهم ليعلموا أنفسهم بهذه الطريقة. والأكثر غرابة من هذا، حقيقة أن أكثر النقاد قسوة على الأوتار الكونية - ويدعى (ب.ج.أ. بيبلس) من جامعة برتستون - كان هو المعلم الخاص لهم. والرأى عندى، أن هذا التعاون الوثيق بينهم، هو تعبير عن أرقى النماذج المثالية، للمجتمعات العلمية.

ويبدو أن الصورة التى تتبع من عمل (توروك)، تحمل فى طياتها الحل لكثير من المشاكل التى وضعت فى هذا الكتاب الذى بين أيديكم. كما أنه من السهل تكوين صورة ذهنية لها. ووفق محاكاة^(١) الحاسوب - خلال عملية تجميد نظريات التوحيد العظمى - كونت الشوائب سلسلة طويلة ومتصلة، مثل تلك الموضحة فى أ بالشكل (٣-١٢) عندئذ كانت الأجزاء المختلفة من الأوتار تندفع خفاقة حولها عبر الفضاء، وهى تتحرك تقريباً بسرعة الضوء. وعندما تتقاطع الأوتار الأولية - كما هو موضح فى نفس الشكل - فإن أبحاث توروك تبين أن الأنشطة الظاهرة تنفصل وتتحطم.



الشكل 12.3

(١) وضع برنامج على الحاسوب يجعله يحاكي مسلك منظومة ما لدراستها. (المترجم)

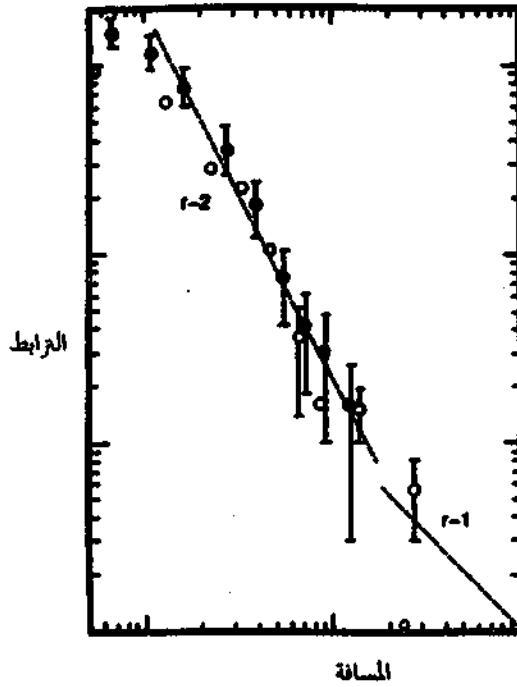
حينئذ، وبعد فترة قصيرة، امتلأ الكون بأنواع متباينة من الأوتار الكونية مختلفة الحجم والأشكال. فالبعض منها كان مثل الخيوط الأفعوانية والطيقة والخفاقة. ويمكن لمثل هذه الأوتار أن تجذب المادة المحيطة إلى مستوى معين، بينما هي تخفق راحة غادية.. والشكل المألوف للوتر كان مثل أنشودة مغلقة، مشابه لذلك النوع الموضح في ب. وتلك الأنشودات هي التي كانت تجول في ذهني، عندما ذكرت "الشعبان الذي يلتهم ذيله". وحول هذه الأنشودات، أخذت المادة تنجذب إليها، وتتجمع في شكل عنقود كروي أو على شكل سيجار. والأمر المثير للاهتمام عن هذه الأشكال - على الرغم من ذلك - ليس نظامها الهندسي في المقام الأول، بل أيضاً مراحل تطورها. فعلى سبيل المثال، لو حدث، أنه خلال مرحلة تذبذبات الأوتار الكونية في الفضاء، لابد أن أنشودة، قد اتخذت شكل "ثمانية" باللغة الإنجليزية 8، وعندما يتقاطع خط من الوتر مع آخر، فإن هذه "الثمانية"، سوف تنشط إلى أنشودتين منفصلتين، كل واحدة منها، جزء من "الثمانية" الأصلية، كما هو موضح في ج بالشكل (٣-١٢) وأطلق (توروك) على هذه العملية "انسلاخ الأنشودات". وهكذا، فما أن تتشكل الأوتار الكونية، فإنها لن تبقى ككائنات ساكنة في الفضاء. بل سوف ينتابها التغير بينما تتحرك هنا وهناك، مع الأنشودات الضخمة التي ستصبح أصغر حجماً مع مرور الزمن. وعلى الرغم من أن هذا الأمر يجعل من نظرية الأوتار أكثر تعقيداً، فإنها تعطينا أيضاً فرصة لاختبار مدى صحتها مع الأرصاد والملاحظات الفعلية. وبعد اقتفاء أثر تطور الأوتار عبر مرور الزمن، يمكننا أن نسأل أنفسنا عن كيفية انتظام المادة التي انجذبت إليها. ولو أخبرتنا النظرية بأن الأوتار جميعها تتشكل كأجزاء من أجرام فضائية في حجم المجرات (أو أصغر)، قبل فك اقتران الإشعاع، إذن، فإن نظرية الأوتار تتنبأ بكون تتبعثر فيه المجرات - إلى حد ما - بطريقة عشوائية عبر كل الفراغ. ومن جهة أخرى، إذا حدث وظلت الأوتار في حجم العناقيد الفائقة المجرية، فإننا نتوقع كوناً تكون فيه كل المجرات، تنتظم في سلسلة، على طول خطوط في الفضاء، موسومة بالأوتار. وبالطبع، فإن الكون

الفعلى يقع فى مكان ما بين هذين الرايين المتطرفين، على الرغم من أنه يكون أشد قريباً، من الأخير أكثر من الأسبق.

وواحد من أعظم إنجازات أبحاث توروك وزملائه، تحقق أثناء حسابهم لمدى قوة الترابط المتوقعة للمجرات، لو أن الأوتار موجودة بالفعل. إن قوة الترابط - كما تتذكر - هى احتمالية وجود مجرة عند موقع معين فى الفضاء، فلا بد من وجود مجرة أخرى عبر مسافة معينة من المجرة الأولى. وفى كون عشوائى بالكامل، فإنك تتوقع أن تجد مجرات تفصل بينها مسافات متباينة، ولن يكون أى فصل مشابه لغيره. ومن جهة أخرى، فإن أى تنظيم دقيق للكون، حيث توجد بين المجرات كلها، نفس الفواصل الزمنية تماماً، حيث تكون قوة الترابط تساوى صفراً فى كل مكان، إلا عند ذلك الفاصل المختار.

وباستخدام ميكانيكا الأوتار الكونية^(١)، يمكننا أن نتوصل إلى كيفية تكتل المادة - فى معظم الأحيان - حول أنشوطات ذات أحجام متباينة وكذلك المستويات، ومن هذه النقطة يمكننا أن نتنبأ بعدد المرات التى نتوقع فيها إمكانية المجرات أن تقع فى مجموعات بمختلف الأحجام. وهذا يعنى أنه عندما تم حساب الأحجام المتوقعة للأوتار الكونية، فإن الفواصل المحتملة بين المجرات، يمكن حسابها أيضاً. ويوضح الشكل (٤-١٢)، ما أعتقد أنه أقوى برهان متاح عن حقيقة الأوتار الكونية.

(١) علم خاص بدراسة حركة الأجرام الفضائية، فى مجالات الجاذبية المتبادلة بينها. (المترجم)



الشكل 12.4

فعلى المحور الرأسى نخطط بيانياً عن طريق الإحداثيات قوة الترابط، أما فى الخط الأفقى، فإننا نخطط لمسافات الانفصال بين المجرات. ويمثل الخط الثابت، التنبؤ بالاحتمالية التى يمكن استنباطها من نظرية الأوتار، بينما تمثل النقاط تلك البيانات التى تم الحصول عليها من الأرصاد والملاحظات. (توضح الخطوط الرأسية المرفقة بالنقاط، اللامحققيات^(١) التى يشعر الفلكيون بها كأمثلة فى قياساتهم)، والتوافق ما بين التنبؤ والأرصاد والملاحظات، لافت للنظر.

(١) قاعدة وضعها العالم الفيزيائى (فيرنر هايزنبرج) مؤداهما أنه لا يمكن تعيين كل من مكان جسيم ما، وكمية حركته بالدقة نفسها، فإذا زادت الدقة فى تعيين المكان زاد "عدم اليقين" فى تعيين السرعة. (المترجم)

ولو قبلنا هذا الدليل، فإن صورتنا الذهنية عن الكون المبكر، لاتزال أخاذة أكثر. وبعد فترة وجيزة، من تجميد نظرية التوحيد العظمى، كان الكون مثل هوة مروعة، تطن في كل مكان منه، كل من الأوتار الكونية الحرة وتلك التى فى الأنشطة، حيث تتصادم ببعضها وتطرح الأنشطة، وتشارك فى التمدد الكونى. ومع مرور الزمن، مرت المادة العادية بمجالات التجميد المتباينة المبينة إجمالاً فى الفصل الثالث، وبقيت الأوتار فى الخلفية، حيث تطورت وفقاً لقوانينها الذاتية. وطوال تلك الفترة، قامت أيضاً ببذل شد تجاذبى، على المادة الأخرى الموجودة، مما جعلها تتجمع فى شكل كتل، أصبحت مجرات فى نهاية الأمر. وهذه التجمعات من المادة حول الأوتار تتكون من كل من المادة المظلمة والمادة العادية، إذ إن كليهما متأثران بالقوة التجاذبية. ومن خلال وجهة النظر هذه، تتخذ المجرات شكلها مع مكوناتها من المادة المضيئة والمظلمة، الموجودة بالفعل داخلها. والمجالات المعقدة عن التحيز، والتى تحتاج إليها نظريات المادة المظلمة الباردة، ليست لها ضرورة هنا.

وفضلاً عن ذلك، فليس ثمة صعوبة فى شرح البنى الكونية مثل العنقود المجرى الفائق المروع (الفرس الأعظم - الجبار) ومن الطبيعى أن يجذب الوتر الكونى الطويل المادة إليه، وهذه المادة سوف تكون المجرات طبيعياً، وستبدو هذه المجرات مثل خرزات فى عقد. وسوف تكون الأشكال الأخرى من الأوتار، أنواعاً أخرى من العناقيد المجرية. ولعل الرفض الثابت والحازم، أن الكون يظهر تجانساً - عندما ننظر إلى أضخم المستويات فيه - يعكس، ببساطة، الحقيقة بأن الكون ليس متجانساً. وهذه الخاصية هى إرث للدقيقة الأولى، عند تجميد نظريات التوحيد العظمى، مما أدى إلى تشكيل الأوتار، بنفس الطريقة التى كون فيها الثلج بنى على سطح البحيرة المتجمدة.

أين توجد الأوتار الكونية ؟

تعطينا الأوتار الكونية رأياً معيناً جديراً بالاهتمام عن الكون، فعلى سبيل المثال يبدو أنه فى مركز كل مجرة يربض وترأ كونياً ملتقاً على نفسه، مثل الشعبان الذى

يلتهم ذيلة الأسطوري. ونتساءل: هل كان مبتدعو الخرافات القدماء - بالفعل - قد اقتربوا إلى هذا الحد من الحقيقة؟ أيمكن للمرء أن يسير على حبل مشدود كالبهلولان (مبدئياً على أية حال) على طول امتداد العنقود المجري الفائق (الفرس الأعظم - حامل رأس الغول) الذي يبلغ بليون سنة ضوئية؟ وبمعنى آخر، هل مازالت الأوتار الكونية تحيط بنا من كل جانب؟

ولسوء الحظ، تخبرنا النظريات المعاصرة أن هذا الأمر - إلى حد ما - يمثل رأياً شاعرياً عن الكون، وأنه ليس من المرجح أن يكون حقيقياً. ويرجع السبب إلى أمر بسيط: أن الأوتار الكونية لا تعيش إلى الأبد، بل إنها تفنى ببطء. وتعيش الأوتار الأضخم أطول، أما أصغرها فإنها سرعان ما تفنى. وفقط تظل الأوتار البالغة الضخامة باقية إلى الوقت الحاضر.

والعملية التي تختفي بها الأوتار الكونية، يمكن فهمها بمساعدة تشابه مألوف. إذا جذبت وترٌ في جيتار، فإنه يهتز وتتصاعد موجات منه إلى الهواء، وترتحل هذه الموجات من الوتر إلى أذنك، حيث يمكن إدراكها كصوت، إن الموجات تتكون من جزئيات هواء متحركة، وهذه الحركة للجزيئات تستمد طاقتها من الوتر. ومع استمرار الاهتزازات، فإن الإمداد بالطاقة الأولية، يأخذ في البطء، ثم يتضائل بتصاعد الموجات الصوتية. وفي نهاية الأمر، تستنفد الطاقة، وتتوقف التذبذبات. وهذا هو نفس ما حدث للأوتار الكونية. ففي مرحلة الهوة المروعة للكون - التي كانت تتميز بالفوضى وعدم الانتظام - كانت كل الأوتار في حركة عنيفة، وفي حقيقة الأمر كأنما "جذبت" كأوتار الجيتار المشدودة. وتخبرنا النظرية النسبية العامة لأينشتين، بأنه إذا تم تعجيل^(١) شيء في مثل ضخامة الوتر الكوني، سوف تنبعث عنه موجات. كما أنه لن يبعث بضوء أيضاً، أو أى نوع من الإشعاع الكهرومغناطيسى، ذلك أن الوتر الكوني لا يحمل أى شحنة كهربائية. وما يصدر عنه هو شيء يطلق عليه "الموجات التجاذبية". وكما أن

(١) التعجيل: ازدياد سرعة الجسيمات المشحونة. (المترجم)

الموجات الصوتية تتحرك في نقطة تجعل الهواء يتحرك بدوره، كذلك، فإن الموجات الكهرومغناطيسية تجعل شحنة كهربائية تتحرك، وأيضاً فالموجات التجاذبية المتحركة في اتجاه ما، تدفع المادة إلى التحرك. وعما إذا كانت الموجات التجاذبية قد تم اكتشافها وتتبعها بالفعل في المختبر، يظل موضوعاً للمجادلة بين الفيزيائيين التجريبيين، ولكن لأهدافنا في هذا الكتاب، فإننا في حاجة فقط لملاحظة أن الموجات التجاذبية، تمد الأوتار الكونية بوسيلة لكي تشع، بتحويل طاقتها إلى موجات.

ولكن ثمة اختلاف بين الجيتار والوتر الكوني. ذلك أنه في الجيتار، تكون الطاقة المتاحة للتحويل إلى صوت، هي تلك الطاقة التي تنبعث من التذبذب فقط. وعندما تستنفد، فإن الوتر يتوقف عن التذبذب، ويبقى خاملاً. وليست ثمة تقنية للتطبيق الآلي (ما عدا وضع الوتر الكوني في مركز مفاعل نووي!)، يمكن بواسطتها تحويل طاقة وكتلة الوتر إلى صوت أيضاً.

ومن جهة أخرى، فإن الوتر الكوني مفعم بالطاقة كما هو معروف. وما إن يبدأ في إطلاق الموجات التجاذبية، فإن هذه العملية تستمر، على أن يفنى نفسه ويختفى عن الوجود، بسبب ما أطلقه من إشعاعات. وعندما تستنفد طاقته، فلن يتبقى منه شيء. ومن ثم، فمن الممكن استخدام معدلات فقدان الطاقة - التي تنبأت بها النظرية النسبية العامة - لحساب المدة التي تبقى فيها الطاقة "مخزونة" في أي وتر كوني.

وفي الحقيقة، لقد كانت هناك فترة عصيبة في ربيع وصيف العام ١٩٨٦، عندما تبين أن الأوتار الكونية، حياتها قصيرة للغاية، لكي تؤدي دورها في تشكيل المجرات، وأنها سوف تلوح الأنشوطات وتظل تشع نفسها حتى تفنى وتختفى من الوجود، قبل فك اقتران المادة والإشعاع العادي. وفيما يبدو أن الحسابات المعاصرة، تظهر أن الأنشوطات بمقدورها أن تشكل "بنور" المجرات، وأنها سوف تستمر لفترة كافية لتقوم بهذه المهمة، بيد أنها لن تبقى منذ الزمن الموهل في القدم، إلى الوقت الحاضر. وبمعنى آخر، فليس ثمة "ثعبان ملتهم لذيله" في مركز مجرة الطريق اللبنى، على الرغم من أن الأوتار الكونية التي تساهم في تشكيل العناقيد المجرية والعناقيد المجرية الفائقة، مازالت رابضة هناك.

وطبقاً للرؤية المعاصرة للنظرية، فإن مجرة الطريق اللبنى - فى الأصل - قد تكاثفت حول وتر كونى، بكتلة تبلغ نحو جزء من مائة من كتلة المجرة الحالية، وطولها كان حوالى مائة سنة ضوئية. وبمعنى آخر، فإن "البذرة" المجرية بلغ ثقلها مثل كتلة مائة مليون نجم - كشمسنا - تقريباً، وبطول يمكن مقارنته بثلاثين من الانفصالات بين النجوم العادية، فى المجرة الحالية. ويعد أن جمعت مجرة الطريق اللبنى، كلاً من المادة المضيفة والمادة المظلمة، قامت بإشعاع نفسها وتلاشت عن الوجود، وربما تكون قد اختفت فى عصفة من "الدخان"، مكونة أنواع من الجسيمات الغريبة، التى تمت مناقشتها فى الفصل الحادى عشر. وتراثها الوحيد: مجرة الطريق اللبنى ذاتها.

البحث عن الأوتار الكونية

ربما تجد هذا السيناريو سطحياً ومراوفاً بعض الشيء. ومفاده أن المشكلة المحيرة لتشكيل المجرات يمكن التوصل لها، بتركيب نظرى مثل الأوتار الكونية، وأن تلك الأوتار قد اختفت عنوة، ومن ثم فلا يمكن اكتشافها وتتبعها فى الوقت الحاضر. وربما كان شيئاً بالغ الروعة بحيث يصعب تصديقه. وأن لها بلاغة الإعلان التلفزيونى، وبعض ثقة علماء الكون (سراً على الأقل) يطلقون على الأوتار الكونية "الخداع"، مشيرين بذلك إلى "نواء" الماضى الذى كان يروجه البائعون، وهو عبارة عن زجاجات تحتوى على "إكسير"، يشفى من كل الأمراض! وفى الجلسات غير الرسمية التى كانت تعقد فى وقت متأخر من الليل، حيث يتم شرب الجعة، سمعت أيضاً أسطورة "جنية الأسنان"^(١) فى هذا السياق.

وفى هذا الصدد، ربما يتوقع شيئاً من الشكوكية، وأولئك الذين يبذلون تعليقاتهم، لا تكون أقسى على نظريات الآخرين، منها على نظرياتهم ذاتها. بيد أن الأمور قد لا

(١) شخصية خيالية فى قصص الأطفال، مفادها أنه عندما يفقد الطفل إحدى أسنانه، عليه أن يضعها تحت الوسادة، إذ إن "جنية الأسنان" تزوره ليلاً أثناء نومه، وتستبدل بها أخرى جديدة. (المترجم)

تكون بهذا القدر من السوء، كما يصورها المتشككون، إذ إنه من الممكن البحث عن برهان مستقل على وجود الأوتار في الكون المعاصر.

وثمة وسيلتان لإيجاد مثل هذا البرهان. إحداهما هو ما يطلق عليه عدسات الجاذبية، والتي تعتمد على التأثيرات التي تحدثها الأوتار على الضوء القادم من المجرات النائية. أما الوسيلة الأخرى، فإنها غير مباشرة - إلى حد ما - وتتضمن بحثاً عن الموجات التجاذبية التي كانت تبعث بها الأوتار في الزمن المبكر من عمر الكون.

وتوضح عدسات الجاذبية في الشكل (٥-١٢)، الضوء من جرم فضائي ناء ومضىء يأتى إلى كوكب الأرض حيث يتعرض إلى تداخل وإعاقة من جرم آخر بالغ الضخامة مثل مجرة نائية أو وتر كونى.



الشكل 12.5

وربما نتذكر أنه وفقاً للنظرية النسبية العامة، فإن الضوء الذى ينبعث من نجم بعيد ينحني عندما يمر بالقرب من الشمس أو جرم فضائى ضخم آخر. وفى الموقف المبين فى الشكل، فإن الجرم المعترض سوف يحنى أشعة الضوء، كما هو موضح. ومن ثم سوف يرى شخص ما يقف فوق كوكب الأرض، صورتين للجرم الفضائى النائى،

إحداهما ينتجها الشعاع الذى فوق القمة، والأخرى يحدثها الشعاع المنحنى تحت القاع.

عدسة الجاذبية الأولى (وفيها توفر مجرة معتمة - ولكنها عادية - الكتلة المطلوبة لكى يحنى إشعاع الضوء)، تم اكتشافها فى العام ١٩٧٨، واليوم هناك ما يقرب من نحو نصف ستة من عدسات الجاذبية المعروفة. وفى كل الحالات، فإن الأجرام الفضائية المفترضة طريق إشعاعات الضوء، تكون مضيئة، ويمكن تحديدها، على الرغم من أننا لسنا فى حاجة إلى تحديد الجرم الفضائى الذى يحنى الضوء، لكى نجد عدسة جانبية إذ إن الوتر الضخم (غير المرئى) يمكنه إنتاج نفس الصورة المزدوجة فى السماء. ومن ثم فإن عدسة الجاذبية - دون تحديد للجرم الفضائى المفترض - يمكنها أن تكون برهاناً على وجود الوتر الكونى. بل إن الوتر الكونى الطويل بمقدوره أن ينتج سلسلة من الصور المزدوجة، وهذه إشارة واضحة على وجوده.

وفى ربيع ١٩٨٦، كانت هناك عصفة إثارة موجزة، عندما أعلن الفلكيون فى جامعة (برنستون)، عن اكتشافهم لما اعتقدوا أنها صورة مزدوجة لكوازر فى كوكبة ليو (الأسد)^(١). وأسوء الحظ، فإن الأبحاث اللاحقة أوضحت أن ما اكتشفوه ليست صورة مزدوجة، ولكنها بالفعل صورة واحدة لكوازين مختلفين. لذلك، فحتى الآن ليس ثمة أرصاد تبرهن على وجود عدسات جاذبية أحدثتها الأوتار الكونية، بيد أن الأبحاث تجرى على قدم وساق. والوقت مبكر جداً أن نقول أى شىء عما يمكن أن يوجد فى نهاية الأمر.

والمجال الثانى الذى يمكن أن يتوفر فيه برهان على وجود الأوتار الكونية، هو النجوم النابضة^(٢). إن النجوم النابضة هى المنتج النهائى لموت النجوم الضخمة، وهى عبارة عن أجرام فضائية تنور بسرعة هائلة، ولا يزيد قطر الواحد منها على عدة أميال

(١) ألمع نجوم كوكبة الأسد هو نجم "المليك" ويبعد عنا ٧٧.٥ سنة ضوئية. (المترجم)

(٢) Pulsars نجوم نيوترونية (أى مكونة من نيوترونات)، وهى تنور حول نفسها بسرعة رهيبية وتصدر موجات راديوية وإشعاعات. (المترجم)

فقط. وتنطلق موجات راديوية من المواقع الساخنة فوق سطح النجم النابض، ويحمل دوران النجم هذه الموجات خلف كوكب الأرض، تماماً مثل الطريقة التي يرسل بها برج منارة إرشاد السفن إشعاعه. وفي كل مرة يمر الشعاع، يمكننا رؤية نبضات الموجات الراديوية، التي تتكرر على فترات منتظمة. ويكون معدل التكرار مرتفعاً، في أى مكان، من بضع إلى عدة مئات في الثانية الواحدة. وبالتالي، يمكن النظر إلى النجوم النابضة باعتبارها "ساعات" بالغة الدقة، في السماء تدق بمعدل رتيب.

ولو أطلقت الأوتار الكونية قدراً كبيراً من الإشعاع التجاذبي في الزمن المبكر من عمر الكون، إذن، فإن معظم هذا الإشعاع لابد وأن يكون موجوداً في الوقت الحاضر. ومن ثم، ستجد النجوم النابضة نفسها في بحر من الإشعاع التجاذبي، الذي تتدافع وتتصادم جسيماته ببعضها، بينما تنطلق الموجات الراديوية بعيداً. وهذا بدوره سوف يفرض عدم انتظام عشوائي بسيط، على توقيت النبضات، التي يتم رصدها من كوكب الأرض. وطبقاً للإحصائيات التي تجرى في الوقت الحاضر، فإنه يجب أن يكون بمقدورنا أن نصل إلى برهان لوجود الموجات التجاذبية، عندما يمكننا تحديد فترة دوران النجوم النابضة السريعة، بأنها تبلغ عشر مرات أكثر دقة، عنها في الوقت الحاضر. ويشعر الراصدون الفلكيون بأن مثل هذا النوع من التحسين يمكن تحقيقه، في خلال السنوات القليلة القادمة.

وهكذا، فإنه على الرغم من اختفاء الأوتار الكونية عبر الإشعاع التجاذبي، فإن هذا ربما يبدو خداعاً، فإن هناك وسائل لاختبار النظرية عن طريق الرصد. إن الأوتار الكونية ليست خداعاً، كما يلوح من أول نظرة. ولو أننا بعد الأبحاث الدقيقة والكاملة لنوع الأوتار الكونية المحددة أنفاً، لم نتوصل إلى البرهان الراسخ على وجود وتر كوني واحد، ربما كان علينا في هذه الحالة، إعادة التفكير في هذه الإفادة. ومع هذا، ففي الوقت الحاضر - حتى الآن - يتصور عدد كبير من العلماء أن الأوتار الكونية تمدنا بأفضل فرصة لحل مشكلة البنية المروعة للكون.

الفصل الثالث عشر

أبحاث تجريبية للمادة المظلمة

(سماع الأكان شيء رائع، ولكن تلك الأنغام غير المسموعة أكثر روعة).

(جون كينس)

قصيدة غنائية مكتوبة فوق جرة إغريقية.

يبدو واضحاً أن التساؤل عن طبيعة المادة المظلمة سيظل معلقاً، حتى يتمكن - بالفعل - شخص ما من الإمساك بكمية منها وتحليلها في المختبر. ولا شك أنه شيء رائع للغاية أن تصاغ النظريات ويقوم العلماء بتوضيح أن المادة المظلمة يجب أن تسلك بهذه الطريقة أو تلك، ولكن حتى تتمكن من أن نعزل بعضاً من المادة المظلمة وتؤكد برصدها أنها تتصرف فعلاً كما هو مفروض لها، سوف يكون عدد كبير من الناس (وأنا من بينهم) غير قانعين. وحتى بالنسبة للمادة المظلمة غير المرئية، فإنه لا تقبل الحقيقة الواقعية إلا بالرؤية الفعلية.

ويمكننا الارتحال في طريقين خلال سعيينا لإيجاد برهان تجريبي، لوجود الجسيمات، التي من المفروض أنها تكون أكثر من تسعين بالمائة من كتلة الكون. أحد هذين الطريقين هو محاولة إنتاج هذه الجسيمات في مختبرات المعجلات، أما الطريق الآخر، فيتضمن معدات يمكنها اكتشاف وتتبع المادة المظلمة، بينما تتجرف بواسطة

كوكب الأرض. وكل من الوسيلتين تتم دراستهما فى الوقت الحاضر بدقة وحماس. وما يستتبع ذلك، من وصف لبعض التجارب النموذجية، التى إما أنها استكملت أو مخطط لها أن تتم فى العقد القادم. وثمة مبادرتان للجدل، تتماشى مع تاريخ فيزياء الجسيمات فى الزمن المعاصر. إن الكثير من الجسيمات الأولية، التى نعتبر وجودها من الأمور المسلم بها، انبثقت أولاً فى إدراكنا، فى التفاعلات التى استهلكتها الإشعاعات الكونية، وهى جسيمات تندفع إلى كوكب الأرض - كأمطار فضائية - من السوبرنوفات (المستعرات العظمى) فى مجرة الطريق اللبنى. وفى الوقت نفسه، جاءت الكثير من الاكتشافات البالغة الأهمية، نتيجة (للتخطيط بمهارة أو بالمصادفة) لتجارب أجريت فى داخل المعجلات الرئيسية^(١).

تجارب فى المعجلات

المعجل جهاز ينتج حزمة من الجسيمات - إما بروتونات أو إلكترونات - وهى تنطلق بسرعات تقترب من سرعة الضوء. وتوجه هذه الجسيمات إلى هدف، ويمكن لأى مجموعة من الذرات أن تقوم بهذه المهمة. وفى بعض التصادمات بين الجسيمات، يتحول جزء من طاقتها إلى كتلة من الجسيمات الجديدة، تبعاً للمعادلة $E = mc^2$ (س٢). وليس ثمة أهمية فى الاعتقاد بأنه من غير المحتمل أن ينتج جسيم معين من تلك التفاعلات، إذ لو توفرت لنا طاقة كافية فى حزمة الجسيمات وانتظرنا لفترة طويلة كافية، فإنه عاجلاً أو آجلاً، سوف نرى ما نتوقعه. والأمل الذى نتشبه به فى التجارب الحالية، أن هذا سيكون حقيقياً فى البحث عن المادة المظلمة، كما كان فى البحث عن الجسيمات الأخرى فى الماضى.

وقبل أن نعمن النظر فى تجارب بعينها، يجب أن نأخذ بعض النقاط فى الاعتبار، أولها، أن الطاقة التى تنتقل إلى أى حزمة من الجسيمات، بواسطة أى معجل، تكون

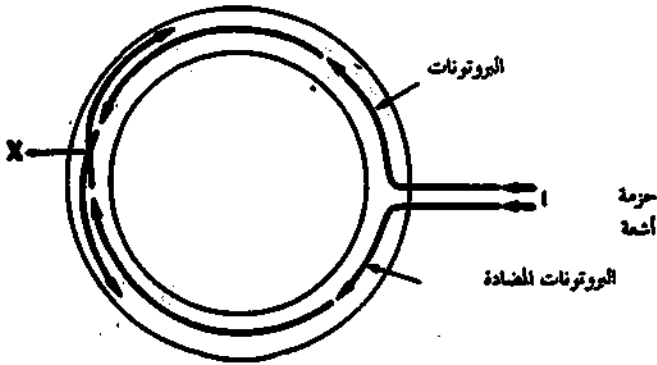
(١) فى كتابى "من الذرات إلى الكواركات" From Atoms to Quarks تتم مناقشة تاريخ تطور فيزياء الجسيمات بالإضافة إلى تسميم واستخدام المعجلات. (المؤلف)

بالضرورة محدودة. ويعنى آخر، ثمة حد أعلى - لآى آلة - لكمية الطاقة المتاحة لتتحول إلى كتلة. ويعنى ذلك، أن أى نتيجة سلبية فى بحث ما، لا يمكن أن تؤخذ دليلاً حاسماً ومقنعاً، بوجود نوع معين من المادة المظلمة، بل يعد فقط كإفادة، بأن الجسيم الذى خضع للبحث، له كتلة، أكبر من أقصى كتلة يمكن أن تنتجها طاقة هذه الآلة تحديداً. وهناك دائماً إمكانية أن آلة الطاقة التى سيتم تشييدها فى المستقبل القريب، سوف تنتج بوفرة جسيماً جديداً لا يمكن اكتشافه بالتكنولوجيا المعاصرة.

أما النقطة الثانية، فهى أن كثيراً من المرشحات الغريبة للمادة المظلمة، والتى تمت مناقشتها فى الفصل الحادى عشر، لا يمكن إنتاجها بانفراد، ولكن يجب أن تنتج فى أزواج. وتخبرنا النظريات - على سبيل المثال - أنه لا يمكننا إنتاج فوتينو مفرد ومنعزل، فى أى تفاعل بين الجسيمات، يبدأ بارتطام إلكترون أو بروتون، بالمادة العادية، ليس بمقدورنا أن ننتج سلكترون منفرداً، بل يجب إنتاج سلكترونين، سلكترون وسلكترون مضاد. وفى الواقع، فإن هذه الازدواجية، تقسم الطاقة إلى نصفين، وهى المتوفرة للتحويل إلى كتلة فى أى معجل، إذن إن الطاقة يجب أن تقسم بين كل من طرفى الزوج.

وأفضل تصميم لآلة يمكنها أن تبحث عن الجسيمات الجديدة، تتطلب ما يطلق عليه الفيزيائيون 'جهاز تصادم حزم الأشعة'. ويوضح الرسم التقريبى فى الشكل (١-١٣)، نموذجاً رمزياً لهذه الآلة؛ حيث ينتج أحد المعجلات حزم من الجسيمات التى تحقق k فى حلقات ضخمة، وفيها تؤدي مغناطيسات قوية، إلى أن تظل الجسيمات تدور. ويتحرك الجسيمات ذات الشحنة الكهربائية الموجبة (كالبروتونات) فى اتجاه واحد، حول الحلقة. بينما تدور الجسيمات ذات الشحنة الكهربائية السالبة (مثل البروتونات المضادة)، فى الاتجاه الآخر. وقد صممت الحلقة، بحيث إنه فى أماكن معينة، مثل تلك التى وضعت عليها علامة x فى الشكل، تصطدم حزمتا الجسيمات - ببعضها - بالمواجهة. فى تلك اللحظات، تكون كل الطاقة المقتسمة بين الجسيمات المعجلة، متوفرة للتحويل إلى كتلة،

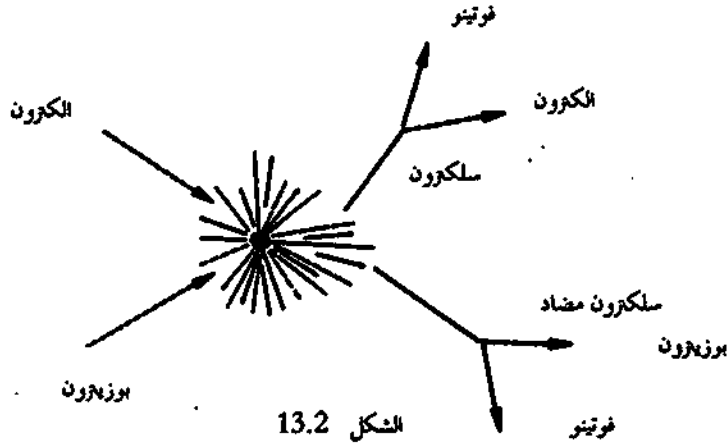
وليس ثمة منظومة ممكنة، أكثر كفاءة. وبالتالي، أنه بإلات من هذا النوع، أجريت الأبحاث الرئيسية عن المادة المظلمة.



الشكل 13.1

وأحد البحوث التي تم تنفيذها في هذا المجال، استخدمت فيه عدد من الآلات التي يمكنها إطلاق حزم عالية الطاقة، من الإلكترونات والبوزيترونات^(١). والفكرة هي أنه عندما تصطدم هذه الجسيمات ببعضها، يمكننا أن نحصل على تفاعلات مثل تلك الموضحة في الشكل (٢-١٣) إذ يتصادم إلكترون وبوزيترون، المنتجان من المعجل، مما يؤدي - على سبيل المثال - إلى إنتاج جسيمات نقيضة لهما، في عالم فائق التماثل، أي سلكترون وسلكترون مضاد. وفي الفصل الحادي عشر، علمنا أن الجسيمات فائقة التماثل، تعطى دائماً طاقة، إلى أن تصبح أخف جسيمات ممكنة. ويعنى الوصول إلى هذه الحالة أن السلكترون والسلكترون المضاد، سوف يتحولان - في نهاية الأمر - إلى فوتينوات وجسيمات عادية، كما هو مبين في الشكل (٢-١٣).

(١) البوزيترون هو الجسيم المضاد للإلكترون. وكل من هذين الجسيمين له نفس الكتلة، ولكن شحنتهما مختلفتان. وإذا اصطدما ببعضهما، تتحول كتلتاهما بأكملها إلى طاقة، ويغنى الجسيمان تماماً. (المؤلف)



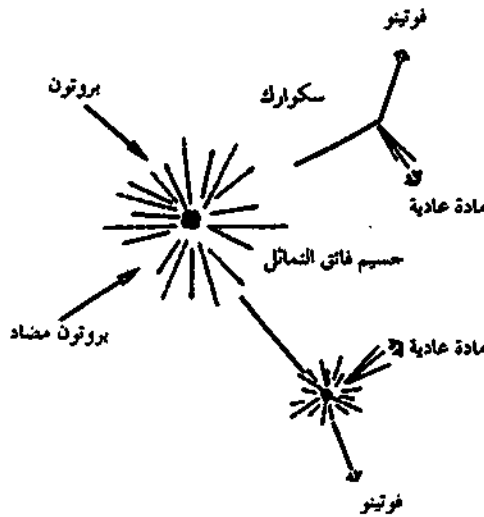
وكما أوضحت من قبل، أنه من المستحيل الكشف عن الفوتينوات مباشرة، ذلك أن تفاعلها مع المادة العادية، ضعيف للغاية، ومع هذا، يمكننا الكشف عن الإلكترون والپوزيترون اللذين ينتجان عن اضمحلال السلكترون والسلكترون المضاد. وثمة خصائص معينة، أزواج الإلكترون - پوزيترون الناتج عن عملية فيزيائية أخرى تشتمل على المادة العادية.

ومن ثم، فإنه من الممكن القول بأن الفوتينو قد أنتج، حتى لو لم نتمكن من الكشف عنه بشكل مباشر.

والأبحاث التي تدور حول التفاعلات مثل ذلك الموضح في الشكل (٢-١٣)، قد أجريت في معاهد الأبحاث بالجامعتين الأمريكيتين (كورنل) و(ستانفورد) وفي (هامبورج) بألمانيا. وحتى الآن، لم يتم التوصل إلى أى دليل في أحد التفاعلات، عن إنتاج فوتينو. من هذا، يمكن استخلاص نتيجة، مفادها أنه إذا كان الفوتينو موجوداً، سوف تكون كتلته - على أقل تقدير - أكبر بثلاث وعشرين مرة، عن كتلة البروتون. وربما لم يجد الباحثون في تجاربهم، ذلك الجسيم الذي كانوا يبحثون عنه، بيد أن النتائج التي توصلوا إليها، يمكن استخدامها، لوضع حدود لخصائص ذلك الجسيم الذي ربما يجده في نهاية الأمر.

ويمكن إجراء بحث مشابه للجسيمات الفائقة التماثل، بواسطة الآلات التي بمقدورها إنتاج حزم متصادمة من البروتونات والبروتونات المضادة، مثل ذلك المعجل الضخم الذى يوجد فى (المركز الأوروبى للبحوث النووية) - والمعروف اختصاراً بالحروف CERN - والذى يقع فى جنيف بسويسرا. وفى هذه الآلة الجبارة، يمكن أن يحدث تفاعلاً مثل ذلك الموضح فى الشكل (٣-١٢) والذى يمكن أن ينشأ - فى الأساس - من تصادمات بالمواجهة بين البروتونات والبروتونات المضادة.

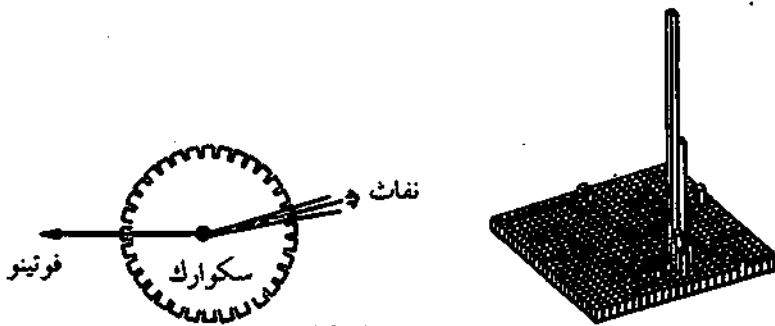
وكما كان عليه الحال فى التجارب التى أجرتها آلات الإلكترون، فإن الفوتينوات الناتجة - فى ذلك النوع المختلف من التفاعلات - لم يمكن الكشف عنها مباشرة. وما بمقدورنا أن نكتشفه، تلك الطاقة المفقودة، التى انتزعت بالتأكد من هذين الجسيمين. ويمكننا أن نتوصل إلى فكرة ما عن هذه العملية، إذا أمكنك تخيل أنك ترتحل على طول سكوارك، على الفرع العلوى للتفاعل، كما هو موضح فى الشكل (٣-١٢) وعندما يضمحل السكوارك، إلى فوتينو ورذاذ من المادة العادية، سوف تواجه بموقف كالموضح إلى اليسار فى الشكل (٤-١٢) وسوف تأتى المادة العادية فى هيئة انبثاق نفاث ينطلق إلى اتجاه واحد، بحيث تعادل الفوتينوات التى سوف تندفع إلى الاتجاه الآخر.



الشكل 13.3

ولو أحيط السكوارك بكاشف، كما هو موضح فى الشكل (٤-١٣)، فإن انبثاق جسيمات المادة العادية، يمكن الكشف عنه، ولكن ليس الفوتينوات. فى هذه الحالة سوف يجابها وضع مختل التوازن، وفيه تنطلق الجسيمات إلى اليمين حيث لا تضادها - بقوة مساوية - أى جسيمات مندفعة إلى اليسار. ولو تخيلت تحريك الكاشف من مستوى كروى إلى آخر مسطح، فسوف تحصل على قراءة مثل تلك الموضحة إلى اليمين، نتوء وحيد (يطابق الانبثاق النفاث) على خلفية منخفضة.

Experimental Searches for Dark Matter



الشكل 13.4

ويؤكد (كارلو روبييا) - الحائز على جائزة نوبل، والذي يعمل فى منطقة الكاشف UA-1 فى CERN^(١) - بأنه قد شاهد بعض الأحداث من ذلك النوع الموضح فى الشكل، وهناك مخطط المخرجات الكاشف، إلى اليمين فى الشكل (٤-١٣)، يتوافق مع بعض أفكاره التى أدلى بها. ومنذ ربيع العام ١٩٨٨، لم يفسر الفيزيائيون، هذه النتائج كبرهان لوجود الجسيمات فائقة التماثل؛ إذ إنه من المحتمل الحصول على إشارات

(١) يعنى UA-1 (Underground area 1) أى (المنطقة ١ تحت الأرضية). والصروف CERN ترمز إلى (European Center for Nuclear Research) أى (المركز الأوروبى للبحوث النووية، وهو المختبر الذى يقع فى جنيف بسويسرا وبالفرنسية Organisation Européenne pour la Recherche Nucleaire). (المترجم)

- مثل تلك الموضحة فى الشكل - للتفاعلات التى تتضمن المادة العادية فحسب. وعلى سبيل المثال، فإن الجسم الذى لم يكتشف بعد، يمكن أن يكون نيوترينو أو أى جسم آخر، لم يسجل من قبل فى سجل آلة المختبر، والسؤال الجوهرى هو عما إذا كانت الأحداث التى شوهدت فى CERN، قد وقعت بشكل أكثر مما كان متوقعا منها، على أساس الفرض، بأنها جرت بواسطة تفاعلات المادة العادية فقط، ولا يبدو أن هذه هى الحالة قيد الدراسة. ومع ذلك، فإن الأبحاث التى جرت فى CERN، قد أظهرت إحدى الطرق لمحاولة الكشف عن المادة المظلمة، التى تشكل معظم الكون.

الأشعة الكونية للمادة المظلمة

أجرى (بلاس كابريرا) وزملاؤه فى جامعة ستانفورد، تجاربهم على نوع جديد من الكواشف، يمكن أن يزودنا بطريقة للكشف عن المادة المظلمة مباشرة، نون الحاجة إلى تخليقها فى أحد المعجلات. ولفهم ما تتضمنه هذه التجارب الفريدة، عليك أن تتعرف على حقيقتين، تشتمل إحداهما على بنية الكون، أما الأخرى فتتضمن التكنولوجيا المتقدمة الحديثة.

والحقيقة الأولى هى، كما رأينا فى الفصل السادس، أن المادة المضيفة فى مجرة الطريق اللبنى مطمورة فى المادة المظلمة الكروية الشكل. ولا تدور المادة المظلمة بنفس معدل سرعة المجرة، ومن ثم يمكن النظر إلى كوكب الأرض، وكأنه يتحرك خلال "رياح" من المادة المظلمة.

وينفس الطريقة عندما تقود سيارتك فى يوم هادئ، سوف تشعر بالرياح التى تنشأ نتيجة حركة سيارتك خلال الهواء. ولو توفر لنا مقياس حساس بدرجة كافية، فيجب أن يكون بمقدورنا أن نكشف عن رياح تلك المادة المظلمة. وعلى الأقل، فإن هذا هو أمل الباحثين الذين يعملون فى ذلك المشروع. والحقيقة الثانية، أنه بفضل نمو صناعة الإلكترونيات الدقيقة، على مر العقود القليلة الماضية، فقد أصبح بالإمكان تنمية

بلورات ضخمة من السيليكون النقى بشكل لا يصدق، وفي الواقع، فإن الرقاقة الإلكترونية الدقيقة، التي تعمل في حاسوبك الشخصي أو حاسبتك، ربما بدأت حياتها كجزء من بلورة أسطوانية من السيليكون عرضها نحو ست بوصات وطولها حوالى أربعة أقدام. وتوفر مثل هذه البلورات النقية والضخمة، هي التي تعطي الباحثين التجريبيين الأمل، بأنه بمقدورهم الكشف عن المادة المظلمة، التي يتحرك كوكب الأرض من خلالها.

وفكرة الكاشف المشيد من بلورة سيليكون بسيطة للغاية. تخيل الذرات داخل البلورة مقيدة ببعضها بواسطة تنظيم معقد ومتشابك من النواياض المتباينة. وإذا حدث وتصادمت ذرة في هذه البلورة مع جسيم برياح المادة المظلمة، فإن بعضاً من النواياض التي حول الذرة، سوف تتمدد. وبعد الاصطدام، سوف تهتز الذرة المتصادمة، وسينتقل ذلك التذبذب من ذرة إلى أخرى، بواسطة شبكة النواياض. وفي نهاية الأمر، سوف يشق ذلك الاضطراب طريقه من داخل البلورة إلى سطحها، ولو توفرت لنا كاشفات حساسة بدرجة كافية، سيكون بمقدورنا القول بأن ثمة تفاعلاً قد حدث، وبقياس وقت الوصول إلى السطوح المتباينة، يمكننا أن نحسب في أى مكان من البلورة قد وقع.

ولا ريب أنه من السهل وصف هذه العملية نظرياً، ولكن أن نطبقها عملياً في موقع أحد المختبرات، فهذا أمر آخر، إذ إن أى شائبة في داخل بلورة السيليكون، سوف تغير من الطريقة التي تترتب بها "النواياض"، وفي الواقع، فإن تلك الشائبة أيضاً سوف تشتت الإشارة، بينما ترتحل إلى سطح المكعب. وذلك هو السبب في أن هذا النوع من الكواشف، قد تم تطويره في الوقت الحاضر، بعد أن تلقى العلماء الصناعيون درساً، في كيفية تنمية بلورات تنسم بالضخامة والكمال.

وخطط (كابريرا) وفريقه لابتكار سلسلة من قوالب يزن كل منها كيلو جرام واحد من السيليكون مع شبكة قضبان متصالبة من الكواشف مثبتة في كل جانب، ثم قاموا بتبريد المنظومة بمرمتها، إلى بضع درجات حرارية فوق الصفر المطلق^(١). ولا يخفى

(١) درجة حرارة الصفر المطلق نحو ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر. (المترجم)

التبريد فقط من الحركات العشوائية داخل السيليكون، مما يجعل الإشارات عند السطح أكثر نقاء، بل إنه مكن أيضاً الباحثين التجريبيين من استخدام كاشفات بالغة الحساسية وفائقة التوصيل^(١)، لقياس تلك الإشارات بدقة متناهية. وتمثلت خطتهم في تكيس آلاف من تلك المكعبات، ومراقبة ما يحدث. وهذه الممارسة في التكنولوجيا المتطورة، ليست أمراً جلالاً، إذ إن طناً من أجهزة القياس الدقيقة السيليكونية، يمكن أن يوضع بشكل مريح، تحت منضدة مطبخ متوسطة الحجم.

وثمة نقاط مثيرة عديدة، يمكن مناقشتها حول هذه التجربة. فهذا النوع من التذبذبات التي أحدثتها الاصطدامات في السيليكون، مشابهة تماماً، لتلك التذبذبات التي تميز الموجات الصوتية في الهواء. ومن ثم، فإن التطبيق الفني لعملية الكشف، تتشابه مع إيجادك لكرة تنس، بمجرد سماعك لصوت ارتدادها من جدار، بعد اصطدامها به. ويمكنك القول بأن (كابريرا) خطط أن "ينصت" لصوت المادة المظلمة.

ولأنه من المتوقع أن تكون التفاعلات مع المادة المظلمة نادرة للغاية، فلن يكون من الممكن تشغيل الكاشف، وننتظر فقط حدوث تفاعل، إذ إن هناك جسيمات أخرى في الجوار سوف تبعث بإشارات، ناهيك عن مدى الحماية المتوفرة لهذه المنظومة. وبالطبع، فإن أول مهمة للكاشف، سوف تكون الكشف عن النيوتريونات الشمسية. والكشف عن المادة المظلمة، يجب أن يتصف الباحثون التجريبيون بالمهارة. أما عن خطتهم، فسوف تكون كالآتي:

نحن نعلم أن كوكب الأرض يدور حول الشمس، مرة كل عام. ويعنى ذلك، أنه لمدة نصف عام يجب أن يكون كوكب الأرض متخللاً رياح المادة المظلمة. أما في نصف العام الآخر، فلا بد أنه ترك هذه الرياح خلف ظهره. وبالتالي، سوف تتدفق مادة مظلمة أكثر، عبر الجهاز لمدة نصف العام الأول من العام، عنه في النصف الآخر. وتلك هي

(١) مواد تسمح بمرور الكهرباء خلالها دون أي مقاومة تقريباً، وذلك في درجات حرارة منخفضة للغاية تقترب من الصفر المطلق. (الترجم)

الإشارة السنوية، التي لها الأولوية عن أى شيء آخر، والتي يأمل الباحثون التجريبيون في التوصل إليها.

أن يتفكر (كابريرا) في إجراء بحث عن رياح المادة المظلمة في هذه الأيام، لأمر مثير للاهتمام، لأنه منذ قرن مضى، قام باحثان أمريكيان آخران، بإجراء بحث - أصبح شهيراً في الوقت الحاضر - عن نوع آخر من "الرياح". وكان الباحثان يعملان في كليفلاند، التي أصبحت الآن تسمى (جامعة كيس وسترن ريسيرف). وقد قام هذان الباحثان، (ألبرت ميتشلسون) و(إنوارد مورلي) بإجراء تجربة مشابهة في تخطيطها، لكشف المادة المظلمة، الذي وصفناه توأ. في ذلك الوقت، كان العلماء يعتقدون أن الكون تتخلله مادة تعرف باسم "الأثير"، وأن هذه المادة توفر نوعاً من الإطار للكون بأسره. وعرفت مادة الأثير بأنها "عين الإله"، وتعدد مناهل الإسناد^(١)، الذي تضمنته الفيزياء النيوتونية، والتي رفضها أينشتاين صراحة. وافترض أن حركة كوكب الأرض خلال الأثير كانت تنتج "رياح" أثير، وأن هذه الرياح يجب أن تظهر، حتى تغير الاتجاه في جزء من العام إلى الجزء الآخر، بسبب عملية مشابهة لتلك التي أشرنا إليها بإيجاز آنفاً، عن رياح المادة المظلمة.

وعندما أوضح (ميتشلسون) و(مورلي)، أن مثل رياح الأثير، ليس لها وجود، فإنهما بهذا قد أزاحا أحد المعوقات المفاهيمية، التي كانت تقف كحجر عثرة في الطريق إلى التطور النهائي للنظرية النسبية.

وشرع (ميتشلسون) و(مورلي) في البحث عن تأثير ولكن عبثاً ما حاولا، إذ انتهى بهما الأمر، إلى عدم التوصل إلى أى شيء، وعلى جانب آخر، فإن (كابريرا)، قد بدأ تجاربه على أمل أنه لن يرى أى تغير في "رياح" المادة المظلمة، عندما يتحرك كوكب الأرض في مداره. وقال في هذا الصدد: "على أية حال، حتى لو وجدنا شيئاً ما، فلن تكون لدينا أى فكرة عنه".

(١) مجموعة من المحاور للإحداثيات يمكن عن طريقها تحديد موقع وحركة ما. (المترجم)

الفصل الرابع عشر

مصير الكون

(غداً وغداً وغداً...).

ويليام شكسبير
مسرحية ماكبث، الفصل الخامس، المشهد الخامس

موجز

إن الحقيقة الأكثر عجباً، حول الطريقة التي تتطور بها المفاهيم في علم الكون الحديث، هي أن القضايا الثانوية غير المنجزة، يبدو أنها تتألف معاً، ومن المعتاد أن المرء يمكنه أن يعرض فكرة غريبة للغاية، ويتأكد أن هناك جهلاً كافياً عن الكون، حتى يمنع أى تعارض مر بـك، بين فكرته والمعلومات المتوفرة في نفس المجال. تماماً مثل الخرائط العتيقة، فإن مواقع عديدة في الكون عليها علامة "إنها غامضة لا تقترحوا منها". لم يعد هذا حقيقياً. فعلى سبيل المثال، إننا لا نستطيع أن نضع فروضاً حرة وسهلة عن طبيعة المادة المظلمة. إن لدينا معلومات كافية عن الطريقة التي تشكلت بها نوى الذرات، بعد ثلاث دقائق من الانفجار الأعظم، لنضع محددات صارمة على كمية المادة، التي يمكن أن تكون في شكل (باريونات)^(١). كما أننا نعرف بمقدار كاف عن

(١) تعنى "الثقيلة" وهي تنتمي إلى عائلة الجسيمات المركبة التي تحتوى على ثلاثة كواركات. (المترجم)

البنية ذات الحجم المروع، ومن ثم، فلم يعد كافياً إظهار أن افتراضاً معيناً عن المادة المظلمة، سوف يحل مشكلة تكوين المجرات، إذ يجب علينا أيضاً أن نوضح أن هذا الافتراض، يفسر كذلك نشأة الفراغات. وفى الحقيقة، فإننا قد وصلنا إلى النقطة التى يبدو فيها خلق الكون وتطوره وبنيته الحالية، بمثابة مشكلة مفردة دون أية آثار. ولم يعد ممكناً أن نتعامل مع مجرد قطعة من هذه الأحجية، بل يجب علينا أن نحل المشكلة ككل، مرة واحدة. ويجب على الفيزيائيين النظريين، أن يوضحوا هذا الأمر، وأنهم عند التعامل ومعالجة مسألة البنية، لا يعبثون بالاتفاق بين النظرية والرصد والملاحظة الفعلية، التى تم الحصول عليها فى المراحل الأولى بعد الانفجار الأعظم. ومفادها أنهم لن يعتقدوا بوجود المجرات، نتيجة لإقصاء الفراغات فى الكون.

وثمة واقعة شهدتها ضمن فعاليات مؤتمر بولى عقد مؤخراً، سوف توضح هذه النقطة. استوى عالم كونييات ذائع الصيت واقفاً، بعد مجادلة بين أعضاء المؤتمر واقترح آلية ربما تسمح لكل المادة المظلمة أن تكون فى شكل بايرونات، ومع هذا تظل تنتج - تقريباً - نفس الوفرة من غاز الهيليوم الذى نرصده فى النجوم (انظر المجادلة عن العلاقة بين هاتين الاثنتين فى الفصل التاسع). وما أن جلس عالم الكونييات هذا، حتى نهض عالم نظرى شاب فى آخر القاعة، وأوضح أنه إذا فرض وطبقت هذه الآلية، فإن وفرة الهيليوم ربما تكون صحيحة أما تقدير فيض "الليثيوم"^(١) فسوف يكون خطأ. ومن ثم، فقد سحب العالم الشهير ملاحظته. والقصد من هذه الواقعة الطريفة أنه منذ عشر سنوات مضت، لم تكن لتحديث. وقتئذ كنا نحتاج إلى أرصاد وملاحظات عميقة، عن هذه الظواهر مثل وفرة الليثيوم فى الكون وحساباتنا وإحصائياتنا لم تكن قد تطورت إلى الحد أنه بإمكاننا أن نتوصل إلى تنبؤات قطعية لا لبس فيها، حول ما يجب أن تكون عليه هذه الوفرة، وبالتالي، فإن خيالنا يمكن أن يتقلص ويضيق بالكامل، ولا يمكن للمرء أن يضع قيوداً محددة عليها.

(١) عنصر كيميائى فلزى، وهو معدنى لين لونه أبيض لامع، يتكسد ويتفاعل بسرعة فى الهواء والماء. (المترجم)

ونحن فى بداية الطريق لتتوصل إلى معرفة كافية عن الكون، لنضيق مدى اختياراتنا العديدة. ومن بين كل الأكوان التى يمكننا تشييدها فى أذهاننا، فأقل القليل منها، يمكن أن يبقى راسخاً بعد إجراء الاختبارات المزبوجة للملاحظة والأرصاء الفعلية، وللحسابات والإحصائيات النظرية. وسوف يأتى الوقت، عندما يطرح سؤال فى علم الكون: كيف وصل الكون إلى ما هو عليه الآن؟، وهل سيكون مرتبطاً من كل جوانبه بالمعرفة الراسخة والوطيدة، وأنا ربما تصادفنا صعوبة حتى لإيجاد أى حل، لا يسبب أى تباينات فى أى موقع بالكون. وإن تتنابنى الدهشة على الإطلاق، إذا حدث فى خلال عدة سنوات قادمة أن الصعوبات التى يواجهها العلماء النظريون حول إيجاد حل لمشكلة تطور الكون وبينته، سوف تهيئ الفرصة لظهور حركة فلسفية جديدة، سوف تدعى أن الأسلوب العقلانى المتضائل للعلم الغربى، قد وصل إلى نهاية طريقه، ومن ثم يجب تجربة اتجاه جديد (من المفضل أن يكون صوفياً خفياً) يمكن أن يؤدى دوره فى مجال الأبحاث، حدث هذا فى السبعينيات من القرن العشرين، عندما وصلت فيزياء الجسيمات إلى طريق مسدود مؤقت، ومن ثم، يمكن أن يحدث نفس الشيء من جديد فى علم الكون. ولكن كما أدى تطور نظريات المجال الموحد^(١) إلى التغلب على مأزق فيزياء الجسيمات فى السبعينيات من القرن العشرين فإننى أتوقع، أنه إذا ظهر هذا النوع من المشاكل فى علم الكون، فإن وسائل العلم النظرى - التى ثبتت صحتها وفعاليتها بالتجربة - كفيلا بأن تؤدى فى نهاية الأمر، إلى التعامل معها.

ذلك أنك كلما تأملت عن كثر، خريطة الكون الجديدة التى صممت فى الوقت الحاضر، فإنك سوف تتحقق أكثر، من أنها تكشف عن كون يشكل آلة مفردة ومدهشة، فكل تروسها ومحركاتها تتناغم معاً بطريقة رائعة، لتشكل وحدة متماسكة، كل شيء مرتبط ببعضه، وإدراكنا لهذه الحقيقة، ربما يكون بحق أكثر فطنة وأهمية، من التى يمكننا استخلاصها من علم الكون الجديد.

(١) نظرية لم تتحقق بعد، ومدفها توحيد القوى الأربعة للكون أى الجاذبية والكهرومغناطيسية والقوة الضعيفة والقوة الشديدة. (الترجم)

بعض الآراء الغربية غير التقليدية

بعد أن أوضحنا فيما سبق أن هناك العديد من التقييدات الجديدة، على نماذجنا للكون، وأسارع لإضافة بئنه على الرغم من ذلك، فما زالت هناك مساحة واسعة لإعمال الخيال. ولبيان ذلك بمثال توضيحي، دعنى أذكر بعض أساليب البحث، التى - حتى الوقت الحاضر - لم يثبت خطأها.

إن الأوتار الكونية التى تمت مناقشتها فى الفصل الثانى عشر، تشكلت بتأثير الطريقة التى انفصلت بها القوة الشديدة عن القوى الأخرى، عندما كان عمر الكون ١٠-٣٥ ثوانٍ. وبمعنى آخر، أنها تكونت من نظريات التوحيد العظمى. ومؤخراً، أوضح (إد وايتن) و(جيروم أوسترايكر) من جامعة برنستون، بأن الأوتار الكونية يمكن أن تنشأ أيضاً فى نظريات التماثل الفائق، حيث إن قوة الجاذبية تتوحد تماماً مع القوى الكونية الأخرى. وفى بعض الحالات، فإن تلك الأوتار فائقة التماثل، تمتلك - على الأقل - خصائص غير عادية.

وأكثر هذه الخصائص غرابة، أنه عندما يقترب جسيم عادى، من أحد الأوتار الكونية، فإنه يمكن أن يسقط فيه، مطلقاً طاقته أثناء ذلك.

وما أن يصبح هذا الجسيم داخل الوتر، يكون قد وقع فى الشرك، ويظل كامناً فى الداخل، حتى تاتى وسيلة ما خارجية تضيف طاقة للوتر، مما يؤدى إلى إطلاق سراح الجسيم. وهذه الجسيمات المحبوسة يمكنها أن تتحرك، وإذا كانت مثل الإلكترونات العادية، فإن هذه الحركة تنشئ تياراً كهربائياً، وتظهر الحسابات والإحصائيات أن هذه الجسيمات المحبوسة، بمقدورها إنتاج تيارات كهربائية مروعة دون أن تفقد شيئاً من طاقتها، وتبلغ قوة هذه التيارات "كدريليون"^(١) مرة أكثر مما يطلقه أكبر خطوط القوى الكهربائية. لو كان هناك مجال مغنطيسى فى الكون المبكر، عندئذ، فإن حركة

(١) يساوى فى النظام الأمريكى ١٠١٥ أى واحد وأمامه خمسة عشر صفراً. (المترجم)

الأوتار عبر ذلك المجال، سوف تدفع بهذه التيارات إلى مستويات عالية، إلى أن تصل إلى نقطة، ينفجر عندها الوتر الكوني، مُطلقاً كل جسيماته في اندفاع رهيب. وثمة افتراض بأن هذه الانفجارات الهائلة للأوتار فائقة التماثل، التي حدثت في وقت مبكر من عمر الكون، هي التي كونت الفراغات التي نرصدها في الوقت الحاضر.

ويعاب على هذه النظرية البارعة من الشواثب الناتجة عن كل نظريات الانفجار (انظر الفصل السادس)، وبالإضافة إلى هذا، فإنها لا تجيب عن بعض الأسئلة، ولعل أكثرها إثارة: من أين أتى المجال المغنطيسي الأصلي الذي ولد التيار الكهربائي؟ وحتى يتم التصدي لهذه الأسئلة، سوف يكون من الصعب اعتبار هذه الرؤية للأوتار الكونية، إلا مجرد فرض مثير للاهتمام.

وثمة تأمل آخر، يحتمل أن يصيب قدراً من النجاح، كشف عنه وتابعه (نيل توروك) و(دافيد شرام) من جامعة شيكاغو ومختبر معجل فيرمي القومي. آخذين في اعتبارهم أن كل نوع من المادة المظلمة بذاته. تواجه صعوبات في تفسير كل الظروف الأخرى التي تم تأكيدها من قبل عن الكون، وتتبنى هذه النظريات موقف "كل ما سبق"^(١). وعلى سبيل المثال، ذكرنا في الفصل العاشر، أن المادة المظلمة الساخنة التي في هيئة نيوتريونات ثقيلة، ليس بمقدورها تفسير كيفية تشكل المجرات، ولكن ماذا لو كان هناك نوعان من المادة المظلمة في الكون، على شكل نيوتريونات وكذلك على هيئة أوتار كونية؟ ويمكن للأوتار الكونية أن تفسر - بطريقة مقنعة للغاية - مسألة تشكيل المجرات، أما النيوتريونات فيمكنها تفسير البنى الكونية المروعة بنفس القدر من الإقناع. فلماذا لا نأخذ النظرتين معاً، ونتحقق من أن قوة أحدهما لا تلغى ضعف الأخرى؟

بيد أن الوقت لا يزال مبكراً للغاية، للقول بأن هذا الاقتراح سوف يؤتي ثماره، ولكن ثمة سبب أكيد للاعتقاد بأن ذلك سيحدث قريباً. ولو تم هذا الأمر، فربما عندئذ لن تكون هناك ضرورة لأنواع المرشحات الغريبة للمادة المظلمة، التي ناقشناها في الفصل

(١) أي كل النظريات السابقة عن الكون. (المترجم)

الحادى عشر. وسيكون من الممتع أن نتمكن من المضى قدماً - وليس بمضى - فى دراسة الجسيمات، التى نحن على بنية منها منذ زمن طويل.

ماذا سيكون مذاقها ؟

إن واحدة من أروع المتع التى يشعر بها، من يقوم بالتدريس لطلاب الكليات، أنه بين حين وآخر، يسأل أحدهم عن شىء ما، يفتح على مصراعيه أفاقاً، لم يفكر فيها الأستاذ قط، بينه وبين نفسه. حدث فى العام الماضى، أن سئمت قراءة نفس أبحاث الفصل الدراسى القديمة، أثناء تدريسي لمقرر الفيزياء التمهيدى للطلبة. ومن ثم، فكرت فى القيام بتجربة ما. أبلغت الطلبة أن يقرأوا ويعدوا تقريراً، عن خمسة مقالات من اختيارهم، نشرت بالمجلات العلمية التى تعنى بنشر الموضوعات العلمية المبسطة لغير المتخصصين، وكان هدفى من هذا، أن أجعلهم يعتادون على فكرة الحصول بأنفسهم على المعلومات عن العلم، خارج قاعات محاضرات الجامعة.

وقرأ أحد الطلاب مقالاً رائعاً عن المادة المظلمة، كتبه (لورنس كروس) فى مجلة "العالم الأمريكى"^(١). وبعد صياغة التقرير المعتاد، قام الطالب بالتعليق بما يلى: "إن كل هذا شىء حسن للغاية، ولكن إن ما تفعله المادة المظلمة للكون، لن يكون له تأثير كبير على حياتى. إن ما أود معرفته شيئاً شخصياً أكثر. ما مذاق المادة المظلمة؟ هل ملمسها لزج؟ أيمكننى أن أسبح داخلها؟"

وأدى هذا التعليق إلى أن أتوقف وأفكر. ومثل معظم الفيزيائيين، تقبلت دون نقاش، أن المادة المظلمة تتعلق بالمجرات والعناقيد المجرية الفائقة، وليس بتجربة الحياة اليومية، ومع هذا، فإذا كانت موجودة بالفعل، فإنه من الممكن أن تجمع معاً بكميات كافية، وفى هذه الحالة نستطيع تذوقها أو القفز فيها، فما الذى ستكون عليه مثل تلك التجربة الفريدة؟

(١) Scientific American Magazine

للإجابة عن هذا السؤال، عليك أن تفكر فيما يعنيه تنوق أو الإحساس بشيء ما. إن عملية التنوق تتضمن تفاعلاً كيميائياً يتم فيه اندماج جزيئات مادة ما، مع جزيئات حليمات التنوق^(١)، حيث تنتج إشارات كهربائية، تذهب إلى المخ. ويشتمل الإحساس على إثارة، بالضغط على مستقبلات متخصصة في الجلد. ومن ثم، فإذا أردنا "تنوق" المادة المظلمة، فيجب أن يكون بمقدورها أن تشكل نفسها على هيئة ذرات وجزيئات. وإذا رغبتنا أن نحسسها، يجب أن تكون متماسكة بدرجة كافية، حتى تتمكن من بذل ضغط عليها.

وبإجراء هذا الاختبار، يمكننا في التو أن نقيم مرشحات المادة المظلمة مثل النيوتريونات والأكسيونات، عن طريق التنوق. إنها لا تكون ذرات، وتفاعلاتها مع المادة العادية ضئيلة للغاية، إلى الحد أنها لن تحدث تأثيراً أيّاً كان، على حليمات التنوق. وفي الواقع، فإننا جميعاً "نتنوق" النيوتريونات طوال حياتنا، بمعنى أنها تمر خلال أفواهنا، بمعدل يصل إلى الملايين في الثانية الواحدة، في رحلتها بعيداً عن الشمس. إنها لا تثير أيّاً من التفاعلات الكيميائية الضرورية، أثناء ارتحالها. ونفس المثل ينطبق على الأكسيونات (إذا كانت موجودة). إننا "نسبح" أيضاً في لجة النيوتريونات طوال حياتنا، بيد أنها لم يعد بمقدورها بذل ضغط، أكثر من مجرد "دغدغة" حليمات التنوق. كما لا يستطيع المرء أن "يتنوق" المادة الظل، لسبب بسيط هو أنها - على سبيل الفرض - لا تتفاعل كيميائياً مع المادة العادية. وربما يتبادر إلى ذهنك، أنه ما دامت المادة الظل يمكن أن تتكامل معاً، إلى مواد صلبة وسائلة، إذن يمكن الإحساس بها، بيد أن هذا ليس صحيحاً. ذلك أن المادة الظل تتفاعل معنا، فقط من خلال قوة الجاذبية، وإذا قام شخص ما بوضع كتلة غير منتظمة من المادة الظل في راحة يدك، سوف تسقط على الفور إلى أسفل، غير مسببة - تقريباً - أى اضطراب للأنسجة. ويرجع هذا، إلى أنك عندما تمسك بشيء ما في يدك، فإن القوى الكهربائية بين الذرات التي تكون يدك، وذرات الشيء، هي

(١) خلايا مستديرة وبيضاوية توجد على اللسان وتشكل أعضاء حاسة التنوق. (المترجم)

التي تتغلب على قوة الجاذبية وتمنع الشيء من السقوط. ولا يمكن لهذه القوة أن توجد بين المادة الظل ويدك، ومن ثم، فإن المادة الظل لن تجد شيئاً يمنعها من السقوط.

وربما يحدث الشيء نفسه، إذا حاولت أن تنزع جزءاً من وتر كوني، ولكن لسبب مختلف. ربما تفترض أن الوتر كثيف المادة للغاية، إلى الحد أنك إذا حاولت أن تمسك بأنشطة منه في يدك، فإنها سوف تسقط على الفور مخترقة يدك، تاركة خلفها ثقباً يشير إلى المر الذي سارت فيه، وكأنها آلة حادة استخدمت في قطع كعكة كونية. وفي الحقيقة، فإنه حتى الكتلة الهائلة للوتر الكوني، لا تستطيع أن تتغلب على الضعف المتأصل في القوة التجاذبية. وبينما يسقط الوتر الكوني خلال يدك، فإن القوة التي سوف يبذلها على أية ذرة ستكون أقل بكثير من القوى الكهربائية العادية التي تبذلها الذرات المجاورة لها، وهي القوى التي تمسك بأنسجة يدك معاً. وسوف يسقط الوتر الكوني - دون شك - خلال يدك، بيد أن تأثيره على الذرات التي يصطدم بها، ضئيل للغاية إلى الحد أنه لا يتمكن من إزاحتها من مكانها. أما أنت فلن تشعر بأي شيء.

وهكذا، فإن بحثنا عن المادة المظلمة "حلوة المذاق"، يذهب بنا إلى شركاء فائقي التماثل. والجسيم الأكثر "شيوعاً"، هو الفوتينو، الذي لا يشكل ذرات، على الرغم من أنه ربما يكون قادراً على بذل ضغط أقل - إلى حد ما - من الضوء العادي. ولا تتمكن الفوتونات ولا الفيتونات في كثافتها العادية، من أن تمارس ضغطاً كافياً علينا، حتى نشعر بها. وربما يحدث الشيء نفسه للشدات، التي تتكون بكاملها من الجسيمات فائقة التماثل.

ومع هذا، فإذا كان السلكترون مستقرًا، فيمكن أن يوجد فرضاً يناقض الفكر السائد في الوقت الحاضر، وثمة احتمالية أن يكون شيئاً مثيراً للاهتمام. وقد ظهرت هذه الاحتمالية، لأن سلكترونًا مستقرًا، الذي له شحنة كهربائية سالبة، يمكنه أن يحل محل إلكترون أو أكثر في داخل ذرة عادية. وبسبب الكتلة الضخمة للسلكترون، يصبح مداره مختلفاً.

عن مدار الإلكترون، الذى حل محله. وبالتالي، فإن كل مدارات الإلكترونات الأخرى فى الذرة، سوف يصيبها التشوش وعدم الانتظام، وكذلك سوف تتغير كل الخصائص الكيميائية للمادة التى تحتوى على هذه الإلكترونات. ومن ثم، فإن مثل هذه "الذرة - الفائقة"، سوف يجرى بها مجموعة جديدة تماماً، من التفاعلات الكيميائية. إن الأطعمة التى نتناولها إذا كانت تشتمل على "كربون فائق"^(١)، فلن يكون مذاقها مثل أى أطعمة عرفناها من قبل.

ولو كانت المادة الفائقة موجودة، فربما تفتح المجال لآفاق جديدة من الطهو. ومن يدرى، لعل بمقدورنا تطوير شيء ما، مذاقه كالمثلوجات (الآيس كريم) ولكن ليس به أية سرعات حرارية!

مصير الكون

ماذا سيكون تأثير المادة المظلمة على المصير النهائى للكون؟ أمور عديدة يمكن أن يقال حول هذا السؤال. فى المقام الأول - كما سوف نرى بعد قليل - أن المادة المظلمة يكاد ألا يكون لها أثر على المستقبل، من وجهة نظر راصد فوق كوكب الأرض. بيد أنه إذا كان الكون يمتلك حقاً، الكمية الحرجة من المادة، فعندئذ يكون لوجود المادة المظلمة - بالتأكيد - تأثير على مدى المستقبل البعيد. وقد أصبح من المعتاد فى المجادلات التى من هذا النوع، أن تشتمل على تأمل لفكرة مفادها أن الكون يمر بفترات دورية، أى إن الانفجار الأعظم سوف يتبعه تقلص وانهيار (الانكماش الأعظم) ثم انفجار مروع آخر (الارتداد الأعظم). ولو كانت أفكارنا الحالية صحيحة، فإن هذا لن يحدث؛ إذ إن الكون خلق بانفجار أعظم واحد، تبعه تمدد أخذ يبطئ خلال زمن غير محدود.

(١) نوع جديد من الكربون يطلق عليه "كارباين" Carbyne يكون أقوى وأرق من أى مادة أخرى. (المترجم)

ويمكننا أن نقتفى أثر تطور الكون، افترض أن قوانين الطبيعة التي نرصدها في الوقت الحاضر، سوف تظل دائماً حقيقية في المستقبل. ومن وجهة نظر مراقب فوق سطح كوكب الأرض، فإن البنية المروعة للكون تظهر اختلافاً بالغ الضالكة لظهور السماء ليلاً، ما دامت المجرات النائية تكون - في الغالب - خفية للعين المجردة. وسوف تستمر النجوم في مجرتنا الطريق اللبنى - بما فيها الشمس - في التأجج حتى تستنفد مخزونها من وقود الهيدروجين والهيليوم. وبالنسبة للشمس فإن وقودها سوف يستهلك بعد نحو أربعة بلايين سنة، ومن ثم ستتحول إلى عملاق أحمر. أى نجم منتفخ يمتد مداره إلى ما بعد مدار كوكب الزهرة. وبالنسبة لراصد فوق سطح كوكب الأرض، سوف تظهر الشمس ملء نصف السماء. وقتئذ، سوف تغلى المحيطات وتغنى كل الكائنات الحية، وإذا لم يكن لدى الجنس البشرى، الإدراك الواعى باستعمار كواكب تدور حول نجوم أخرى ستكون هذه هى نهايته.

ويتبع مرحلة العملاق الأحمر، انهيار الشمس لتصبح قزماً أبيض. والقزم الأبيض نجم فى حجم الأرض تقريباً، يأخذ فى التبريد ببطء، كأنه فحم كونى فقد مصدر نيرانه. ستخبو النجوم فى السماء، الواحدة تلو الأخرى، إما بانفجار مشهدى أو بصوت خافت كأنه الأنين، مثل الشمس. وإذا حدث وكان هناك راصد فوق كوكبنا، عندما يكون عمر الكون "كوادرليون" سنة (أكبر من عمرها الحالى بألف مرة). سوف تكون السماء - بالتأكيد - حالكة السواد؛ إذ إن كل النجوم تقريباً، التى نراها فى الوقت الحاضر، سوف تكون معتمدة للغاية بحيث تكون غير مرئية أو تبدو كنقاط خافتة فى محيط من الظلام.. ولم تكن المجرات النائية قط، جزءاً من المشهد الكونى الرائع الذى يتجلى فى الوقت ما بين غروب الشمس وشروقها، فيجب أيضاً انتقاصها. وسوف يستمر التبريد البطيء للرماد الكونى، لزمان طويل، ويكون المصير الوحيد، هو سقوط النجوم والغاز فى الثقب الأسود، الذى نعتقد أنه يربض فى مركز مجرة الطريق اللبنى. ومن وقت لآخر، يتصادم جسيم وضده فيفنى كلاهما الآخر، مما يضيف إلى محيط الإشعاع المتمد. وسوف يستمر تمدد الكون، بيد أن معدله سيبطئ بشكل محسوس، مع مرور السنين.

وسوف يكون هناك معلمان فقط للإشارة إلى التغيرات التي تحدث مع تقدم الزمن، وعندما يكون عمر الكون حوالي 10^{36} عاماً - أى بعد مرور زمن طويل، على توقف كل النجوم عن التآلق - سوف تضمحل البروتونات فى المادة العادية، وكل شيء سوف يتخلف فى الجوار، سواء كان رماداً نجمياً أو كتل من الصخر، سيختفى فى عصفه من الشعاع، بعد أن انهارت ودمرت ذراتها. كما ستزول الأرض تحت أقدامنا. وبعد هذا، عندما يقترب عمر الكون من 10^{60} عاماً، فإن الثقوب السوداء التى كانت - حتى هذا الوقت - تجمع المادة فى داخلها، سوف تبدأ فى إشعاع كتلتها إلى الخارج، فى شكل طاقة عادية. ثم سرعان ما تفنى. ويعد حدوث هذا، لن يتبقى أى شيء فى الكون، مشكل عن المادة العادية، بل مجرد محيط بارد ممتد من الإشعاع، تتبعثر فيه جسيمات قليلة غريبة. أفلتت من الفناء بطريقة ما، وهى الآن تنتشر على نحو رقيق للغاية لتلتقى بجسيمات رفيقة من جديد.

وعلى الرغم من أن أى فيزيائى - على حد علمى - لم يفكر فيما قد يحدث للمادة المظلمة، بينما تتم هذه القصة فصولها، أتوقع أن المادة المظلمة سوف تمر بنوع مماثل من التطور. وربما على مر العصور، سوف تنقلص الهالات المجرية إلى أقراص، ولكن ستكون هذه الأقراص من الفوتينوات، ولن تتمكن من تشكيل نجوم فائقة أو أى نوع من البنى المثيرة للاهتمام. وفى نهاية الأمر، سوف تضطر الفتينوات إلى السقوط، فى رؤى الثقوب السوداء الخاصة بها، التى سوف تشع كتلتها بعيداً.

وهكذا، ناهيك عن المادة التى تشكل الكون، فإن النهاية سوف تكون واحدة، محيط بارد ممتد من الإشعاع، اختفت فيه كل مظاهر الحياة، منذ زمن طويل.

خاتمة

يفقد كل من العلماء والشعراء قدرتهم على إيجاد الكلمات المناسبة، عندما يواجهون بمثل هذا النوع من السيناريوهات عن نهاية الكون. ويعد (ستيفن فينبرج) الحائز على جائزة نوبل، أحد المسؤولين - مثل أى عالم آخر - عن فهمنا الحالى عن الطبيعة، وقد أنهى كتابه الرائع "الثلاث دقائق الأولى"^(١) بعبارة كئيبة متشائمة "كلما بدا أن الكون يمكن إدراكه أكثر، ظهر أيضاً أنه مرتج لا معنى له". ومنذ حوالى قرن مضى، عبر الشاعر الفيكتورى (ألجرتون سوينبيرن)^(٢) عن فكرة مشابهة فى قصيدته "حديقة بروسبرين"^(٣):

من الإغراق فى حب الحياة

من أمل وخوف ينطلقان فى حرية من أسرهما،

إننا نشكر فى عيد شكر وجيز

أياً من الأرياب الموجودين هناك

إنه لن يعيش إلى الأبد أى إنسان،

ولن يقوم الموتى من قبورهم أبداً،

(١) The first three Minutes . (المترجم)

(٢) ألجرتون تشارلس سوينبيرن (١٨٢٧ - ١٩٠٩). (المترجم)

(٣) بروسبرين، إلهة الإخصاب فى الأساطير اليونانية. (المترجم)

وأنه حتى فى النهر السريع الجريان،

سوف تصل الرياح العاتية سالمة إلى البحر".

وكان يتعامل فقط مع القانون الثانى للديناميكا الحرارية^(١)، وليس التمدد الكونى

لهابل!

ليس ثمة شك على الإطلاق، أن التأمل فى كيفية نهاية الكون، يبدو أنه يظهر الجانب الأكثر تشاؤماً وكتابة لكل من العلماء والشعراء. وتذكرنى الاحتمالات المطروحة، بقصة من الخيال العلمى، كان لها تأثير قوى على عندما كنت يافعاً، كانت قصة تتضمن السفر عبر الزمن، حيث تتفاعل شخصيات - من حقبة تاريخية مختلفة - مع بعضهم، وكان شخص ما من بينهم يظهر دائماً فى الخلفية، شخص غامض يرتدى عباءة راهب، لم يتكلم قط حتى بلغت أحداث القصة ذروتها. وعندما أعلن مؤكداً "إننى آخر البشر.." ثم استطرد بصوت منغم "... مهما فعلتم وحققتم من منجزات، ومدى الشدة التى واجهتكم، سوف تنتهى كل الأمور بشخصى".

ومن الصعب تخيل أى شيء أكثر تأثيراً فى تأجيح خيال المراهق. وحتى فى هذه الأيام، مع تعاقب السنين وتطوير الحكم، كما أتمنى. عندما أعلم أن القصة لا تهتم بالبيولوجيا ولا بالفيزياء، أشعر بقوة الصورة الذهنية الأدبية.

أليس كل شيء تعلمناه عن بنية الكون، ونظريات المجال الموحد والمادة المظلمة، مجرد وسيلة لدعم مثل هذا الاعتقاد القدرى عن المستقبل؟ ولو أنه بعد بلايين السنين فى المستقبل، لن يكون ثمة حياة، ولا ذكاء، ولا ذكريات عن كفاح الإنسانية. عندئذ نتساءل: ما قيمة وهدف الوجود؟

(١) العلم الذى يدرس خواص انتقال الشكل الحرارى للطاقة مثل تحول الطاقة الحرارية إلى طاقة ميكانيكية كما فى محرك الاحتراق الداخلى. (المترجم)

وباعتبارى عالماً وإنساناً، فإنه يجب علىّ أن أجيب عن هذا التساؤل مهما كلفنى هذا من مشقة. وثمة احتمال أن تحليلى له، ربما سوف يساعدك عندما تواجهه بنفسك. وبعد مدة طويلة من التردد، أدركت فى آخر الأمر، أن القضية برمتها، يمكن أن تصاغ كمشكلة بسيطة كيف سوف أتصرف فى الغد؟ إذا أخذت فى الحسبان ما الذى أعرفه عن مستقبل الكون، كيف سيمكننى التعامل مع قرارات كل يوم، التى تشكل حياتى؟

وما توصلت إليه فى النهاية، هو الآتى: ربما يكون صحيحاً أنه بعد كواديرليون عاماً، سوف يصبح الكون محيطاً من الإشعاع البارد المتمدّد. ولكن ربما لن يكون هناك شخص ما لديه معلومات عن كيفية سلوكى فى الغد، ولا أحد يتذكر ما الذى فعله كل واحد منا. بيد أن هذا لا يمت للموضوع بصلة.

ولكن الأمر الجدير بالاهتمام، أننى سوف أعرف غداً، ما الذى فعلته، سوف أعلم إذا كنت أفضل شخص، أمكننى الوصول إليه.

وفى النهاية - يا أصدقائى - هذا كل ما يهم فى أمر المادة!.

قائمة المصطلحات العلمية

إعداد المترجم

Andromeda	A	أندروميديا (المرأة المسلسلة)
Antiproton		بروتون مضاد
Atom		ذرة
Axion		أكسيون
	B	
Baryon		باريون
Big Bag		الانفجار الأعظم
Big Bounce		الارتداد الأعظم
Big Crunch		الانسحاق الأعظم
Blak Hole		ثقب أسود
Bootes Constellation		كوكبة العواء
Boson		بوزون
	C	
Cosmic Strings		الأوتار الكونية
Cosmology		علم الكون
Coma Cluster		العنقود المجري (النّوابة)

Cepheid Variable	المتغير القيفاوية
Compactification	الإدماج
Correlation Function	وظيفة العلاقة السببية
Cosmic Rays	الأشعة الكونية
Critical Density	الكثافة الحدية
Closed Universe	الكون المغلق
Coupling	ارتباط

D

Dark Matter	مادة مظلمة
Dark Energy	طاقة مظلمة
Decoupling	فك الارتباط
Deuterium	الديوتريوم
Doppler Effect	أثر دوبلر
Dark Matter Wind	رياح المادة المظلمة

E

European Center For Nuclear Research (CERN)	المركز الأوروبي للأبحاث النووية
Electron Volt (ev)	إلكترون فولت

F

Flat Universe	الكون المسطح
---------------	--------------

G

Galaxy	مجرة
Gravitational lens	عدسات تجاذبية
Gravitational Radiation	الإشعاع التجاذبي

Galactic Rotation Curve	منحنى الدوران المجرى
Gravitational Wave	موجة تجاذبية
	i
Iso thermal Model	النموذج المتحاور (متساوى الحرارة)
In Flationary Universe	الكون المتضخم
	L
Light Year	سنة ضوئية
Lepton	ليبتون
Lithium	ليثيوم
Loops	أنشوطات
	M
Milky Way	مجرة الطريق اللبنى
Mass Concentration	تركيز الكتلة
Missing Mass	الكتلة المفقودة
Molecule	جزيء
	N
NASA	وكالة الفضاء الأمريكية
Nebulae	سديم
Neutrino	نيوترينو
Neutron	نيوترون
Nucleosynthesis	تخليق النوى
Nucleus	نواة

Oscillations	O	تذبذبات
Particules	P	جسيمات
Photino		فوتينو
Plasma		بلازما
Positron		بوزيترون
Protogalaxy		المجرة الأولى
Pulsar		نجم نابض
Parallax		تغير ظاهري فى الموقع الشئ المرصود
Quasar	Q	كوازر (شبه نجم)
Quantum Mechanics		ميكانيكا الكم
Quark		كوارك
Red Giant	R	عملاق أحمر
Red Shift		الانحياز نحو الأحمر
Super Galaxy	S	مجرة قائمة
Super Galaxies Cluster		عنقود مجرات قائمة
Super Strings		الأوتار الفائقة
Spiral Galaxies		المجرات الحلزونية (اللولبية)
Solar Oscillations		التذبذبات الشمسية

Supersymmetry	التماثل الفائق
Solar Seismology	الزلازل الشمسية
Space - time	الزمكان
Supernovae	السوبر نوفا (المستعمر الأعظم)
Shadow Universe	الكون الظل
T	
Theory of Everything (TOE) Turbulence	نظرية لكل شيء
U	
Universe	كون
Unified Field theory	نظرية المجال الموحد
V	
Void	فراغ
W	
WIMP	الجسيمات الكتلية ضعيفة التفاعل
White Dwarf	قزم أبيض

المؤلف فى سطور :

جيمس تريفل

بروفسور فى الفيزياء - جامعة (جورج ماسون) - الولايات المتحدة.

- ولد فى شيكاغو - الولايات المتحدة، وتعلم فى مدارسها، وحصل على شهادة بكالوريوس الفيزياء فى جامعة إلينوى، ثم التحق بجامعة أكسفورد، وحصل فيها على درجة الماجستير فى الفيزياء وفلسفة العلم، وبعدها حصل على درجة دكتوراه تخصص فى الفيزياء النظرية فى جامعة ستانفورد.

- كتب العديد من الكتب والمقالات العلمية عن الكون والفيزياء، وبلغ عدد الكتب التى قام بتأليفها أكثر من ثلاثين كتاباً وعشرات المقالات فى كبرى المجلات العلمية العالمية، كذلك ألقى العديد من المحاضرات العلمية عن الكون والفيزياء، كما أنه عضو ومستشار فى الكثير من المنظمات العلمية العالمية مثل: الجمعية الفيزيائية الأمريكية والجمعية الأمريكية لتقدم العلوم.

- حصل على العديد من الجوائز من منظمات علمية عالمية مثل المعهد الأمريكى للفيزياء، وذلك لنشاطه فى تقديم الإعلام العلمى بأحدث المقالات فى الكون والفيزياء، ولأسلوبه المتفرد فى تبسيط العلوم خاصة فى علم الجسيمات دون الذرية وعلم الكون وعلوم الأرض والفيزياء الطبية (أبحاث عن السرطان).

- من مؤلفاته التى لاقت شهرة واسعة، (قاموس الثقافة العلمية) و(هل أنت فريد فى الكون) و(تأملات عند غروب الشمس) و(لحظة الخلق) و(هل نحن وحدنا فى الكون) و(من الذرات إلى الكواركات) و(الحياة فى الفضاء) و(ما العلم؟)، وفى مقابلة تلفازية حديثة، يعترف بأن أفكاره تتشكل بتأثير قراءة الخيال العلمى الجاد، خاصة الذى يكتبه الكاتب الشهير (إسحق أزيموف) وتحديدا كتابه (الأساس) وقصصه القصيرة عن الروبوتات.

المترجم فى سطور :

رؤوف وصفى صبحى

- ولد فى القاهرة.
- درس فى جامعات مصر والعراق والكويت.
- حصل على جائزة تبسيط العلوم - أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .
وجائزة الثقافة العلمية - أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .
- عضو اتحاد الكتاب.
- ترجم العديد من الكتب العلمية ، وفى مجال الخيال العلمى منها: «الروبوت» و«الحاسب الآلى» و«كوكب الأرض» و«مذنب هالى» (مؤسسة الكويت للتقدم العلمى) ومسرحيات من الخيال العلمى (وزارة الإعلام - الكويت). وقام بترجمة « ثلاث رؤى للمستقبل » و«حرب العوالم» و«الرجل الخفى» و«بشر كالآرباب» والقصص القصيدة الكاملة (ف. ج. ويلز) والقصص الكاملة (راى برايبورى) (الجزء الأول). للمركز القومى للترجمة، وكذلك ترجمة مقالات علمية فى مجلة الثقافة العالمية.
- شارك فى العديد من الندوات منها «ندوة الخيال العلمى» وقام بإعداد البرنامج التليفزيونى «سؤال وجواب» وتقديمه فى تليفزيون الكويت و«الخيال العلمى» (إذاعة الكويت).
- نشرت مقالاته وقصصه فى عدد كبير من الصحف والمجلات العربية، منها جريدة الاهرام وجريدة الاخبار ومجلة العلم (مصر)، ومجلة العربى الكويتية ومجلة «التقدم العلمى» مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ومجلة «دبى الثقافية» الإمارات.

- أحد رواد أدب الخيال العلمي والثقافية العلمية في الوطن العربي.
- المنسق العام لرابطة كتاب الخيال العلمي العرب.
- حاصل على شهادة وميدالية من نقابة المعلمين.
- صدر له عن مؤسسة دار المعارف عدد من الكتب منها: المدن الكوكبية - الأقمار الصناعية - الروبوتات - كابتن الفضاء - توب كابي - متحف الوفرة.
- صدر له في سلسلة مكتبة الأسرة: ثلاث رؤى للمستقبل و "طاقة المستقبل".

التصحيح الغوى: محمود مبروك
الإشراف الفنى : حسن كامل

